المعز لدين الله الفاطمي

واضع أسس الوحدة العربية الكبرى

تأليف
عارف تامر
دكتور في الآداب

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م



مقدمة:

ينقدنا بعض المتأدبين في احاديثهم، ويرموننا بالسنة حداد في تقولاتهم.... لا لشيء ـ الاّ لأننا نقف من الدراسات الفاطمية موقف الحياد والاعتدال، ونلتزم بالمبدأ القائم على ايراد القضايا التاريخية كاملة صحيحة مستقاة من ينابيع الحقيقة المجرّدة، مع الابتعاد، ونبذ كل مصدر تاريخي ينطوي على التعصب الديني الذميم، والحقد البغيض سواء أكان مصدره دعاة الفاطميين ام غيرهم.

لقد أنكرنا منذ ان تخصصنا بهذه الدراسات مبدأ التعصب، وابتعدنا عن اثارة النعرات، ودعونا الى الالفة والمحبة والتسامح، ووقفنا أخيراً من هذه الانتقادات موقف اللامبالاة، واعتبرناها عاصفة في فنجان اثارتها وتثيرها الرواسب القديمة، ومخلفات عهود الظلام التي لا تزال كامنة في النفوس تنتظر الفرصة للوثوب، وتعطيل مسيرة الخير والحب والسعادة الانسانية. فموقفنا هذا من الفاطميين املاه ويمليه علينا وجداننا وضميرنا وقناعتنا بان هذه الأسرة قد ظلمها التاريخ وتجنّى عليها المؤرخون في العصور القديمة والحديثة، عن قصد او دونما قصد... لا أحد يدري؟

ونقف اخيراً امام شعارنا هذا الناطق بالتسامح والنسيان، وتجاوز كل ما صدر ـ ويصدر، لنلزم انفسنا من جديد بالاستمرار، واستئناف عملنا وفق ما تعهدنا به، وكرسنا انفسنا له، من كتابة التاريخ الصحيح مستقى من المصادر الموثوقة، والينابيع الصافية.... وخاصة هذا الكتاب الذي يعبّر عن اهم فترة في تاريخ الفاطميين، وأعني بها عهد الخليفة الفاطمي الرابع الامام المعز لدين الله، وَاضع اسس الوحدة العربية الكبرى... وسواء اكان في المغرب، او في مصر، او في الشام، فعصره يعتبر من الأهمية

بمكان بالنسبة لتاريخ الدولة الفاطمية العام الذي سبق لباحثين وكتاب عديدين ان تناولوه في بحوثهم ومؤلفاتهم، فجاء بعضه، او القسم الأكبر منه مشوهاً ومسنوداً الى مصادر قديمة وضعها اعداء الفاطميين بتوجيهات أموية او عباسية او فئات اخرى معادية.

امام هذا الواقع كان لا بد لنا من تخطيها، وعدم اعتبارها، او الاخذ بها، لأنها حفلت بالدس والحقد والتحامل مما لا يتلاءم ومبدأ الباحث المنصف.

امّا المصادر الفاطمية انفسها، وما اورده بعض الكتاب الاسماعيليين الأقدمين او المعاصرين، فهؤلاء ايضاً، وبعضهم ذهب به الغرور والحماس الى حد تشويه الحقائق والطعن والتجريح، والخروج على مبدأ الواقع، وكأني بهم ارادوا ان يمدحوا فطعنوا، وان يخدموا فأساءوا.

ان مؤلفاتنا العديدة عن العهد الفاطمي، لم تكن يوماً من الايام مشحونة بالحقد والتعصب، فنحن كثيراً ما وجهنا انتقاداتنا الى المصادر الفاطمية المبالغ بها نفسها، وشجبنا موقف بعض الكتاب الاسماعيليين الذين ضاعوا بين الخطأ والصواب، ولم يميزوا الغث من الثمين، فكان ابتعادهم عن جادة الحقيقة، وخروجهم على المبدأ الفاطمي الأصيل مدعاة لتعطيل مسيرة التاريخ، وكثيراً ما اعطينا رأينا بحرية وصراحة دون اية مؤثرات منتقدين القضايا التي تخرج عن دائرة العقل، وكل هذا عرضنا الى اللوم والانتقاد ايضاً.

ومهما يكن من امر، فنحن باتخاذنا هذا الموقف نرى لزاماً علينا ان نعلن باننا لم نتقاض اي اجر او مكافأة من احد، لأن الفاطميين طواهم الدهر، ولم يبقَ من اثارهم سوى أفكارهم وتعاليمهم وذكرياتهم... والحقيقة فأني لا أجد في هذا العصر من يمثلها أو يعتنقها أو يضطلع بها. فالدعوات والمنظمات الطائفية القائمة الآن ومع كل اسف ليس لها اية

ارتباطات أو صلة بالفاطمية القديمة، وهذه الحقيقة لا يدركها الآ قلة من الناس.

ان الأسرة الفاطمية التي نؤكد وندعم ونقر انتسابها للامام علي بن ابي طالب، ولفاطمة الزهراء ابنة النبي الكريم محمد (ﷺ)، لم تكن «قدآحية» أو «ميمونيّة» أو «ديصانية» أو «فارسية» كما جاء في مصادر تاريخية عديدة.... فهذه النعوت، وتلك الالقاب لا تخرج عن كونها اساطير وهمية واتهامات سخيفة الصقها الاعداء بهذه الاسرة تشفياً وانتقاماً وطعناً وتقليلاً من أهميتها بالنسبة للعالمين العربي والاسلامي، ولعمري بان من يسلّط السيف على رقاب ابنائها في العهود الماضية البعيدة، ويسوقهم الى مواقع النطع، ويستحل دماءهم، ويطاردهم اينما وجدوا، فلا يجد غضاضة بتشويه نسبهم، والطعن بأصلهم، واشاعة الاراجيف عنهم، ومن الواضح ان كل هذا جرى بالعهدين الاموي والعباسي، وخاصة في الفترة الزمنية المعروفة «بدور الستر» وهي الفترة التي كان بخلالها الأئمة الفاطميين مستترين عن الأنظار تحت اسماء وألقاب مستعارة لاخفاء شخصياتهم عن اعدائهم الحاكمين الذين كانوا يحصون عليهم الانفاس، ويقتلونهم على الشبهة.

وكم هو جدير بالتنويه القول: بان احد هؤلاء الأئمة، او مؤسس دعوتهم الأول «محمد بن اسماعيل» اتخذ من مهنة طب العيون المعروفة في العصور القديمة باسم «قدآح» ستاراً لاخفاء شخصيته، وابتعاداً عن مكامن الخطر، وجاء ابنه من بعده يتخذ من «ميمون» اسماً له للتغطية وللتمويه.... فليس معنى هذا ان الاسرة الفاطمية تنتمي الى «ميمون القداح» وانها دخيلة على العرب والاسلام، وانها لا تمت الى علي بن ابي طالب وفاطمة الزهراء بأي نسب.

وحبذا لو ان هؤلاء عرفوا، او حاولوا معرفة «ميمون القداح» هذا الذي لم يكن سوى اسم لشخصية اسطورية خرافية انتحلها محمد بن اسماعيل

وابنه اخفاءً لشخصيتها، فالتبس كل هذا على الناس حتى على اقرب المقربين للفاطميين... وهكذا ضاعت الحقيقة الآ عن قلة من الناس، وراح الاعداء وراء تصوراتهم وأوهامهم. وانه لمن الصعوبة بمكان اصلاح الاخطاء والعودة بالتاريخ الى جادة الحقيقة ـ والواقع في يسر وسهولة.

ان الاسرة الفاطمية هي «علوية» بانتسابها الى الامام علي بن ابي طالب، و «فاطمية» بانتسابها الى فاطمة الزهراء ابنة النبي العظيم محمد (ﷺ)، وهذا الانتساب الاخير غلب عليها وميزها عن علويين آخرين ينتسبون الى علي بن ابي طالب، ولكنهم من امهات غير فاطمة الزهراء.

اجل... لقد ظلّت هذه الاسرة قبل ظهورها على المسرح السياسي محافظة على تسلسلها ـ الامامي حتى عهد الامام الخامس «جعفر بن محمد الصادق» ففي عهد هذا الاخير وقع الانقسام في المجموعة الشيعية الكبرى، وذلك بعد وفاة ولده الأكبر «اسماعيل» الذي تؤكد المصادر انه مات في حياة والده. فقالت الاسماعيلية بان الامامة لاسماعيل، ما دام ان ولاية العهد كانت ممنوحة له في عهد والده، وما دام الامر على هذا المنوال فان الامامة يجب ان تؤول الى ولده «محمد» من بعده، بينما رأت «الاثنى عشرية بان الامامة بعد اسماعيل يجب ان تنتقل الى اخيه الاصغر «موسى الكاظم» وهكذا وقع الانقسام الكبير بين المجموعة الشيعية... ذلك الانقسام الذي لم يكن هناك بداً منه.

امّا «محمد بن اسماعيل» الذي يعتبر الامام السابع من الوجهة الاسماعيلية، فقد كان عليه ان يغادر المدينة المنوَّرة وينجو بنفسه من شبح الموت الذي كان يلاحقه، ويسد عليه المنافذ.... فخرج متخفياً تحت جنح الظلام، وجاء الى بلاد فارس حيث اشياعه واتباعه، ولكنه تعرَّض الى مضايقات وملاحقات ومطاردة عباسية عنيفة، اضطرته اخيراً الى الخروج والذهاب الى ناحية نائية تخفيه عن انظار العباسيين ـ فحطَّ الرحال في بلدة «تدمر» السورية، وأقام فيها تحت اسم «القدّاح» اي طبيب العيون، فعرف في تلك

الديار باسم « القدّاح الفارسي ».

وبعد موته انتقل ولده « عبدالله » الى بلدة « سلمية » السورية، واخذ يعمل في التجارة والزراعة تحت اسم « ميمون القدّاح »، وبعده تسلّم الامامة ولده « احمد » ثم « الحسين » واخيراً « علي »... . وعلي هذا مات في سن مبكرة تاركاً ولده وولي عهده « القائم » في عهدة ابن عمه - « سعيد الخير » او « عبيد الله المهدي » الذي احتضنه وكفله وقام بالوصاية عليه تحت شعار « الامامة الاستيداعية » المعترف عليها في التعاليم الامامية الفاطمية.

ومن المعروف ان « عبيد الله المهدي » انتقل من سلمية الى المغرب، وأسّس الدولة الفاطمية وقبل وفاته سلّم الى القائم بأمر الله شؤون الخلافة والامامة باعتباره صاحبها الأصبل، وبعد القائم تسلّمها « المنصور » ثم « المعز لدين الله » الذي نكتب سيرته في هذا الكتاب.

ان كل ما ذكر وسطّر في كتب التاريخ القديم والحديث خلاف هذا عن هذه الاسرة يعتبر مزاعم وترهات وسخافات لا اساس لها من الصحة. وعلى العموم فهي مغالطات بعيدة عن الواقع.

امّا « القرامطة » الذين يلعبون دوراً مهماً في كتابنا، فموضوعهم اتخذ منه بعض المؤلفين - والكتاب واصحاب دور النشر في هذه الايام مادة للربح والتجارة، مثيرين حولهم الاقوال المتناقضة - والقصص الغريبة.

لا جدال ان القرامطة فرقة من الاسماعيلية خرجت على الدعوة في عهد « الستر » ببلدة سلمية - السورية، اذ اشكل على بعض اقطابها ودعاتها فهم الواقع، او النهج الباطني الذي كان يسلكه، ويخطط له الائمة الفاطميين في تلك الحقبة العصيبة، كما ان اجتهاداتهم وحماسهم ذهب بهم الى حد اشعال الثورة المبكرة دون مراعاة او حسبان ما قد تجره تلك الثورة من فشل وانعكاسات، وكل هذا ادىّ الى حدوث انقسامات في الصفوف، فخرجت هذه الفرقة عن المجموعة، واتخذت لنفسها سبيلاً اخر، ومن الواضح ان القرامطة تنكروا للفاطميين، وابتعدوا عنهم، - وشنوا عليهم حروباً كانت

اقسى وأشد من حروب الامويين والعباسيين. من هنا فيجب علينا كباحثين التفريق بين الفاطميين والقرامطة، وعدم الأخذ بما ذكرته بعض المصادر. فالقرامطة كانوا اقسى على الفاطميين من العباسيين، وعندما نذكر ذلك يتبادر الى ذهننا جريمتهم التي ارتكبوها في سلمية عندما اقدموا على قتل اسرة عبيد الله المهدي والقائم وعددهم /٨٣/ شخصاً، وحروبهم التي شنوها على الفاطميين في ديار الشام، وطرقهم ابواب القاهرة اكثر من مرة. فبعد هذا كيف نحسبهم من الفاطميين، وهل من الانصاف ان نعتبرهم المسؤولين عن تصرفاتهم؟

لقد سبق لي ان قلت اكثر من مرة، بانه لولا موقف القرامطة المعادي للفاطميين في بلاد الشام ولولا وقوفهم بوجه تطلعاته وطموحتهم... اذن لزالت الدولة العباسية من عالم الوجود، ولتحققت في عهد المعز لدين الله اكبر وحدة عربية اسلامية كبرى، ولتغيَّر وجه التاريخ.

اجل... لقد ثبت بالدليل القاطع ان القرامطة في ثورتهم وحروبهم كانوا اداة طيعة في ايدي العباسيين يوجهونهم اينما شاءوا وأرادوا، ولم يكونوا في يوم من الايام مع الفاطميين. امَّا بالنسبة للعقيدة الدينية، فالقرامطة اعتنقوا المذهب الفاطمي في بدء ظهورهم، ولكنهم تحولوا فيما بعد الى فرقة علمانية تقوم تعاليمها ونظمها على الامية، والتنكر للاديان السماوية كما هو واقع الشيوعية الآن.

في ربوع التاريخ:

ان ما ذكرناه في المقدمة لا نعتبره انتصاراً للفاطميين، وانما هي كلمة حق سجلناها ـ للحقيقة وللتاريخ، فنحن نأبى ان نسند لأنفسنا مهمة الدفاع عن هذه الاسرة الكبيرة التي لعبت دوراً بارزاً على مسرح العالم العربي والاسلامي، وكتبت في سجل الحضارة انصع الصفحات. فمهمتنا كما عاهدنا انفسنا تنحصر بايراد الوقائع والاحداث مأخوذة عن المصادر الموثوقة... دون تعليق... فالتعليق معناه الرد، والرد معناه ايضاً فتح الباب على مصراعيه، والدخول في مناقشات ومهاترات لا حد لها... وكل هذا نضرب صفحاً عنه.

والحقيقة فاني لم ارَ في التاريخ العربي اسرة حاكمة نالت من اهتمام الناس، وتعرضت للطعن ـ والسب والشتم كما تعرضت هذه الاسرة، ويكفي ان يكون الامر قد وصل ببعض المتهجمين الى حد نسبتها ـ لليهودية تارة، وللمجوسية اخرى.

وهنا لا بد من استعراض بعض اراء المؤرخين والمستشرقين المنصفين:

ان المستشرق الافرنسي «دي ساسي» DE - Sacy في كتابته عن هذا الموضوع القى قبساً من النور، وخرج عن مبدأ التحيز، ويبدو انه وضع امامه فكرة نقد شذرات مهمة كتبها «الشريف اخو محسن العلوي الشيعي» وهو ضد الفاطميين، وعميلاً للعباسيين، وقد نقلها عنه «ابن النديم» ونسبها خطأً الى «ابن رزّام». ولكن المؤرخ «النويري» في كتابه «نهاية الارب» و «المقريزي» في كتابه «اتعاظ الحنفا» ناقشا عبارة أخي محسن تلك، وفندا اقواله، ولم يأخذا بها.

امّا « دي ساسي » فبعد ان اطلع على كل ذلك، مال الى الأخذ بمبدأ صحة نسب ـ الفاطميين فقال:

« لو ان عبيد الله المهدي كان دعياً حقاً، ولم يكن من سلالة علي بن ابي طالب، فان ابناء علي الحقيقيين الذين لم يتطرق اليأس الى نفوسهم لم يفقدوا الأمل قط في انه سيأتي اليوم الذي يستطيعون فيه ان يؤكدوا حقوقهم، وان يهتموا بكشف القناع عن هؤلاء الادعياء... ويضيف:

ان مسألة نسب الفاطميين من اعقد مسائل تاريخ الشرق، واكثرها غموضاً وابهاماً ويقيني ان كتاب التاريخ في ذلك العصر كتبوا ما كتبوا متأثرين بسطوة العباسيين الحاكمين.

وقال المستشرق « كترمير » «Quatremere»

على ان بعد الزمن، وما ساد العقول من اوهام، وما تسلّط على نفوس الرجال من ميول ونزعات، وما ادلى به المؤرخون من ادلة متناقضة متضاربة.... فمنهم من كتب متأثراً بسلطان العباسيين، ومنهم من قام بهذا العمل عن سابق عداوة وحقد لهذه الاسرة، وكل هذا قد أحاط مسألتهم بظلام دامس، وعلى الرغم من تباين اراء الكتاب الاقدمين في هذه المسألة، فأني اميل الى القول باطمئنان وثقة: بان نسب الفاطميين الى علي وفاطمة صحيح ولا غبار عليه.

ويعلق بعض المؤرخين على قصيدة « الشريف الرضي » الشاعر الكبير، والفقيه العلوي ـ المشهور... تلك القصيدة التي أثارت وحرّكت احقاد وحنق الخليفة العباسي القادر. فقد نقل المؤرخ المقريزي عن هلال الصابي وابنه محمد بان الرضي لم يودع ديوانه هذه القصيدة خوفاً من الخليفة العباسي لانَّ فيها دعماً لنسب الفاطميين، ودليلاً على قرابته منهم، ودحضاً لما جاء في الوثيقة التي اجبر الشريف الرضي على توقيعها.... وتعتبر هذه القصيدة وثيقة تاريخية تثبت انتساب الشريف الرضي لخليفة مصر الفاطمي:

ما مقامي على الهوان وعندي مقول صارم وانف حميٌّ
احمل الضيم في بلاد الاعادي وبمصرَ الخليفة العلوي
من ابوه ابي ومولاه مولا يَ اذا ضامني البعيد القصيٌّ
لفَّ عرقي وعرقه سيدا النا سِ جميعاً محمد وعلي

امّا المؤرخ « ابن الاثير » فقد جعل لقصيدة الشريف الرضي هذه اهمية تاريخية كبرى وزاد فقال:

انه ناقش مسألة هذا النسب مع جماعة من العلويين العارفين بالانساب، فلم يرتابوا في ان الفاطميين من ابناء علي وفاطمة.

ويأتي المؤرخ « ابن خلدون » ليدحض في مقدمته كافة الاقوال التي انكر فيها الكتاب والمؤرخون صحة نسب الفاطميين فيقول:

ومن الاخبار الواهية ما يذهب اليه الكثيرون من المؤرخين عن « العُبيديين » اي اسرة ـ عُبيد الله المهدي الشيعة في القيروان، ونفيهم عن اهل البيت، والطعن في نسبتهم الى اسماعيل بن جعفر الصادق، فهؤلاء يعتمدون على احاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفاً اليهم بالقدح ممن ناصبهم العداء.

امّا المؤرخ المقريزي، فقد شدَّد النكير على هؤلاء القائلين بعدم صحة النسب، ففي بعض ـ مراجعه يعتبر ان نسبتهم الى القداح اسطورة سخيفة... ويضيف على ذلك قوله:

ان الأئمة الفاطميين في « سلمية » لم يكونوا معروفين لغير خاصتهم، وان العامة لم يكونوا يعرفون اسماء هؤلاء الأئمة، كما ان دعاتهم انفسهم كانوا يختلفون قصداً في ذكر اسمائهم. وذلك لكي يحوطوهم في سياج من المتعة والتخفي. وقال في مكان اخر:

ان علية القوم في مصر، ومن بينهم طائفة من الاخشيديين ورجال البلاط... جميع هؤلاء قدموا كل ما استطاعوا من معونة لعبيد الله

المهدي، عندما جاء الى مصر بطريقه الى المغرب لا لشيء الاّ لانه من اولاد علي وفاطمة.

وذكر حسن ابراهيم حسن. وطه احمد شرف، في كتابهما عن المعز لدين الله الفاطمي:

بان المعز لدين الله ينتسب الى الرسول العظيم محمد (ﷺ) عن طريق ابنته فاطمة الزهراء، والى علي بن ابي طالب ابن عم الرسول (ﷺ) وزوج ابنته فاطمة... فهو فاطمي لانه من سلالة فاطمة، وعلوي لانه من سلالة علي.

وفي الابيات التالية للشاعر المغربي «ابن سعدون الورجيلي» بيان واضح عن نسب عبيد الله المهدي:

هـــذا اميرُ المؤمنين تضعضعـــت لقـــدومـــه اركـــان كـــل امير
هـذا الامـام الفـاطمـي ومـن بـه أمنـت مغـاربها مـــن المحـــذور
يـا مـن تخيَّـر مـن خيـار دعـاتـه ارجـــاهـــم للعسر والميســـور

الإمامة الفاطميَّة:
قيادة وسياسة في ظل الاسلام:

هذا الفصل كان لا بد من اثباته في كتابنا هذا، لانه يلقي الاضواء على نواحي غامضة في تاريخنا ويظهر حقائق محجوبة عن الانظار، ويعطي فكرة صحيحة عن موضوع شغل ويشغل فكر المثقف العربي.... اذن فكل ما نذكره في هذا الصدد لا يخرج عن كونه خدمة ادبية مجردة.

فنحن عندما نقول: بان الفكر العربي بالرغم من اتساعه وشموله ووفرة عطاءاته، وخصب لحاته قد تأثر في عهد ظهور الاسلام بافكار غريبة، ولقاحات جديدة تسربت اليه من مجتمعات دينية وثقافية اخرى بفعل ـ

العوامل السياسية العنيفة التي اتخذت اهدافاً مغايرة كانت ترمي الى احداث الفجوات في البنيان المتين الذي اكتمل بظهور الرسالة المحمدية السمحاء. فلا نكون قد خرجنا عن مبدأ الواقعية، او تجاوزنا حدود الحقيقة.

فهذا الفكر كان لا بد له من الرضوخ والانصياع الى الملامح، والى الاشعاعات التي ظهرت بسرعة في المجال، ثم تسربت الى الارض الخصبة تخلع عليها مبادىء جديدة وافكار تحمل في باطنها طعن الاصل والجوهر، وتفكيك كل ما جاء به من افكار وتعاليم ومبادىء. وقد يكون من اولى الواجبات على الباحث المنصف دراسة التقلبات الفكرية، والتلاحقات العقلية في ظل ذلك العصر البعيد، وتسليط انوار العقل، واستخدام المجاهر لرؤية الخيوط المتشابكة، وسبر اعماق ما وراء الموضوع من امور خافية، وقضايا مجهولة غطّت على الحقيقة وحجبتها عن الانظار. فالعقل الانساني منذ ان وجد على سطح هذا الكوكب يحنُّ الى الانفلات من القيود التي توضع في ظروف مختلفة لتقييد افكاره وتطلعاته، ويتوق الى الكمال المطلق حيث المعرفة والراحة والاطمئنان.

هذا الواقع الحياتي لا اجد له تعبيراً سوى القول:

بانه انتفاضة العقل، او الثورة على القديم.... فكثيراً ما تكون هذه الانتفاضات مخلوقة فيه، او راقدة في اجزائه تنتظر الفرصة السانحة للظهور، وقد يكون للعوامل، وللمؤثرات الخارجية اسبابها وفاعلياتها في تحركه وخروجه احياناً عن الواقع المألوف.

اجل... كان العقل العربي بعد ان استراح في ظل الاسلام يمتلك قوة روحية وطاقة طافحة بالايمان كانت مستعدة بقبول اي تأثير نبيل يدخل عليها ويزيدها قوة وتقدماً وانطلاقاً.... اذ ان الاسلام غمرها بالثمار الفكرية اليانعة، والدفع الجديد، والدم الشاب، فأفاض عليها الخلق والابداع واعطاها النمو والازدهار، وقلب الموازين، وغيَّر الاتجاهات لدرجة انه نفذ الى ما وراء الحدود ليزرع فيها بذور المعرفة والثقافة والشروق. ولكن

بعد هذا لا بد لنا من التساؤل؟

هل استمر ذلك الواقع طويلاً، وهل سلمت الافكار الجديدة من مؤثرات برزت للوجود وفي جعبتها التيارات الجارفة والتعاليم التعصبية التي تهدف الى احداث الانتفاضة في بناء العقل وتحويله عن مبادئه واهدافه، وجعله يسير في اتجاهات اخرى تكمن في جوانبها الثغرات والفجوات.

ان الوقائع والحقائق تدل على انه ما كاد نجم الرسالة المحمدية السمحاء يتوارى حتى ظهرت للوجود الافكار والدعوات المستوردة التي قامت باسم الدين، وأخذت تبشر بافكارها، وتستقطب المؤيدين من الناقمين والطامعين، وقد يكون اسباب كل هذا اطماع النفوس، والتخلي عن المبادىء الانسانية، وتحريك العصبيات، وبروز النزوات، والدعوات القبيلية والعائلية. فلقد حوّل ذلك الواقع المبدأ الاساسي عن نهجه الاصيل، وسار بعيداً في مضمار التطرف العنيف لدرجة انه لم يترك فرصة للالفة، او التقارب بين الفئات المتصارعة، وكان من جراء تلك الفرقة او الهوة السحيقة ان فصلت الاجزاء المتلاحقة عن بعضها البعض، وجعلتها عرضة للتيارات الجارفة، وللعواصف الهوجاء تتلاعب بها، وتعصف بحياتها ووجودها.... وهنا لا بد من العودة الى التاريخ لاستعراض ما جاء فيه مدللين على ان الحقيقة كثيراً ما يجرفها الجهل، ويخفيها في سجفات الظلام.

ان مبدأ «التشيع» كان اول بذرة غرست في ارض البناء... بل اول دعوة تسربت للمجتمع الاسلامي بعد انتقال النبي العظيم محمد(ﷺ)، وهي في الحقيقة فكرة بثها وعممها ودعا اليها الفريق المعارض الذي خسر معركة الخلافة الاولى، او بلغة اصح هي الطعنة النجلاء التي كان لا بد من توجيهها للفئة الحاكمة التي استأثرت بالحكم.... وتلك المبادىء كما هو معروف ارتدت الطابع الديني باسم «الخلافة» ثم تفرعت منها فيما بعد الدعوات الاخرى المختلفة التي لا تزال قواعدها قائمة وعاملة حتى يومنا

هذا . فالامامة التي تعتبر من وجهة النظر الشيعية المحور او الركن الاساسي للعقيدة وللدولة ، تطورت وانبثقت عنها نظريات اخرى اتخذت ابعاداً اخرى مختلفة ثم تشعَّبت وادت الى اختلافات وانقسامات بالاصول وبالفروع ، مما يطول شرحه .

وفي هذه الصفحات نرى لزاماً علينا ، ونحن في صدد التحدث عن التاريخ الفاطمي ، ان نستعرض اراء اعلام الفاطميين في « الامامة » ودورها في القيادة ، وكل هذا مأخوذ من مصادر تاريخية موثوقة ، ولا شك انها سوف تغير الافكار ، وتمحو النظريات ، وتعيد الحقيقة الى قاعدتها ، والواقع الى اساسه .

فالامامة لم تكن في يوم من الايام بالنسبة للفاطميين الاّ القاعدة الرئيسية للدولة وللدين ، والمعروف انهم استعاضوا بها عن الخلافة التي قال بها الامويون والعباسيون كما انهم اطلقوا عليها اسم « الوصاية » ومعناها « التولية » . . . اذن فهي نظام من انظمة الحكم قوامه القرآن واساسه الشريعة المحمدية .

فالامام عندهم هو نائب النبي والقائم مقامه في الحفاظ على اسس الدين ، وحماية الشريعة وحراسة مقدساتها وحفظها من اي تغيير او تحوير او تبديل . ومن الحقائق الثابتة :

ان الامامة ليست رجعة الامام بعد موته ، او التجسيم ، او الحلول ، او معرفة الغيب ، والاسرار ، والقدرة على كل شيء ، او تقمص الالوهية . وقد يكون من المفيد ايراد الشواهد التي تلقي الانوار الساطعة على هذه العقائد الفاطمية ، وتبعد عنها التقولات الاخرى التي هي بحد ذاتها بعيدة كل البعد عن الجوهر والاصل .

فقد ورد في كتاب « المجالس والمسايرات » خطاب وجهه الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الى قاضي قضاته « النعمان بن حيوّن التميمي » قوله :

« انه انتهى اليك والينا قولهم : اننا ندفع نبوءة محمد ، وندعي النبوة بعده ،

وندفع سنته، وشريعته، وندعو الى غيرها. فلعن الله من قال بهذا، او انتحله، وادعاه، ومن تقوله علينا، ورمانا به، ونسبه الينا».

وقال المعز لدين الله:

«ينتهي الينا اخبار عن البعض، ممن يزعم انه يتولانا، وبعض من يدعي انه يدعو الينا.... من الغلو فينا، والقول بما لم نقله في انفسنا، وبما لم يسمعه احد منا، حتى كأنهم اعلم منا بما يقولونه فينا. ونحن نبرأ الى الله من كذبهم علينا، وتقولهم فينا. فنحن من عباد الله مخلوقون، ومربوبون، لا علم لنا الاَّ ما علمنا وصار الينا عن نبيه جدنا محمد (ﷺ) مما اودعه الله اياه، وأورثنا من بعده وأودعنا... لا نحيط من علمه الاَّ بما شاء، ولا غيبه الاَّ ما اطلع عليه منَّا من ارتضاه كيف احب وشاء... لا ندعي النبوة والرسالة بل نحن المستحفظون على الامامة. حلالنا من كتاب الله، وحرامنا منه، وطاعتنا مفروضة على عباد الله بحكمته. فمن عرفنا فقد عرف الله ومن جهلنا فقد جهله. نحن الدالون بحكمته علينا، والقائمون بأمره على عباده. نحن دونما يقوله الغالون، وفوق ما يظن الجاهلون... انما اراد من نحلنا علم الغيب، ونسب الينا تنزيل الوحي، ان يجعل ذلك مقدمة لنفاقه علينا.»

وقال داعي الدعاة الفاطمي المؤيد في الدين في مجالسه المؤيدية:

«من دان بالهية البشر ممن مضى ومن غبر، خاب في الدارين وخسر، وما فيه عبرة لمن اعتبر، وذكرى لمن تذكر. فاستعيذوا بالله تعالى من الوقوف في موقف شركهم، واطلاق الالسن بمثل افترائهم وكذبهم.».

وقال في احد مجالسه ايضاً:

«وجانبوا الغلو فيهم، فان الغالي هالك، وفي سقر هالك. واعلموا ان اولياء الله من طينة الارض معجونون، وللكون والفساد من حيث اجسامهم مضمونون... يمسكهم الشراب والطعام، وتلحقهم الامراض والآلام، ويقضي عليهم عند استيفاء ايامهم الحمام، لا كما زعم الزاعمون من الجهلة

الذين تسببوا في اعتقادهم السخيف الى الراحة، واطراح التكليف انهم متردون برداء الالهية... ففي قولهم من الخلل ما لا يعلق بقلب، ولا ينطوي على ذي لب.».

وقال الفيلسوف الكرماني في رسالة «الهادي والمستهدي»:

«ان اعظم الفرقة ضلالة هي فرقة الغلاة التي ضلّت وأضلّت غيرها فانسلخت عن جملة اهل الدين والديانة.»

وقال المؤرخ المقريزي:

«ان الحاكم بامر الله عمد سنة ٣٩٥ هـ. الى اصدار قوانين بدافع الشعور الديني لاصلاح الاخلاق وتطهير النفوس من رذائل المجتمع، كما انه اصدر السجل المشهور وسماه: امان جدنا محمد خاتم النبيين وأبينا علي خاتم الوصيين».

وقال ابن خلدون:

«واما ما رمي به الحاكم بامر الله من الادعاء بالالوهية فغير صحيح، ولا يقبله عقل سليم»

وقال العلاّمة الدكتور سرور:

«ليس هناك ما يثبت ان الحاكم بامر الله قد ذهب بتصوراته الدينية الى حد الخروج على قواعد الاسلام».

وقال الخليفة الفاطمي الثالث «المنصور بالله» وكان عالماً بالنجوم:

«والله ما نظرت فيها الاّ طلباً للعلم، وتوحيد الله، وتأثير قدرته، وعجائب خلقه، ولقد عانيت ما عانيت من الحروب وغيرها، فما عملت في شيءٍ من ذلك باختيار مني دلائل النجوم، ولا التفتُّ اليه.»

وقال القاضي النعمان بن حيوّن قاضي قضاة الدولة الفاطمية:

«فإنّا لا نقول ما قاله الغلاة الضالون المبطلون الصادون عن اولياء الله، الزاعمون انهم يعلمون الغيب».

وقال الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ايضاً:

إنما يذهب الى النار من انتسب الينا. وقال عنّا اننا نعلم الغيب. وما تخفي الصدور»

وقال الدكتور «محمد كامل حسين» في كتابه «في ادب مصر الفاطمية»:

«وهكذا فاننا نرى الفاطميين لا يختلفون في عباداتهم عن غيرهم من المسلمين... فهم يحرمون ما حرّمه الله، ويتجنبون المآثم والمعاصي، ويحللون ما احله الله للمسلمين. قالوا:

بان الامام مكوّن من جسم ونفس، وبعد موته يتحلل كل قسم الى ما يناسبه، فالجسم الترابي يعود الى التراب، والنفس اللطيفة تعود الى ما يناسبها ويجانسها... فلا تتناسخ، ولا تتلاشى... فالفاطميون لم يقولوا بالتناسخ، ولا بالحلول، ولا بالتلاشي.... وهذا اكبر داعٍ من دعاتهم المؤيد في الدين يقول في هذا المعنى»:

فكيف شرع الانبياء ندفعُ ... وما لنا الاَّ النبي مرجع
بنوره في الدرجات نرتقي ... وبالكرام العالمين نلتقي
يا رب فالعن جاحدي الشرائع ... وارمهم بافجع الفجائع
والعن الهي غالياً وقالياً ... ولا تذر في الارض منهم قاليا

ومما يذكر عن الامام علي بن ابي طالب انه كان اشد قسوة وصرامة على القائلين بالالوهية، وهكذا جعفر بن محمد «الصادق» الذي حارب الافكار المتطرفة الدخيلة كما حاربها احفاده.

وجملة القول: فان الفاطميين رتبوا لدعوتهم نظاماً دقيقاً محكماً نكاد لا نجد له مثيلاً في تاريخ الدول والدعوات حتى في عصرنا الحاضر. وعندما نقول ذلك يتبادر الى ذهننا العصر الذي عاشوا فيه... ذلك العصر الذي يعتبر من ازهى عصور الاسلام، واكثرها رقياً ومدنية وحضارة، وخاصة

من الناحية الفكرية حيث ان الحياة العلمية وصلت الى درجة كبيرة من النمو والازدهار.

فالفاطميون قربوا العلماء، وشجعوا الطلاب، وأوقفوا الارزاق الثابتة على المشتغلين بالعلم، وكانوا اسبق من كافة الدول الاخرى في هذا المجال، وبكفي ان يكونوا قد عرفوا للعلماء قدرهم، وأعطوهم حقهم وفوق حقهم، وقد راينا كيف كانوا يهتمون بانشاء دور العلم والمعاهد وخزائن الكتب والمكتبات... وهكذا وجد العلماء لديهم ملاذاً يأويهم من العوز، ويحميهم من الفاقة، كما وجدوا لديهم ما يشجعهم على مواصلة البحث والتحصيل والدرس والتأليف.

وشجعوا العلم القائم على العلم والعقل والجدل والمناظرات، لان مبادئهم كانت تقوم على العلم والعمل بآن واحد، واستخدام العقل، ومطابقة المحسوس للمعقول.

ولقد اثرت الفلسفة اليونانية، والمذاهب القديمة فيهم، فاهتموا بهذه الفلسفة، واستعملوا بعض اصطلاحاتها وطرقها، وقطفوا زهورها وزبدتها، ودرسوها حق دراستها... في وقت كانت الفرق الاخرى ترمي كل من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والالحاد. وقد ذكر المستشرق «اوليري»:

«بان الحركة الفاطمية اخذت مكانتها في جو مشبع بالفكر «الهليني» واحياء المواد اليونانية». وقد ذكر التاريخ:

بان الخليفة الفاطمي الخامس «العزيز بالله» كاتب جبرائيل بن بختيشوع» واستدعاه الى مصر ولكنه اعتذر، واستدعى الخليفة الفاطمي السادس الحاكم بامر الله «الحسن بن الهيثم» فاستجاب له وأقام في القاهرة تحت كنفه. وكتب الحاكم بامر الله ايضاً الى والي حلب يطلب اليه دعوة «المعري» الى مصر، وكان قد عرض عليه بناء دار للعلم خاصة به، مضافاً الى ذلك انه سمح له بخراج «معرة النعمان» طيلة حياته، وقيل بعد موته.

وكنا ذكرنا في بحوث سابقة ان الفاطميين كان لهم دعاة في جميع ارجاء البلاد الاسلامية يناقشون ويجادلون اصحاب المذاهب الاخرى، وذكرنا كيف كان يلتفُّ العلماء حول هؤلاء الدعاة ويأخذون عنهم العلوم والمعارف، وهذا يدل على ان حركتهم لم تتوقف في قطر معين بل شملت كافة الاقطار الاسلامية وخاصة في القرن الرابع للهجرة.

فابن حوقل كان متشيعا حتى نسب اليه انه كان من دعاتهم، والفارابي عندما يتحدث عن القلم واللوح والحدود العلوية فانه يستخدم تعابيرهم واصطلاحاتهم، وابن سينا عرف بانه ابن احد دعاتهم، وان فلسفته مستقاة من فلسفتهم مع بعض التعديلات والاجتهادات، وابن الهيثم كان متصلا باحد ائمتهم، والمعري كان متأثرا بارائهم الى حد بعيد، وهكذا المتنبي، وبديع الزمان الهمذاني ولد من ابوين اسماعيليين، والغزالي في اواخر حياته آمن بفلسفتهم، وهكذا نصير الدين الطوسي، والمجريطي.
والحقيقة:

فان الوقت لا يسمح بتعداد الوقائع مفصلة عن المدرسة الفاطمية الفكرية ودورها في خدمة العلم والفلسفة... ولكن لا بد من القول:

بان كتابهم «رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء» قد ضم مختلف انواع العلوم كالرياضيات، والموسيقى، والطب، والمنطق، والادب، والشعر، وعلم الفلك... الى غير ذلك. وهكذا يظهر لنا انهم اخذوا في كل علم، وتفوقوا في كل فن.

اما «التوحيد» لديهم فيعطي الدليل على ايمانهم بان الباري منزّه عن الاسماء والصفات، لم يتجانس، او يتشاكل، ولا تبصره الابصار، او تدركه الافكار، او تلحق به العقول... تعالى عن شبه المحدودين، وتحيرت الأوهام في نعت جبروته، وقصرت الافهام عن صفة ملكوته، وكلّت الافكار عن ادراك عظمته.

قيام الدولة الفاطمية في المغرب:
عبيد الله المهدي ـ الخليفة الأول:

شخصية خارقة فذة ضربت المثل الاعلى بالاقدام.... لم يكتب له الشهرة والظهور على مسرح الحياة، كما كتب لغيره من العظماء، ولعل هناك عللاً وأسباباً اعترضت مسيرة التاريخ.

صنَّفه بعض علماء التاريخ الانساني في عداد الخالدين الذين قارعوا الاحداث وانتصروا عليها وواجهوا العقبات فتجاوزوها، ووصلوا اخيرا الى شاطىء الاهداف.

وذكر بعضهم:

بانه من العباقرة الذين لا يجود بهم الدهر الاَّ عندما تحمل الارض وينحبس المطر ويعم العقم بني الانسان.

مؤسس دولة كبرى لعبت دوراً مهما على مسرح الحياة في المشرق والمغرب.... في تاريخه شؤون وشجون، وحكايات مثيرة... وفي حياته تتجلّى العظمة باجلى مظاهرها.

في رحلته السرية سلمية ـ سورية الى سجلماسة في المغرب الاقصى تتجلى براعته وعبقريته، وضلوعه في التخفي، وانتحال الصفات، والافلات من كمائن الاعداء، واختيار الوقت المناسب للعمل الملائم، وباختصار: فان عبيد الله المهدي من رجال التاريخ، وكم يكون التاريخ منصفا وعادلا عندما يضعه في طليعة الخالدين.

الرحلة العجيبة:
ـ من المشرق الى المغرب ـ

بكى صاحبي لمّا رأى الدرب دونه   وأيقن انّا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبكِ عينك انما   نحاول ملكاً او نموت فنعذرا

مخطط ماهر، وعبقري فذ، وقائد مظفَّر متين الاعصاب، يصحو من نومه ذات يوم على همسات الاصدقاء المخلصين، والدعاة الثقاة العارفين بالامور الذين هرعوا الى لقائه، وفي جعبتهم ما يثير الخواطر، ويهز المشاعر... اجل.. لقد جاءوا اليه منذرين، طالبين الى قائدهم الاسراع بمغادرة مقر الدعوة «سلمية» الى مكان يكون اكثر امناً وراحة، وذلك قبل ان تحل الكارثة، ويقع ما لم يكن بالحسبان.

فماذا على القائد الكبير «المهدي» ان يفعل وهو يرى الحقيقة تتراءى امامه بأجلى مظاهرها؟ فراح يقلب شتات الافكار بسرعة، ويضع امام عينيه كافة الاحتمالات. واخيراً: رأى ان يستجيب لانذار رجال دعوته الخلصاء، وينجو بنفسه من مكامن الخطر.

لقد علم في تلك الدقائق ان القرامطة قد اتخذوا كافة الاجراءات للانقضاض على مقر الدعوة «سلمية» وتدميرها، وادخل في حسابه انه لا يملك من القوى ما يكفل الوقوف بوجه هذه القوى الجبارة او ايقاف زحفها. ومن جهة اخرى فان الدولة العباسية ذات النفوذ الواسع الممتد، والمخيم على شتى بقاع العالم العربي والاسلامي سوف لا تقف مكتوفة الايدي بعد ان ظهر لها مقر الدعوة الفاطمية الذي يخطط القائمون عليه الى تقويض دعائم الدولة العباسية، والاطاحة بخليفتها.

هواجس وافكار عرضت للمهدي وهو في موقفه هذا... فهذه الدنيا الفسيحة على رحبها ضاقت عليه بل ضنَّت بفسحة صغيرة يتخذ منها ملجأً له ومقراً؟ والى اين يذهب؟ والى اين يوكل امر اهله وقومه؟ وها ان الثغور والممرات والموانىء والمحطات قد اصبحت ملغومة بالعيون والارصاد، فكلها تترقب حركاته وسكناته.... تفحص كل عابر، وتدقق بهوية كل مسافر، وغرضها القبض عليه ونيل المكافأة والحظوة.

ويخطر في باله، وهو في خضم الاحداث، الذهاب الى اليمن حيث اتباعه ومريديه، ولكن احوال اليمن لا تبشر بالخير.. وعرض في باله

المغرب . . . اي افريقيا الشمالية . . . . فهناك داعيته المخلص « ابو عبد الله الشيعي » الذي ناداه امس للحضور، وارسل اليه الاموال والتحف ليستعين بها اثناء الرحلة . . . ولكن كيف يمكنه الوصول الى المغرب، واختراق الطوق المحكَّم الذي فرض عليه، واجتياز هذه الابعاد الشاسعة المليئة بالعثرات والاخطار والآفات .

انها خواطر مزعجة، وافكار سوداء، وهواجس كالحة دارت في رأسه، ولكن هل استطاعت الاحداث الطارئة ان تَلين من قناته، او تجبره على الاستسلام؟ . . . اليس هو الرجل المعروف لدى الناس بانه لم يهن يوما من الايام امام المفاجآت، او يستسلم الى الاحداث مهما بلغت من الشدة والعنف، او يطأطيء راسه امام الخطوب، او يتنازل عن كبريائه وعزته؟

وفي تلك الدقائق الرهيبة اتخذ قراره بالرحيل، ولكنه ابقى ذلك سراً وبلمحة البصر انتقى رفقاء الرحلة العجيبة الشاقة، وفي تلك الليلة، وتحت جنح الظلام انتقل المهدي الى مدينة « حماه » السورية، وكان يرافقه ولي العهد « القائم بامر الله » وزوجته« أم حبيبة » وابنتاه، وابنه الصغير وبعض الخدم، وامين سره المخلص « جعفر الحاجب » ومن حماه انتقل الى قرية « سلحب » التي تبعد خمسة وعشرين كيلو متراً عن حماه الى الجهة الغربية الجنوبية، فبقي فيها ليلة بضيافة احد دعاته المشرف على تربية خيوله العربية الاصيلة . وهناك مصدر آخر يذكر:

بانه ذهب الى قرية « طيبة الامام » الواقعة الى الشمال من حماه على بعد خمسة عشر كيلو متراً ، فأخذ ما يلزمه من الخيول، وتوجه باتجاه دمشق . . . فكان يسير في الليالي، ويستريح في النهار . . . . ومن احدى ضواحي دمشق قصد حوران ثم تابع السير دون توقف حتى وصل الى « الرملة » التي تقع الى الشمال الشرقي من القدس، وكان للمهدي فيها داعياً مخلصا يسمى « ابو الكوثر » فنزل في ضيافته، وهو يخفي شخصيته عن كل الناس الا عن داعيه صاحب المنزل وكان على جانب كبير من النفوذ والجاه والمكانة في

البلدة، مضافاً الى مرونته وخبرته، فنصح المهدي بالتريث. وعدم متابعة السفر، لان عملاء العباسيين زرعوا الطرقات والممرات والموانىء بالعيون والارصاد... وهكذا اقام المهدي في الرملة ينتظر الاحداث والأخبار ويتلهف لسماع ما جرى في بلدته «سلمية» بعد ان غادرها؟

اجل ... كان يعتقد: بان القرامطة مهما بلغ بهم الجنون والحقد فلا يتجرأون على مداهمة المدينة التي نهلوا منها ينابيع معرفتهم وافكارهم، ولا الاساءة الى الاسرة التي وجهتهم ورعتهم وضحَّت في سبيلهم، ولكن الوقائع والاحداث جاءت على غير ما توقعه.

فان «يحيى بن زكرويه» الملقب «بأبي مهزول» ما كاد يصل الى سلمية، بعد ان فرغ من تدمير «معرة النعمان» و «حماه» حتى فرض عليها حصارا شديداً، وكان يظن ان المهدي لا يزال فيها، فامتنعت عليه البلدة بادىء ذي بدء، ولكنه عاد فهادن اهلها، ثم اقنعهم اخيرا بانه ما جاء محارباً ولا غازياً، وانما جاء يفرض الاجتماع بالمهدي، وتصفية بعض الخلافات تمهيداً لاعادة الامور الى مجاريها وحالتها الطبيعية.... وبالاضافة الى كل ذلك اعطاهم العهد والأمان، ففتحوا له الابواب... وعندما تم له دخول البلدة اغمد السيف في رقاب اهلها، ومنع احداً من الخروج من الأبواب.

ويذكر التاريخ:

انه قتل جميع سكانها دونما استثناء، ولم يسلم منهم احد حتى صبية الكتاتيب كما امر بقتل الحيوانات الاليفة، والطيور الأهلية... واخيراً جاء الى قصر المهدي الواقع في الجهة الجنوبية على مقربة من القلعة، ومن المسجد «ذو المحاريب السبعة» فأخرج كافة الافراد من عائلة المهدي والقائم بامر الله الى الساحة العامة للقصر وأمر احد السيافين، فتولى قطع رؤوسهم الواحد بعد الآخر، ورمى بجثثهم في احد الآبار، وذكر: ان عددهم كان /٨٣/ بين رجل وامرأة وطفل... ولكن هل شفى كل هذا غليل القرامطة وقائدهم يحيى؟

في الحقيقة: كانت رغبة السفاح تكمن بقتل « عبيد الله المهدي » وولي العهد « القائم بامر الله » ولكنه لم يجدهما، وهذا ما جعله يشعر بالخيبة . . . . فنزع الى الحيلة وهو يظن انها تحقق رغباته، وتوصله الى غايته. فكتب كتاباً الى المهدي ، وأمر احد رجاله ـ وقيل احد اخواته ـ بالذهاب الى الرملة او الى اي مكان آخر يكون المهدي قد وصل اليه، فيسلمه الرسالة، ويؤكد له بان يجيء ما جاء الى سلمية الا للاجتماع اليه، ولمبايعته بالزعامة والقيادة... وان الناس بانتظاره الآن على احر من الجمر على ابواب سلمية.

وصل الرسول الى الرملة، وبعد جهود مضنية تمكن من الاهتداء الى مقر المهدي فدخل عليه وسلمه الرسالة... وكانت الاخبار قد وصلت الى المهدي قبل ذلك صحيحة مفصلة عن هجوم القرامطة على سلمية وابادة الاسرة الفاطمية.... وهنا تأبى عظمة المهدي الا ان تتجلى عند استقباله موفد زعيم القرامطة، فلم تظهر عليه اية دلائل تشير الى انه سمع بالاخبار، بل على العكس كان استقباله للرسول عادياً وحاراً. فتسلم منه الرسالة، وبعد قراءتها اعلن له عن موافقته على العودة بعد خمسة ايام اي بعد ان تكون زوجته قد استعادت صحتها، ثم انه حمَّله رسالة الى ابي مهزول يخبره فيها بما عزم عليه.

بعد ذهاب الرسول ادرك عبيد الله بان بقاءه في الرملة لم يعد جائزاً، اذ ربما جرَّ عليه هذا البقاء كارثة اشد وادهى، وبالرغم من عيون العباسيين المنبثة في كل مكان قرر السفر... وهكذا كان ... فغادر الرملة تحت جنح الظلام باتجاه الاراضي المصرية عبر « غزة » والواحات الصحراوية وكان يرتدي ثياب التجار الايرانيين، وهكذا افراد عائلته، وفي الاراضي المصرية لم يجد ما كان يخشى منه، بل على العكس وجد الترحيب والاكرام في كل مكان... ولكن هذا لم يحل دون القبض عليه، وهو في موقع « الوجه البحري »، وكان قد اجتمع اليه في ذلك المكان احد دعاته الاقوياء

المكلف بشؤون مصر وهو: «محمد بن علي بن محمود - «المقيم» » والى هذا الداعي يعود الفضل بتسهيل مهمته، وايصاله فيما بعد الى حدود «برقة».

اجل... جاء الجند بعبد الله المهدي الى مقر «محمد بن سليمان» القائد الاعلى، او حاكم مصر من قبل العباسيين في ذلك الوقت، وكان مكلفا من قبل الخليفة العباسي «المكتفي» بطرد آخر ولاة الطولونيين في مصر، وبعد ان نفذ اوامر خليفة بغداد، مددت اقامته في مصر لفترة قصيرة معينة وتشاء الظروف ان يصل المهدي الى مصر خلال تلك الفترة.... وعندما جاء به الجند «اي المهدي» طلب الاجتماع بالقائد على انفراد، وبعد خلوة قصيرة خرج «محمد بن سليمان» ليعلن للناس: بان الرجل ليس هو المهدي المطلوب، وللتمويه امر بوضع جائزة مالية كبرى لمن يقبض عليه.

ومما هو جدير بالذكر ان بعض المصادر ذكرت: بان الذي قبض على المهدي هو «عيسى النوشري» عامل العباسيين على مصر، ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن المصادر التاريخية عادت وذكرت بعد ذلك: بان خليفة بغداد العباسي قبض على محمد بن سليمان بعد عودته الى بغداد بتهمة الرشوة، وقبض الاموال من المهدي لقاء اطلاق سراحه. وهناك مصدر فاطمي يؤكد: بان محمد بن سليمان كان من دعاة الفاطميين السريين.

وحدثنا «جعفر الحاجب» رفيق المهدي وأمين سره بسيرته:

بان المهدي نفسه دخل مصر متستراً في زي التجار، وكانت الكتب قد وصلت الى مصر من بغداد في شكله وصفاته والأمر في طلبه، ولكن بعض اهل خاصته ووالي مصر كانوا مؤمنين بدعوة المهدي، فأسرع اليه بعضهم بالخبر، ولطَّف الامر، الى ان خرج من مصر ومعه القائم بامر الله وبعض افراد عائلته وخدمه وعبيده.... ويزيد جعفر على قوله:

سرنا - اي المهدي - ورجاله من الرملة الى مصر، فاستقبلنا «ابو علي الداعي» وكان مقيما في مصر يدعو بها، واكثر دعاة الامام من قبله، وكان الداعي «فيروز» هو الذي رعاه ورباه وزوجه ابنته ام ابي الحسين...

فتقدم اليه المهدي قبل دخوله مصر بان لا ينزله عنده ولا عند من يشار اليه بشيء من الامر، وان ينزله عند من يثق به، فأنزله عند « ابن عياش ».

ويروي المؤرخ الثقة « الأمير المسبحي » حكاية نقلها عن ابن محمد علي الداعي المقيم في مصر - وهو الذي رافق المهدي اثناء وجوده في الديار المصرية عندما كان في طريقه الى شمال افريقيا... قال:

كنت يوما قائما على الجسر بمصر مع الامام المهدي الى ان سمعت الجرس والنداء يقول:

الآ برئت الذمة من رجل آوى رجلاً صنعته : كذا... وكذا... ونعته: كذا... وكذا... ووصف صفة المهدي... فمن اتى به فله عشرة الاف دينار حلالاً طيباً... فقال المهدي:

يا ابا علي... المقام بعد هذا عجز، ثم ركب الجسر، وسرت معه وسألته ان ارحل معه الى بلاد المغرب؟... فقال:

على من ادع من لي ههنا؟... فبكيت فأنشدني شعر امرىء القيس:

بكى صاحبي لمّا رأى الدرب دونه وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبكِ عينك انما نحاول ملكاً او نموت فنعذرا

ويروي المؤرخ الامير المسبحي قصة اخرى عن وصول المهدي الى مصر، ورحيله عنها في زي التجار... وهذه القصة سمعها من احفاد ابي علي الداعي المقيم الذي رافق المهدي اثناء اقامته في مصر فقال:

صلّى المهدي صلاة الصبح في الجامع العتيق بمصر تحت اللوح الاخضر ومعه ابو علي الداعي، فلما خرجا من الباب ضرب رجل بيده على كم المهدي وقال له:

قد حصلت لي عشرة الاف دينار... فقال له: وكيف ذلك؟ قال: لانك الرجل المطلوب، فضحك المهدي ثم ضرب بيده على كتف الرجل، واخذ به الى صدر الجامع وقال له:

عليك عهد الله، وغليظ ميثاقه، اذا جمعت بينك وبين الرجل الذي تطلبه كان لي عليك ولصديقي هذا خمسة الاف دينار، ثم اخذه بيده، واتى به الى حلقة قد اجتمع الناس فيها، فأدخله من جانب، وفارقها بسرعة من باب الجانب الآخر، ولم يلتقيا بعد ذلك.

هذا... ويجب ان لا ننسى ان الداعي فيروز المصري كان مولجاً بالدعوة في الديار المصرية بعهد عبيد الله المهدي، وكان من اجل الناس عند الفاطميين، ومن اعظمهم منزلة.

ومن دعاة المهدي، والقائم بامر الله ايضا «ابو جعفر الجزري» وقد ذكر بان المهدي قد وكل اليه امر حريمه وامواله عندما فرّ من سلمية وقد توفي هذا الداعي فيما بعد في «رقادة» اما ابو علي الداعي المقيم فقد ذكره «جعفر بن منصور اليمن» في كتابه: «الفترات والقرانات» فقال عنه:

بانه كان يلقب ايضا بالشيخ الأجل المفيد، وهو احد تلاميذ فيروز وزوج ابنته، وهذا الداعي انجب ولداً هو محمد، وكان قد بلغ بعهد الخلفاء المهدي، والقائم، والمنصور، والمعز المكان الجليل.

وفي كتاب «استتار الامام» ورد ذكر عدداً من الدعاة الذين عاشوا في دور الستر في سلمية وبعضهم ادرك قيام الدولة الفاطمية وهم: ابو غفير، وابو سلامة، وابو الحسن الترمزي، وجياد الخثعمي واحمد بن الموصلي، وابو محمد الكوفي.

واخيراً:

غادر المهدي الديار المصرية، وعند وصوله الى نواحي «برقة» تقدم عبر الصحراء والواحات في المغرب الادنى - اي ليبيا اليوم - سالكاً طرق القوافل التجارية، وما زال يسير من مكان الى آخر متحملاً الحر والمشاق وخشونة قطاع الطرق والقراصنة واللصوص... فكان يعرض عليهم الهبات والاموال ويستخدمهم في قضاء بعض الحاجات الضرورية، حتى تمكن من

اجتياز مراحل الخطر... وعندما اصبح على مقربة من طرابلس علم به «زيادة الله بن الاغلب»... ولكنه غضَّ الطرف عنه رغم ما لديه من اوامر عباسية بالقبض عليه، ويقال انه لم يتأكد من شخصيته تمام التأكيد، بينما يذكر آخرون:

بان المهدي اهداه بعض القطع من الجواهر الثمينة... ومن هناك تابع سيره مجتازاً اطراف المغرب الأوسط (تونس) عبر الواحات والصحراء والتلال، وبدلاً من ان يتوجه الى القطاع الذي استولى عليه قائده ابو عبد الله الشيعي، توغل في اراضي المغرب الاقصى على حدود الصحراء حتى توصل الى «سجلماسة» وهناك قبض عليه اميرها «اليسع بن مدرار» وكان ذلك سنة ٢٩٦ هـ.

ان المصادر التاريخية لم تذكر الاسباب التي جعلت المهدي يسلك هذا الطريق الصحراوي البعيد كما ان المصادر اغفلت ذكر ابعاد هذا الحادث الرهيب الذي جعل المهدي يرمي نفسه في احضان المدراريين، وفي بلاد ليس له فيها صديق، بينما كان بامكانه ان يختصر المسافة ويسلك طرقاً اقصر للوصول الى الاراضي المغربية الوسطى التي يسيطر عليها ابو عبد الله الشيعي... فهل ضلَّ المهدي الطريق... ام ان هناك اسباباً اخرى؟ وأخيراً:

علم ابو عبد الله الشيعي، وهو يتابع فتوحاته في المغرب الأوسط بما وقع للمهدي في سجلماسة فقابل الخبر بعدم اهتمام مدركاً بان اي تحرك من جانبه، او اي حماس يبديه قد يعرض المهدي الى القتل... وهذا الموقف جعل اليسع يشكك في شخصية المهدي، ويعلن للمقربين منه:

بان الرجل المقبوض عليه، لو كان حقاً هو المهدي، لما وقف عبد الله الشيعي مكتوف الايدي وقال: لماذا يأتي المهدي من المغرب الادنى دون ان يعرج على البلاد التي يسيطر عليها صاحبه؟ كل هذا عرض امام اليسع،

وجعله في موقف المتردد عن اتخاذ اي اجراء، واكتفى اخيراً بان ارسل رسالة الى الخليفة العباسي في بغداد يطلعه فيها على تفاصيل قصة التاجر الايراني المقبوض عليه، ولكن الجواب تأخر وتأخر وكان ذلك من حسن حظ المهدي.

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد، اني عثرت على مصدر تاريخي ورد في كتاب «الناصر الأموي» لمؤلفه «سيمون حايك» وفيه يذكر:

ان المهدي في سجلماسة اقام اقامة جبرية معززة بالحراسة الشديدة في منزل تملكه امرأة من آل مدرار تسمى «مريم» وهي عمة اليسع بن مدرار، وكانت تقية ورعة وذات تأثير على ابن اخيها، واليها يعود الفضل بحقن دماء المهدي وعدم الاساءة اليه. ومن الجدير بالذكر: ان المهدي قدر موقفها، فاعطاها الاموال الوفيرة، والهدايا، وبعد ان تمّ له اقامة الدولة الفاطمية، اعطى اوامره بالمحافظة عليها، ورعايتها، كما ابقى املاكها، وأحاطها بعطفه وتقديره هي وابنائها طيلة مدة حكمه.

لم يتوقف ابو عبد الله الشيعي ساعة واحدة، بل تابع تقدمه وفتوحاته وما زال في اندفاعه حتى وصل الى سجلماسة، وقد استغرقت رحلته الحربية هذه ما يقارب الثلاثة اشهر، وبعد وصوله احكم على المدينة الحصار، وأنذر اليسع بالاستسلام، ولكنه رفض بادىء ذي بدء واخيراً:

وجد ان ليس باستطاعته الوقوف بوجه هذا الجيش الجرار الذي يحمل الوية النصر، ففرّ تحت جنح الظلام مع افراد عائلته، وكان قد اعد نفقاً خاصاً للهرب ينفذ الى خارج المدينة، وبعد فراره دخل ابو عبد الله المدينة وسط الأهازيج، وأغاني النصر، وتقدم الى سجن المهدي فأخرجه، وأركبه على حصانه وجاء به الى الساحة العامة، وقدمه الى الجيش الظافر بقوله:

«هذا هو المهدي الذي كنت ابشركم به»

ان التاريخ الطافح بالاحداث، لم يفصح لنا عن الاسباب التي حدت

باليسع بن مدرار الى الاحتفاظ بالمهدي هذه المدة التي تقارب الثلاثة اشهر... فهل كان يخشى ان لا يكون الرجل المقبوض عليه هو المهدي الحقيقي، فيرتكب بقتله جريمة تعرضه الى نقمة الناس؟ ام ان المهدي تمكن من شراء سكوته بالاموال والهدايا.. كما فعل مع غيره... ويأتي من يقول: ان اليسع كان يريد ان يساوم ابو عبد الله الشيعي على المهدي، ويتخذ منه ذريعة لانقاذ ملكه وبلاده، وهذا كان من الممكن حصوله لو ان ابا عبد الله اظهر جزعاً او خوفاً، او اهتماماً... وكل هذه التساؤلات والافتراضات تجعلنا نقف امام التاريخ قائلين:

ايها التاريخ... كم في زواياك من قضايا غامضة..!! وكم اغفلت الافصاح عن حوادث مجهولة لا يزال الناس يترقبون جلاءها باشتياق.

ومهما يكن من امر، فرحلة المهدي الشاقة العجيبة لا يزال يكتنفها الكثير من الاسرار، ولعل الاقدار وحدها، والاعمار والخطر هم وراء كل ما حققه من انتصارات في رحلته تلك، ومن جهة ثانية يجب ان لا تغفل جرأته وعبقريته وتدابيره... فجميع هذا ساعد على تخطي العقبات، والوصول الى الاهداف.

اننا ونحن نكتب هذا الفصل عن الرجل العظيم، نحني رؤوسنا امام عظمته، ونقف بفخر واعتزاز امام الرجل الذي اجتاز الصعاب بمفرده، ووصل الى ديار غريبة عنه، فاستطاع بفترة قصيرة ان يؤسس دولة كبرى، وان يجعلها ذات كيان، ومحط انظار العالم في هذه القارة المترامية الاطراف.

اجل... اخرج ابو عبد الله الشيعي ـ المهدي ـ من سجن بني مدرار اصحاب سجلماسة وهو يجر اذيال النصر والخيلاء... اخرجه وجاء به الى قصر ملوك «بني الاغلب» وأجلسه في مقام الخلافة، وأوعز الى قواد الألوية، ورؤساء الكتائب بمبايعته والمناداة به خليفة للمسلمين، وأميراً للمؤمنين.

وبعد ان تم كل هذا وسط الاهازيج والحماس التي دامت بضعة ايام، ذهبوا به وعائلته الى مدينة القيروان وهناك بايعه الزعماء والقواد وافراد الجيش والشيوخ والعلماء واصحاب القبائل، وبعد ان تمَّ له ذلك انتقل بعد مدة الى مدينة «رقادة» وذلك سنة ٢٩٧ هـ. فأقام في قصر الامارة ومنه اعلن للملأ: قيام الدولة الفاطمية، وكان يعلم ان الدولة الفتية بحاجة الى بنيان ثابت ودعائم قوية وسواعد متينة، واشتراك المخلصين. لهذا شمَّر عن ساعد الجد، واخذ بتعيين القواد والخبراء والولاة والقضاة، وأقام الدواوين، وشرع بالبنيان والعمران، وقد خصص قسماً من اوقاته للسهر على راحة الشعب، وسماع الشكاوي، وتأمين حاجاته، وتوفير الامن والاستقرار والحياة الافضل، وكانت مبادئه تستند الى فكرة اقامة حكم عسكري يقوم على اسس العدل والحرية والمساواة... وكل هذا لم يشغله عن تنظيم الجيش وتقسيمه الى فرق وكتائب مستقلة ومرتبطة بقيادة عامة، كما جعل لافراد هذا الجيش وقواده الرواتب الشهرية والمساعدات التي تتناسب وما يقدمونه للدولة من خدمات وتضحيات، ولم يغرب عن باله الاهتمام بشؤون الواردات والنفقات وقضايا الاقتصاد، وغير ذلك مما يرفع بنيان الدولة الفتية، ويرسي قواعدها.

وعلى ضوء قيام الدولة الفاطمية... نستطيع ان نقسم مدة ولاية المهدي الى مراحل ثلاث:

الأولى

بدأت هذه المرحلة بوضع الاساس لبناء الدولة، واقامة قواعدها، واختيار المعاونين، والولاة والقواد، والخبراء، وربابنة السفن، واختبار قدراتهم واخلاصهم... فطموح المهدي وتطلعاته لم تكن لتقف عند حد اقامةامارة صغيرة فقيرة بمواردها، وعدد سكانها، وقدرتها العسكرية... بل كانت امانيه تمتد الى ابعد من ذلك... كان يريد ان يقيم دولة كبرى، او امبراطورية توازي بقوتها الدولة العباسية بل تفوقها قوة وحضارة. فالقضاء

على دولة « الاغالبة » في المغرب الأوسط ليس كافياً بحد ذاته . . . بل يجب ان يتبعه زحفاً يمتد شرقاً وغرباً حتى المحيط الاطلسي ، ثم تصفية دولة « الادارسة » تمهيداً للوصول الى الاندلس ويدخل في هذا اخضاع القبائل الكبيرة وضمها الى سلطانه ، وقد خصص لجزيرة « صقلية » القسم الأكبر من اهتمامه ، لان الاستيلاء عليها ، وضمها الى دولته يعطيه القوة للانطلاق الى البحار ، واثبات وجوده في البحر الابيض المتوسط خاصة حيث الامبراطورية الرومانية . اما مصر فتبقى أمنيته الوحيدة ، لانها تشكل الشريان الحياتي للدولة العباسية ، وكان المهدي يخطط للاستيلاء عليها ، والنفاذ منها الى المشرق العربي .

الثانية :

هذه المرحلة تقع ما بين سنة ٢٩٧ ـ الى سنة ٣٠١ هـ . وفي خلالها تم له تسلم كافة الصلاحيات والاضطلاع بالمهات القيادية العامة ، والسيطرة على عموم مرافق الدولة ، بما فيه تجريد الولاة والقواد من النفوذ المتزايد ، والحد من صلاحياتهم . . . وكانت اخطر قضية تبرز امامه في هذه المرحلة ازدياد نفوذ ابو عبد الله الشيعي ، ومحاولاته الاستئثار بكافة الصلاحيات . . . فكان لا بد من ايقافه عند حده وتجريده من كافة الصلاحيات ، والمسؤوليات ، واخيراً قتله .

وفي هذه المرحلة ايضاً عيّن والياً على صقلية ، وهاجم « كلابريا » او قلوريا » وولى على طرابلس الغرب والياً ، وعلى برقة آخر ، وهكذا على « تاهرت » في المغرب الاقصى ، كما اخضع قبيلة « زناته » عندما اعلنت الثورة والعصيان . ومن الاحداث البارزة في هذه المرحلة ارساله ولي العهد « القائم بامر الله » سنة ٣٠٠ الى سنة ٣٠١ هـ . الى مصر لفتحها ولكن الحملة منيت بالفشل .

الثالثة :

تعتبر هذه المرحلة اكثر المراحل عنفاً وتقلباً ، ففي خلالها تمّ اخضاع

برقة للنفوذ الفاطمي بعد الثورة الكبرى، ثم مجابهة التدخل في المغرب الاقصى... وبرز في خلالها قيام الادارسة بحرب ضد التوسع الفاطمي في مكناس، وظهور الثائر «موسى بن ابي العافية». كما تمَّ ارسال الحملة الثانية سنة ٣٠٧ هـ الى مصر بقيادة القائم بامر الله، وقد فشلت ايضاً. واعقبها ارسال الحملة الثالثة الى مصر سنة ٣٢١ هـ بقيادة القائد «حبشي بن احمد» الكتامي الذي اخضع قسماً كبيراً من البلدان المصرية لفترة تقدر بثلاثة اعوام، ولكن الاخشيديين قاوموا اخيراً الاحتلال، وتمكنوا من جلاء الجيش الفاطمي.... وكل هذه المحاولات اثقلت كاهل الدولة الفاطمية بالنفقات والاموال الطائلة.

وفي نهاية المطاف لا بد من القول:

بان عبيد الله المهدي عاش ثلاث وستون عاماً، قضى منها خمسة وعشرون على سدة الخلافة في ديار المغرب، وقبل وفاته سلّم الخلافة الى صاحبها الاصيل «القائم بامر الله».

وجملة القول:

فان تاريخ عبيد الله المهدي لا تفي به الصفحات القليلة... وكيف ذلك وهو مؤسس دولة كبرى عاشت وازدهرت، ولعبت دوراً كبيراً على مسرح العالم في المشرق والمغرب.

«عودة الى التاريخ»
«الفتح العربي لشمالي افريقيا»

خرج «عبد الله بن سعد» الى غزو افريقيا الشمالية في عشرين الف رجل، وذلك في عهد الخليفة الثالث «عثمان بن عفّان» وعندما وصل الى طرابلس الغرب وجد الروم قد تحصنوا فيها فتركهم وسار باتجاه البحر حيث هاجم السفن الراسية في الشاطيء، فتمكن من الاستيلاء عليها وعلى ما فيها من المتاع والسلاح والمؤونة، ثم رحل الى قابس وكان الروم قد تحصنوا

فيها فدخلها دون قتال ... ثم اكمل طريقه حتى وصل الى شمالي افريقيا، وهنالك واجههم ملكها « جرجير » بمائة وعشرين الف مقاتل، فعرض عليه ابن سعد الدخول في الاسلام، فامتنع، كما رأى ان الكثرة التي معه قادرة على سحق القلة المسلمة واقسم في ذلك ان يزوج ابنته لمن يأتيه برأس عبد الله بن سعد ... وذهب عبد الله بن الزبير بثلاثين من اصحابه فسلكوا طريقاً تعوّد ان يسلكه الجند في الوصول الى الملك، فلما رآهم ظنهم من جنوده حتى اشهروا السلاح عليه، وقتلوه، وبعد ذلك حمل المسلمون على عساكره فهزموهم واتبعوهم في السهل والوعر حتى ابادوا اكثرهم، ثم ساروا الى فتح المدن والامصار، وغنموا غنائم كثيرة من الاموال والحلي والذهب وفي تلك الفترة جاءوا بابنة جرجير الى ابن سعد، فسألها عن قاتل ابيها؟ فأشارت الى عبد الله بن الزبير ... فأعطاها له.

وفي عهد يزيد بن معاوية ولى عليها « عقبة بن نافع » فذهب الى القيروان، وخلف فيها ولده مع البعض من جيشه، ورحل مع عسكر عظيم الى « باغاية » فقاتل اهلها قتالاً عظيماً وهزمهم، ومنها يمَّم شطر « حمس » فهزم اهلها، ودخل « الزاب » وظلَّ باندفاعه حتى وصل الى « تاهرت » فوجد عليها جموع من البربر والنصارى فأوقع بهم، وتمكن في النهاية من الانتصار عليهم، وهكذا على لواته، وهوارة، وزداغة، ومطماطة، وزناته، ومكناسة، وبعد ان فرغ من احتلال المغرب الأوسط دخل الى المغرب الاقصى وذلك سنة ٦٢ هـ. فوصل الى طنجة وكان عليها « يليان »فاستاء منه، ومنها ذهب الى مدينة « وليلة » بقرب فاس « قبل بناء فاس » فهزم جموع البربر، واتبعهم حتى « درعة » ثم نزل على « أغمات » ثم على « نفيس » ثم « وادي سوس »، وسلك « ماجة » ثم « رجراجة » ثم « صورة » و « ايصرول » و « سرنو ».

وفي سنة ٦٩ هـ ارسل عبد الملك « حسان بن نعمان الغساني » في اربعين الفاً فسار حتى وصل الى القيروان ... وفي سنة ٨٩ هـ ارسل

الوليد بن عبد الملك «موسى بن نصير» الى الاندلس، فأرسل ابنه مروان الى السوس الاقصى، وارسل «زرعة بن ابي مدرك» الى قبائل البربر فطوقوهم، وأخذ رهائن من كتامة، وزناتة، وهوارة، ثم ولى عليهم طارق ابن زياد، وعاد الى افريقيا.

ان المتتبع للتاريخ يرى:

ان هذه البلاد منذ فجر التاريخ حتى الامس القريب، لا تزال تعيش حياة الفوضى وعدم الاستقرار... او بلغة اصح الحياة القبيلية في كل ما في هذه الكلمة من معنى. فمنذ الفتح العربي حتى ما قبل عهد الاستقلال، وهي عرضة للاحداث الفاجعة، والنكبات الصادعة.... قبائل تتبارى وتتحاسد، وتتنازع النفوذ والجاه والسيادة والغنائم، فاذا انحازت احداها الى الامويين فلا تلبث جارتها او شقيقتها بدافع الحسد والغيرة الى الانحياز للفاطميين، او الى اية جهة تعاديها.

دويلات صغيرة وامارات متناثرة، وزعامات تقليدية معرضة للاخطار الساحقة تموت احداها، فتنهض اخرى لتحيا على انقاضها... وهكذا دواليك... عشائر تعيش على الطراز القديم البالي الخارج على سنن التطور والتقدم... هدفها اثبات شخصيتها، وفرض ارادتها، وتحقيق اطماعها... فلا عقيدة، او دين يردعها، او يصدها، او يقف في وجهها، كما لا مبدأ ولا وجدان يمنعها من اقتراف الجرائم، والعبث بالقيم والاخلاق.

تنقض المواثيق المبرمة، وتنكث بالعهود المعطاة دونما مبرر... فكل امير قبيلة او حاكم مقاطعة جعل من نفسه حاكما فرداً، وضرب بالقانون، وبالاخلاق عرض الحائط... وكل امير يتربص بجيرانه من الامراء الدوائر متحيناً الفرص للانقضاض عليه، وازالة ملكه، او اقتطاع جانب من املاكه، وكثيراً ما يلجأ الى الدس والخديعة، ومصادقة العدو الرابض، والاستعانة بالاجنبي الدخيل.

امراء يتلهون بتوافه الامور، وصغائرها عن الامور الجسام، فكثيراً ما

صرفتهم هذه الأعمال عن اسداء الخير، وخدمة الوطن والامة، وجعلتهم في مهب رياح الاهواء والنزوات.

اجل... كانت بلاد شمالي افريقيا مكونة من شعوب غريبة غير متجانسة، ومن عناصر وقبائل مختلفة لم يكن بالامر السهل دمجها في وحدة شاملة، او اخضاعها لنظام عام ـ هذا في عهد الدولة الفاطمية التي نتحدث عنها فطبيعة البلاد الجغرافية، وتوزيع السكان في المناطق، وانتشار القبائل بعضها في امكنة صالحة، وبعضها في امكنة غير ذات قيمة... كل هذا وقف حائلاً دون ايجاد العلاج الناجع. فالوحدة التامة كانت غير ممكنة التحقيق، كما ان اخضاع هذه القبائل والشعوب الى سلطة عليا، او دمجها في دولة واحدة ضرب من المستحيل... ومن هنا انبثقت المتاعب، وأطلت الصعوبات بوجه دعاة الخير والاصلاح.

ومن الجدير بالذكر:

انه في عهد الخليفة الفاطمي الثاني «القائم بامر الله» برزت الى الواجهة السياسية المغربية قبيلة «صنهاجة» وهي فرع من قبيلة «زناتة» فانحازت الى الفاطميين، بعد ان رأت القبائل الاخرى اي شقيقاتها قد اتخذوا سياسة معادية للفاطميين، وانحازوا الى الامويين. فزعيم صنهاجة نفسه «زيري بن مناد» هرع الى مصالحة «كتامة» رغم العداء القديم، ودخل معها في حلف تحت سلطة الفاطميين، وذلك رداً على زعيم آخر كان ينازعه السيادة هو «محمد بن خرز» الزناتي زعيم قبيلة مغراوة الصنهاجية في المغرب الاقصى، وكان قد اعلن الولاء للأمويين، ومن الواضح ان هذه المناورات والتقلبات دامت مدة طويلة فكانت شغل الخليفة الفاطمي الثاني القائم بامر الله الشاغل في بداية عهده، وهكذا بالنسبة للخليفة الأموي الناصر في الاندلس.

«قبائل شمالي افريقيا»

«البربر»

البربر قبائل عديدة، وشعوب مختلفة نزلت في افريقيا الشمالية، وامتدت

اوطانها من حدود برقة حتى المحيط الاطلسي، وكانوا يتكلمون لهجات اعجمبة قبل استعرابهم، ولا يزالون حتى الآن، ويرجع اصلهم الى فئات عرقية مختلفة استقرت في تلك البلاد قبل الميلاد، وعرفت منها «مملكة نوميديا» وهي موريتانيا اليوم.

اختلط بهم الفينيقيون واليونان اختلاطاً عابراً، ولم يرتاحوا في حياتهم الى حكم روما، ولا تقبلوا الديانة المسيحية، فمالوا عن الاولى والثانية. ويذكر تاريخهم:

انهم سهلوا غزو «الفاندال» لافريقيا، ولم يسالموا او يهادنوا البيزنطيين مرة واحدة.

عن التطلع الى مبادىء الخير والشرف والانسانية.

دخل قسم كبير منهم في الاسلام مع «عقبة بن نافع» ورافقوا الجيش العربي في فتوحاته الى اسبانيا بقيادة طارق بن زياد، كما انهم اتبعوا الخوارج، وأعلنوا في اكثر الاوقات عصيانهم على العباسيين، وفي عهد الفاطميين سار عدد كبير منهم مع «جوهر الصقلي» لفتح مصر وبلاد الشام.

وهم ينقسمون الى ممالك وسلالات منهم:

الأغالبة، والرسميّون، والمرابطون، والموحدون... وهذه الممالك زالت جميعها في اواخر القرن الثالث عشر للميلاد، فاختلط اهل المدن منهم بالعرب، واعتصم الآخرون في جبال الأوراس، والاطلسي، وفي الارياف والصحارى، حيث لا يزال القسم الاكبر منهم يحافظ على عاداته، ولهجاته، وتقاليده.

اشتهروا بحبهم للقتال، وتعودوا على شظف العيش، والحياة القبيلية القاسية التي اكسبتهم التمرد، وعدم الاخلاد للنظام.... نفوسهم متأهبة دائماً وابداً للمخاطر، وركوب متن الاهوال، واخلاقهم على العموم لا

تعرف اللين، ومن المؤكد انهم دون العرب حضارة، وان للعرب الفضل الأكبر عليهم، ولكن بالرغم من كل ذلك فانهم ينظرون اليهم نظرتهم الى عدو مستعمر جاء الى بلادهم فاتحاً. اما تزودهم من الحضارة الاسلامية فلم يكن على المستوى المطلوب. والحقيقة: لم يستطع احد من الفاتحين ان يغرس فيهم حب «الشيعة» الاّ ابو عبد الله الشيعي قائد الفاطميين في المغرب.

اعظم قبائلهم عدداً وقوة هي: صنهاجة، وتعتبر من اهم قبائل «البرانس» وأوفرها شدة، وبأساً، واستعداداً للقتال، وتتفرع من زناتة التي هي مجموعة قبائل. ومن صنهاجة يتفرع:

الطوارق، والهقار، والملثمون، وهؤلاء لعبوا دوراً كبيراً في قيام دولة «المرابطين» وتأتي بعدهم كتامة، وهي القبيلة التي اعتنقت المبادىء الفاطمية على يد ابي عبد الله الشيعي، واليها يعود الفضل في كل ما حققه الفاطميون من فتوحات، وانتصارات سواء في شمالي افريقيا، او مصر، او المشرق.

دول شمالي افريقيا:

عندما قامت الدولة الفاطمية في شمالي افريقيا، كانت دول ثلاث تبسط نفوذها على تلك الاراضي الواسعة:

بنو الاغلب في المغرب الادنى، والمغرب الشرقي، وبنو رستم في المغرب الاوسط، والادارسة في المغرب الاقصى.

ومن مجريات الاحداث يظهر: ان الاولى والثانية ما لبثتا ان انقرضتا بمجرد ان سطع نجم الدولة الفاطمية. اما الثالثة فقد حافظت فترة غير قصيرة على ممتلكاتها. ومن الجلي الواضح ان بني الاغلب كانوا في حالة انحطاط عند بزوغ فجر الدولة الفاطمية، فلم يتمكنوا من الصمود بوجه الفتح الفاطمي الذي استهدف بلادهم في وثبته الاولى.

عاصمة بلادهم كانت القيروان، واحياناً «رقادة»، وسلطتهم كانت تمتد

حتى قسطنطينة ومن الثابت ان الثورات الداخلية من قبل العشائر في مملكتهم لم تكن لتهدأ، وهكذا الاغتيالات، والاضطرابات والمؤامرات.

اما بنو رستم فكانت عاصمتهم «تاهرت»، وكانوا يحكمون المناطق الصحراوية «من الجزائر اليوم» وكانت علاقاتهم ودية مع جيرانهم البربر وخاصة زناتة، ومن الغريب ان هذه الدولة كانت سريعة الزوال، فلم تقوَ على الصمود ولو يوماً واحداً بوجه الفاطميين، وهناك مناطق اخرى كانت تحكمها امارات صغيرة مستقلة الواحدة عن الاخرى:

بنو مدرار في سجلماسة وما يتبعها... وهناك على ضفاف المحيط الاطلسي امارة «برغواطة» وامارة «ناكور». اما بقية البلدان الاخرى فكانت خاضعة لسلطان الادارسة الذين يرجع نسبهم الى ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب... وكان ادريس قد دخل المغرب سنة ١٧٠ هـ في عهد «يزيد بن حاتم» في افريقيا، وامارة «هشام ابن عبد الرحمن الداخل» في قرطبة، وفي فترة ظهور بني مدرار في سجلماسة خضعت للادارسة كافة البلدان في المغرب الأوسط والأقصى، وفي عهد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله اسدل الستار على دولتهم.

الأيام الأخيرة:

ولد عبيد الله المهدي في «سلمية - سورية» سنة ٢٥٩ هـ. ومات ودفن في «المهدية» المغربية سنة ٣٢٢ هـ، فيكون قد عمّر ثلاثة وستون عاماً.

كان فصيح اللسان، يمتلك القدرة العجيبة على الاقناع... مهيب الطلعة، يؤثر في السامع، محباً لعمل الخير، جريئاً بهدوء... لا يعرف التردد، مغرماً بالقراءة، واقتناء الكتب، وتربية الخيول والصيد وكان كريماً الى حد كبير.

ولد في بيت علم وادب وثقافة، واعني به البيت الذي وضعت فيه سطور

اول موسوعة فلسفية عربية واعني بها « رسائل اخوان الصفاء، وخلّان الوفاء » .

ان المتتبع لمجريات الاحداث في المغرب يرى: انه لم يتم للمهدي السيطرة التامة على بلاد شمالي افريقيا كاملة. فالثورات كانت تندلع من هنا ومن هنالك مهددة ومنذرة... كانت تنطلق كلما وجد اصحاب المطامع والناقمين والمعارضين فرصة سانحة او سبيلاً لاضرام النار، واعلان التمرد والعصيان.

اجل... لقد لاقى المهدي صعوبات جمة في اعادة الهدوء والاستقرار الى ارجاء دولته الفتية خاصة بعد مقتل ابا عبد الله الشيعي... فكم من مرة اضطر الى خوض المعارك بنفسه، او بواسطة ولي عهده القائم بامر الله... فتأديب العصاة، واخماد الثورات كانت عمليات شاقة بالنسبة الى رجل دولة انيطت به مهمات الحكم في دولة حديثة.

واخيراً:

مات الخليفة الفاطمي الاول « عبيد الله المهدي » في قصره بمدينة « المهدية » فجأة بعد عمر طويل قضاه في الجهاد، والنضال، ومقارعة الاحداث، وعوادي الايام.

مات الرجل الذي استطاع ان يؤسس دولة كبرى من العدم في ديار بعيدة عن وطنه، وفي ارض لم يسبق ان وطأتها قدماه، او عرف شيئاً عن طبيعتها، وأحوال سكانها. فجعلها بين عشية وضحاها محطة الانظار... او قل دولة ذات كيان، ينظر اليها الشرق والغرب نظرة اعجاب وتقدير.

مات الرجل العظيم الذي نسج التاريخ عن حياته فصولاً رددها الدهر، وتغنى بها الرواة، وكم هو رائع ان تبرز في سطورها العبقرية باجلى مظاهرها... تلك العبقرية التي رفعته الى قمة السؤدد، وأجلسته على عرش الخالدين.

اجل .. لم يكن موت المهدي حدثاً بنظر الناس، او عارضاً بسيطاً يمر دون اهتمام او تساؤلات، وليس هذا في ارجاء الدولة الفاطمية، بل في عموم المشرق والمغرب.

والحقيقة:

فانه لحدث خطير، ومصاب اليم تتعرض له الدولة الفاطمية وهي في مطلع شبابها... فغياب الرجل العظيم، والمؤسس، والقائد، والموجه ترك في نفوس العامة والخاصة على السواء اثاراً وانعكاسات لم يكن من السهولة تناسيها، او غض النظر عنها، وخاصة بالنسبة لولي العهد القائم بامر الله الذي امضه المصاب، وجعله فريسة الحزن والارتباك... تنتابه الاحزان والآلام على الرجل الذي رباه وعلمه وترك له هذا الملك الواسع.

لقد ادرك القائم بامر الله في تلك الساعة الرهيبة «ساعة الموت» بانه فقد اغلى انسان عليه في الوجود.... ادرك انه اصبح وحيداً في وطن ليس له فيه اهل ولا اقرباء... لا اسرة ولا ابناء عمومة... الا بعض الصغار الذين لا حول لهم ولا قوة... فالمهدي كان بالنسبة اليه النور الذي ينير جوانب نفسه، والأمل الباسم الذي يطل عليه من بعيد حاملاً البشرى والرجاء.

لقد حزن القائم بامر الله... ومن حقه ان يحزن على الرجل المخلص الذي شاركه احزانه وأفراحه... سعادته، وشقاءه... ولكنها سنة الكون... وهذه هي خاتمة المطاف.

ذكر التاريخ:

انه لبس عليه السواد لمدة عامين... فكانت الابتسامة لا تعرف ثغره وذكر: انه صبغ حجرات القصر باللون الاسود ولم يعرف عنه انه تطيب، او تخضب بعد موته، كما انه لم يخرج من قصره راكباً فرسه.... وكانت هذه عادة درج عليها المهدي عندما يخرج من القصر الى المدينة، او الى اي مكان آخر.

اجل ... مات المهدي فجأة... ولكن هل كان موته كموت اي شخص آخر في الدولة الفاطمية؟ وهل انتهت قصة الموت بسهولة كأي وفاة في الدولة الفاطمية، وهل نجت البلاد بعد ذلك من الكوارث والثورات، والاضطرابات، وهل ينتهي الامر عند حد القول: «مات الملك ليعش الملك»؟

كل هذا حسب له حسابه القائم بامر الله... لقد فكر طويلاً... وخرج اخيراً من تفكيره وهو مصمم على مقابلة الحدث بالصبر، والوقوف بعناد امام الخطب الجلل، وعدم الاستسلام الى اليأس والقلق... انها وصايا سمعها من المهدي، وتعلمها منه... ولا بد من تطبيعها في مثل هذا الموقف.

ان استعمال الحكمة والتعقل في المواقف الطارئة امر لا بد منه، وعلى الاخص عند خشيته من ان يؤدي نبأ اعلان الوفاة فجأةً على الشعب الى وقوع اضطرابات، واندلاع ثورات، او ربما حدوث انتفاضة سريعة تطيح بالدولة الفاطمية الحاكمة.

وأدخل في حسابه ان القواد لم يبايعوه، وهكذا ولاة الاقاليم، والعلماء ورؤساء القبائل، مضافاً الى كل هذا الاعداء المتربصين والمعارضين وجميعهم ينتظرون مثل هذه الفرصة... ينتظرون غياب العقل المدبر للدولة ليقوموا باعمالهم المبيتة، وكل هذا جعل القائم بامر الله يكتم خبر الوفاة، ويعلن للناس بان الخليفة يشكو من مرض عرضي بسيط، وانه لا يلبث ان يتعافى، ويخرج للناس.

ومن جهة ثانية ارسل بطلب المخلصين والمقربين من رجال الدولة وخاصة «الكتاميين» فطالبهم بمبايعته للخلافة تنفيذاً لأوامر المهدي، ورغبته قبل موته... ثم انتقل بعد ذلك الى قواد الألوية والكتائب وامراء الجيش، ورؤساء القبائل، والولاة، والعلماء، واصحاب الرأي في الدولة... وبعد ان تم كل شيء اعلن عن الوفاة رسمياً.... وهنا لا بد من

السؤال... هل كان تدبير القائم بامر الله كافياً لاخماد ثورة المعارضين والناقمين، والمتربصين، والحد من مؤامراتهم؟

ان الجواب على هذا السؤال، سيظهر جلياً واضحاً في الصفحات التالية التي نتناول فيها حياة القائم بامر الله، وما شهده ابان عهده من حروب وثورات... واعتقد: بان فترة حكمه من اصعب الفترات التي واجهها حاكم. ففي خلالها لم تغمض له عين، ولم تعرف الراحة اليه سبيلاً، وحينما نعلم ان ابواب عاصمة ملكه «المهدية» قد دقت من قبل الثائرين اكثر من مرة، وان سكانها اضطروا الى النزوح منها... اجل عندما نعلم ان اسرة القائم بامر الله نفسها قد نزحت عن المهدية الى بلد آخر.. ادركنا اية صعوبات واجهت هذا الخليفة وهو في مستهل حكمه.

قد تكون الاسباب كثيرة، والعلل وفيرة، فالاقطار المغربية المؤلفة من شعوب غير متجانسة، وغير مرتبطة تعودت على حياة الثورات، والحروب، والفوضى. لان كل استقرار او حكم عادل، او امن وطيد لا يتفق وطبيعتها، وحياتها القبيلية.

ومن الجلي الواضح ان تعاليم المهدي، واصلاحاته، وتدابيره، وما حققه للمغرب من ازدهار، وعمران، وأمن لم يخفف من ثقل الحياة القبيلية، او يذهب اثارها... ولم تعترف به الا قلة من الناس... وانى له ان ينتزع من النفوس، بل من الدماء هذا الشعور الموروث منذ مئات السنين.

ومهما يكن من امر... فالشعوب التي تنتقل من حالة قديمة الى حالة جديدة بسرعة لا بد لها من المرور بمراحل صعبة... والمغرب ذلك البلد الذي تحول بسرعة الى دولة ذات كيان... كان لا بد له وهو في مطلع عهده ان يتعرض طبيعياً للاحداث، وللعواصف الهوجاء.

القائم بأمر الله

– الخليفة الفاطمي الثاني –

ولد الخليفة الفاطمي الثاني « القائم بامر الله » في بلدة « سلمية ـ السورية » سنة ٢٧٩ هـ وشبَّ وترعرع في ربوعها ، وشاهد بل عاصر وهو في مقتبل العمر الانتفاضة « القرمطية » ضد الدعوة الفاطمية والتي اضطرته الى الفرار مع ابن عمه ، وابيه الروحي « عبيد الله المهدي » الى المغرب . كما شاهد مظالم العباسيين ومطاردتهم وقتلهم ابناء عمومته من العلويين في كل مكان ... فحمل لهم منذ صغره الكراهية والبغض .

شارك « عبيد الله المهدي » آلامه وافراحه ، فكان رفيقه ، وأمين سره ، وابنه المطيع ، وتلميذه الذي يتلقى منه التعاليم والتوجيهات برحابة صدر ، ويدخل في هذا النطاق التمرس على الشؤون السياسية والادارة ، والقيادة والاضطلاع بشؤون الحكم . واخيراً كان رفيقه في رحلته الشاقة العجيبة من سلمية الى سجلماسة في المغرب الاقصى ... تلك الرحلة العجيبة التي تحمّل فيها القائم بامر الله ، وهو الشاب الطري العود المصاعب وآلام الغربة ، والحزن على اسرته في سلمية التي ابيدت عل ايدي القرامطة ، فضلاً عن عذاب وآلام الاعتقال في سجلماسة .

كان المهدي معجباً بالقائم وبمؤهلاته ، ولهذا اعدّه للولاية ، فخصه بثقته ، وأناط به اعظم مسؤولية في الدولة ، وأعني بها قيادة الجيوش ، وفتح الامصار ، وتأديب الخارجين ، وإخماد الفتن والثورات .

لقب بأبي القاسم ، وتسلم شؤون الخلافة سنة ٣٢٢هـ ، وتوفي في المهدية سنة ٣٣٤ هـ .

عاش في سلمية سبعة عشر عاماً ، وأمضى خمسة وعشرين عاماً في ولاية العهد في المغرب ، واثني عشر عاماًفي الخلافة ... اما مجموع عمره فخمسة وخمسين عاماً .

قال عنه المستشرق « برنس مامور » :

« كان رجلاً غامضاً عميقاً لا يسبر غوره ، ولا يحاط بمداه ، يأخذ

بالقوة والحزم في الحوادث الطارئة واستطلاع الامور... وكان داهية له نظرة فاحصة تصل الى اعماق السرائر، وخفايا النفوس، وشجاعاً لا يلين، وكان عارفاً وذو خبرة باختيار الرجال، واصطفاء الاصدقاء، بالاضافة الى كل ذلك كان صبوراً وطيب القلب، يحب عمل الخير والاحسان، وفياً للشعب، ويحب انصافه واسعاده، وخاصة الطبقة الفقيرة العاملة، وكان محباً للحروب، وللمغامرات يباشرها بنفسه، وينازل الابطال في الميادين، وعرف عنه سعة حيلته في اساليب القتال، واستعمال الخديعة في بعض الاحيان».

دشن الخليفة الفاطمي الثاني القائم بامر الله عهده بارسال حملة الى برقة لفتح مصر بقيادة القائد الكتامي «ميسور الفتى» فتمركز في برقة بانتظار الاوامر بالزحف الى مصر، ولكن التحركات المعادية والانتفاضات الداخلية اندلعت في كل مكان، وكان اهمها ثورة «موسى بن ابي العافية» الفاسي الذي ما كاد المهدي يغيب عن هذا العالم حتى خرج من مخبئه، ودعا الى الثورة... وكان الخليفة الاموي في قرطبة عبد الرحمن الناصر، قد فتح له خزائنه، ووضع الامكانيات المغرية تحت تصرفه، فانطلق يحتل المدن والقرى، ويعيث ويقتل ويدمر في كل مكان، مما حمل القائم بامر الله على استدعاء ميسور الفتى وجيشه في برقة وتكليفه بمهمة القضاء على هذه الثورة مهما كلف الامر. فانطلق ميسور الى جهات فاس، وهناك خاض معارك طاحنة استمرت وقتاً طويلاً وكانت نهايتها اندحار موسى، وذهابه بعد ذلك الى «ناكور»، وبعد سلسلة من المعارك تمكن من القضاء على جيش موسى قضاءً مبرماً.

وتشاء الظروف ان تندلع ثورة ثانية ولكنها اكبر وأهم واشد خطورة، واعني بها ثورة الخوارج بقيادة «ابو يزيد مخلّد بن كيداد اليغرني» من قبيلة زناتة، فعاث في مدن وبلدان الفاطميين فساداً، ثم جاء وتمركز على مسافة خمسة عشر ميلاً من العاصمة «المهدية». مما حدا بسكانها الى النزوح

باتجاه طرابلس الغرب حتى ان اسرة المهدي نزحت هي ايضاً، ولم يبق في العاصمة الاَّ حامية للدفاع عنها.

ومما يجب ان نشير اليه ان جيوش القائم بامر الله كانت وقتئذ تخوض المعركة الاخيرة مع موسى بن العافية بقرب «تلمسان» وكان جيشه الثاني يقاتل قرب «تاهرت» و «وهران» جيوش زناتة بقيادة «محمد بن خزر» التي حركها الأمويون، ودفعوها، وأيدوها للقيام بالثورة.

امام هذه الاحداث الرهيبة لم يجد القائم بامر الله بداً من الاستنجاد بصديقه «زيري بن مناد» زعيم صنهاجة الذي خف على راس جيش كبير، وأجبر ابو يزيد على الارتداد نحو القيروان.

وهناك امر يجب ان لا يغيب عنا، وهو استمرار الغارات البحرية الفاطمية من صقلية على الموانىء الرومية... تلك الغارات التي لم تنقطع.

هذه جملة الاحداث التي عرضت للقائم بامر الله ابان حكمه، وهي على العموم سلسلة متواصلة من النضال والجهاد.

ومهما يكن من امر فان القائم بامر الله لم يعرف الراحة ابان حكمه، ولا قبل حكمه... فكان في المشرق كما في المغرب في صراع مع الايام لا ينتهي، وفي نضال مع الاعداء لا يتوقف عند حد.

ففي المغرب تعتبر حياته وهو ولي للعهد في خلافة المهدي من اصعب الايام وأقساها، ويكفي ان تكون مهمة القيادة العامة للجيوش الفاطمية قد انيطت به. اما بعد استلامه الخلافة، وكما رأينا فان الاحداث والثورات لم تترك له مجالاً للراحة، وكانت دولته معرضة للسقوط اكثر من مرة.

واخيراً:

مات القائم بامر الله، وثورة مخلد بن كيداد الخارجي قائمة تهب وتنطفىء على مقربة من عاصمة ملكه... ... اجل... مات الخليفة الفاطمي الثاني تاركاً لولي عهده «المنصور بالله» معالجة الامور...

والمنصور بالله شاب متحمس، طري العود، ولديه الكفاءة ما يكفل بقاء هذه الدولة قوية راسخة البنيان.

«المنصور بالله»

ـ الخليفة الفاطمي الثالث ـ

دخل رجل من قبيلة كتامة على المنصور بالله، وكان في احدى قاعات قصره المنيف في مدينة المهدية يلاعب سلحفاة فقال:

يا مولاي.... رأيت أبا يزيد الخارجي «صاحب الحمار» يضرب برمحه باب المدينة الغربي... فاستغرق المنصور من الضحك وقال:

اوَ فعلها؟ انه لن يعود ثانية... وسوف اعلق جثته على باب المهدية الغربي، وفي نفس المكان الذي دق رمحه... فاذهب وبشر كل من تراه عينك. ثم عاد لملاعبة السلحفاة وكأن شيئاً لم يحدث.

مسكين المنصور... مات والده القائم بامر الله، وهو يرسل نظراته اليه، مات وآثار الحزن تطغي على قسمات وجهه... ذلك الوجه الذي لم يكن يوماً الا ضاحكاً مستبشراً.... مات وعيناه المعلقتان به تودان ان لا تتحولا عنه، لكي تعبرا له عما يختلج في داخله من الاسى لهذا الفراق المبكر... مات وهو يعلم ان دولته الفاطمية التي كرس حياته لها، وسهر على بناء قواعدها وأمنها واستقرارها اصبحت على شفير الهاوية... فالثورات تهب في ارجائها، والانتفاضات تعصف في بنيانها، والعواصف والانواء تكاد، او كادت تزعزع اركانها، وتدك معالمها.

... مناطق عديدة انفصلت عنها واستقلت، وبلدان ومدن كبرى، وصغرى انضمت الى الثائرين، ورفعت اعلامهم.... وقبائل شتى استسلمت للثائرين دونما قتال خوفاً من السيوف المسلطة على الرقاب، وخاصة بعد ان فقدت كل امل بالحماية، وبوصول الامدادات والمعونات، وبين هذا وذاك ـ او بين عشية وضحاها اصبحت خزائن الدولة خالية خاوية، فلا موارد

ترد ، ولا ضرائب تدفع للدولة ، والجيش المحارب اخذ يشكو ويتظلم من قلة المواد والمعاش ، وانى له الحصول على شيء من كل هذا وعاصمة الدولة الفاطمية تطوقها خيول المغيرين ، وتدق ابوابها رماح الثائرين .

كل هذه المشاهد ، والهواجس عرضت امام القائم بامر الله ، وهو على سريره ، وفي ساعاته الاخيرة ، ومما زاد آلامه معرفته بان امور الدولة الفاطمية ستؤول تلقائياً الى ولده « المنصور بالله » الذي كان قد سماه لولاية العهد على مشهد من كبار رجال الدولة . والمنصور لا يزال طري العود لم تعركه الايام ، ولم يسبق له ان تمرس على اساليب الحكم ، وادارة شؤون الدولة ، او عرف سياسة الرعية . كما لم يتسن له خوض غمار الحروب او قيادة الجيوش ، او خبرة اسرار الحرب . . . . فماذا يستطيع مثل هذا الشاب ان يفعل امـام هذا الخضم الواسع من الأحداث؟ وانى له الخروج من الأزمات القاسية ، ومجابهة هذه القوى العنيدة الجبارة التي ظهرت في كل جهة تزمجر ، وتهدد ، وتشن الحروب ، وتعلن العصيان .

ووقف المنصور بالله صامتاً امام سرير والده البار . . . وقف يتطلع بعطف وحنان الى الوجه الشاحب الذي اذهب المرض المفاجيء نضرته وبهاءه ، ولم يتمالك نفسه من ذرف دمعة ، لم يلبث ان مسحها حتى لا يراها والده ، فتضعف ثقته به ، وتزيد من حزنه .

اجل . . . شعر المنصور بالله في تلك اللحظات انه خسر اباً رحوماً ، وقلباً حنوناً احبه حباً صادقاً ، وحنا عليه ، ورعاه ، ورباه . . . . وتمثل له الماضي ، وساعات الانس التي كان يقضيها بقربه بعيداً عن مشاغل الحروب ، ومؤتمرات السياسة ، وأحاديث القبائل ، ومشاكل الدولة . . . فذلك الماضي قد تلاشى رويداً ، رويداً ، وتبدد كما تبدد الرياح الغيوم .

صفحة من الحياة طواها الدهر الى الأبد ، وذكريات من العمر ستعود الى ذهنه كلما خلا الى نفسه .

وعاد المنصور بالله الى قلبه يهدىء من اضطرابه ، والى دموعه يمنع

انسكابها . . . وبين هذا وذاك اخذ يردد :

تلك مشيئة الله ، ولا مرد لقضائه . . . والحمد لله الذي جعل الموت حكماً من حكمته ، وأمراً جارياً على العباد من مشيئته ، واستأثر بالملكوت ، واذل خلقه بالفناء . . . تبارك اسمه .

اسمه المنصور بالله . . . لقبه ابو طاهر ، وكان يحب ان ينادى باسماعيل تيمناً باسم جده الاكبر اسماعيل بن جعفر الصادق . ولد في القيروان سنة ٣٠٢ هـ وليس في المهدية كما ذكر . . . . تولّى الخلافة بعد وفاة والده القائم بامر الله سنة ٣٣٤ هـ . وكان في الثانية والثلاثين . مات في المنصورية سنة ٣٤١هـ ، فيكون قد عاش تسعة وثلاثين عاماً ، امضى منها سبعة اعوام في مقعد الخلافة .

ذكر اسمه في التاريخ محاطاً بهالة من المديح والاطراء . . . وقد اتفق جميع المؤرخين على القول :

بانه كان شاباً وسيماً ، يمتلك القوة والرجولة ، والبراعة في القتال ، وعمليات الكر والفر . . . طموحاً ، عالي الهمة ، عزيز النفس . شعاره في الحياة الصدق ، والصراحة ، والوفاء والثقة بالنفس الى جانب ثقافة واسعة ، وفصاحة ، وامتلاك ناصية اللغة العربية ، بالاضافة الى انه كان شاعراً رقيقاً ، وعالماً بالفلك والنجوم ، وخطيباً مفوهاً يرتجل الكلمات ، وعبارات الحماسة التي تقربه من قلوب الناس وخاصة المحاربين الذين تحت امرته ، فيسيطر على مشاعرهم ، ويمتلك محبتهم بفصاحته ، وبيانه ، وقوة منطقه .

لم يذكر التاريخ الا القليل جداً عن طفولته وشبابه ، وكل ما عرف عنه : انه عاش في كنف والده القائم بامر الله ، وعاصر الاحداث والثورات التي اندلعت في انحاء الدولة ، فكان كثيراً ما يلح على والده بالسماح له بالخروج لخوض المعارك ، ولكن الوالد البار كان يخاف عليه من الاندفاع الشديد ، ومن الحماس الذي لا يقف عند حد ، ولهذا وقف بوجه رغباته ، وتطلعاته .

كتم خبر وفاة والده القائم بامر الله عن كل الناس مدة ثلاثة اعوام، خوفاً من ردة فعل، وحتى لا تؤثر الصدمة على افراد الجيش الذين كانوا يحاربون في الاقاليم الثائرة البعيدة.

ومن المؤكد انه دفن والده في فناء القصر سراً، وظل هو معروف في الدولة باسم ولي العهد مدة الاعوام الثلاث اي حتى تم له القضاء على ثورة الخوارج.

واخيراً:

مات في سنة التاسعة والثلاثين اي سنة ٣٤١ هـ. وسبب موته ورد كما يلي:

خرج الخليفة المنصور بالله للصيد مع بعض رفاقه، فاشتد هطول الامطار، وهبت رياح ثلجية عاتية عليهم بينما كانوا في منطقة جبلية بعيدة عن العمران. فلم يجدوا لهم ملجأً، ومات اكثر من كان معه. امّا بالنسبة له فقد قارع الرياح، وعاد الى المنصورية، وهو منهوك القوى، واهن الجسم، وبدلاً من ان يركن الى الراحة، وتلقي العلاج، دخل الحمّام وكان طبيبه «اسحاق بن سليمان» قد نهاه عن ذلك، فلم يأخذ بنصيحته، واشتد عليه المرض اخيراً، واصيب بالارق، فطلب طبيباً آخر اعطاه دواءً منوماً سبب له الوفاة.

وجاء في مصدر آخر:

خرج الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله سنة ٣٤٢ هـ متنزهاً الى بلدة «حلولاء» وتبعد عن القيروان اربعة وعشرون ميلاً - وهو موضع كثير الثمار، والفواكه، والرياحين، وفيه من الاترج ما لا يحمل الجمل منه غير اربع... وعندما كان في طريق العودة هبّ ريح شديد، وبرد، ومطر، وكثر الثلج، فمات جماعة ممن معه.... واعتل المنصور علة شديدة، وبعد وصوله الى المنصورية اراد عبور الحمام، فنهاه طبيبه «اسحاق بن سليمان»

عن ذلك، فلم يقبل، ودخل الحمام فذهبت الحرارة الغريزية منه، ولازمه السهر.... فأخذ طبيبه يعالج المرض دون السهر، فاشتد ذلك على المنصور، وقال لبعض خواصه:

اما في البلاد طبيب غير اسحاق؟.... فاحضروا اليه شاباً من الاطباء يقال له: «احمد بن ابراهيم الجزار» فشكا اليه ما يجده من السهر، فجمع له اشياء مخدرة جعلت في قنينة على النار، وكلفه شمَّها... فنام، وخرج الطبيب مسروراً بما فعله، فجاء اسحق ليدخل على المنصور بالله فقيل له: انه نائم... فقال: اذا كان صنع له شيء ينام منه فقد مات، فدخلوا عليه فاذا هو ميت. فدفن في قصره، وعندما ارادوا قتل ابن الجزار منعهم اسحق بقوله:

لا ذنب له، انما داواه بما ذكره الاطباء، غير انه جهل اصل المرض، ولم يعرفه. اما انا فكنت في معالجتي له اقصد تقوية الحرارة الغريزية التي بها يكون بعدئذٍ النوم... فلما عولج بما يطفئها مات.

ان هذا الخليفة المقاتل كما سماه التاريخ، لم يمهله عمره سوى سبعة اعوام قضى اكثرها خارج عاصمة بلاده... قضاها في الساحات والميادين... في السهول والجبال... في الصحارى والحزون... واخيراً مات فجأة قبل ان يستطيع تنفيذ ما كان يدور في رأسه من مشاريع، وخاصة بعد ان قضى على الثورة الكبرى... ثورة الخوارج التي دامت قرابة عشرة اعوام... تلك الثورة التي لم تبق على شيء.

وباعتقادي:

لو ان الاجل منحه فسحة من العمر.. اذن لاستطاع ان يحقق للدولة الفاطمية ما لم يستطيع تحقيقه احد من السابقين او اللاحقين، وعلى الاخص في مجالات العمران، والازدهار، والهدوء، وتنظيم الادارات، والجيوش... ولكن لربك في ذلك شأن وهو اعلم.

في الحقيقة:

ان جوانب كثيرة في تاريخ الفاطميين ستظل غير مفهومة عملياً، بل ستظل مغلقة لدينا ما دمنا نهمل دراسة الحقبقة، وأوضاع العصر الذي نشأ فيه الخلفاء الفاطميين، والمبادىء التي ساروا عليها، وارادوا تعميمها على المجتمع.

فهنالك، ولا مجال للريب بذلك عبقريات، وافكار، ومواهب سبقت عصرها، وتقدمت الزمن... وان الواجب العلمي يقضي علينا ان نشير اليها. فالابداع في اي مجال لا تكون له اية قيمة او مكان الا اذا بالغ في التعبير عن روح العصر، او اهتدى الى استخلاص الطريق السوي بعيداً عن البلبلة، والاضطراب.

فالقول:

بان انساناً عبقرياً موهوباً، وان عبقريته وموهبته شيئاً قائماً بذاته لا ارتباط له بما يحيط به من مشاكل واحداث يكون بمثابة الحكم على الانسان بالجنون. لأن كل عبقرية او موهبة لا تكون ذات قيمة الاّ اذا عبرت عن روح العصر الذي نمت فيه.

ومن هنا: نجد ان عظماء الانسانية سواء أكانوا أنبياء او رجال فكر، او قادة شعوب، يظهرون في عصر الاضطراب الفكري عندما تختلط السبل، وتتضارب المفاهيم، ويتكاثر دعاة الهداية الزائفة، او غربان الضلال.

اذن فليست العبقرية متأتية من العدم، او المصدر المطعَّم بافكار غريبة شاذة قد لا تختلف في اساسها عن تلك التي تصدر عن الهذيان. ولكن العبقرية الحقة، او المعجزة الانسانية هي في دراسة واقع العصر، والاهتداء الى روحه، والتوفيق في التعبير عن حاجاته.

وهذا هو السبب في ان عظماء التاريخ لا يظهرون عادة الاّ بعد ان تسبقهم التحركات، والمشاكل، والتخبط في مجاهل الحياة، او عندما يأتي

العبقري ليمثل الوعي، والنضج في سير حركة التاريخ.

اذن فمجيئه يكون بناءً على حاجات العصر ومتطلباته. من هنا... فاننا عندما نضع الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله امام واجهة التاريخ لا يسعنا الا القول:

بان عبقريته التي برزت في ذلك العصر، وابداعه، وخلقه، لم تكن لتتم لولا حاجات ذلك الزمن، ولولا متطلبات الدولة التي كانت تقف على شفير الهاوية.

اجل... لم يترك له والده القائم بامر الله دولة عامرة، موطدة الاركان، ناعمة البال، بل ترك له دولة واهنة تتقاذفها الانواء والتيارات، وتهدد امنها، وسلامتها الثورات... ويكفي ان نعلم ان عاصمتها كانت شبه مطوقة، يقرع ابوابها الثائرون برماحهم، ويهددونها بالسقوط المرة تلو المرة... ... اضف الى ذلك استنفاذ الموارد، وفقدان المتطلبات، وابتعاد الرجال.

فهبَّ المنصور من عرينه، وبمفرده، واستطاع بقوة ارادته، وشجاعته ان يسحق الخصوم في الداخل، والخارج في سلسلة من المعارك الطاحنة قادها بنفسه، وتجلت فيها عبقريته وخبرته باساليب القتال، والكر والفر، وهكذا تمكن بعد بضعة اعوام من توطيد دعائمها، واخضاع الثائرين، وبسط الامن، والاستقرار، والرخاء.

ولم يمد الله بعمره، بل لم يمنحه الفرصة الكافية لتنفيذ منهاجه... ولعل ذلك من سوء حظ اتباع هذه الدولة.

صحيح... ان ولي عهده «المعز لدين الله» الخليفة الرابع كان طاقة من الذكاء والعبقرية والرجولة، ولكن المنصور بالله يفوق الخلفاء السابقين واللاحقين اقداماً، وشجاعة، وقيادة.. واذا كان عبيد الله المهدي يعتبر المؤسس الاول للدولة الفاطمية، فان المنصور يعتبر المنقذ لتلك الدولة حينما

اشرفت على الغرق.

ومهما يكن من امر... فان ثورة الخوارج العنيفة بقيادة ابو يزيد كانت من اهم ما واجه المنصور ابان حكمه... وقد مر معنا ان والده القائم بامر الله مات، وتلك الثورة العاتية على اشدها.

فهذه الثورة لم تكن كباقي الثورات الاخرى التي اندلعت في شمالي افريقيا... انها الثورة التي كانت تهب مرة في جهة، ثم تخبو، لتعود الى الظهور في منطقة اخرى، وهي اشد عنفاً واندفاعاً.

والحقيقة:

فهذه الثورة لم يألفها اهل المغرب، لانها من الغرابة بمكان... فتارة تنبعث في اطراف المغرب الاقصى، ثم لا تلبث ان تنطفىء لتهب من جديد في مناطق كتامة، وصنهاجة.... في الصحراء ... في القيروان، او في رقادة، او في سوسة، او على ابواب المهدية، واخيراً في الجبال حيث القلاع والحصون والمعاقل... وهكذا دواليك، وكل هذا اشاع جوا مكفهراً مليئاً بالتعقيد بالنسبة للخليفة القائم بامر الله، ناهيك عن ان الادارسة في المغرب الاقصى كانت احوالهم غير مستقرة او غير مطمئنة فالبلاد الخاضعة لسلطانهم يتقاسمها عدد من الامراء، منهم من يوالي الفاطميين مرة ثم يعود الى احضان الأمويين... فضلاً عن تحركات الزناتيين، وثورتهم المعادية التي اندلعت بقيادة «محمد بن خزر» وهي في واقعها، وابعادها كانت تشكل سنداً، او رديفاً لثورة الخوارج.

وأهم من كل ما ذكرناه ذلك الوضع الذي كان يحتم على عدد كبير من جنود الكتاميين والصنهاجيين البقاء في المدن الرئيسية للحفاظ عليها من الغارات والهجمات. وكل هذا من الخطط المدبرة التي سهر عليها ونفذها بدقة وعناية الامويون في الاندلس.

وجملة القول:

كانت البلاد التي تحكمها الدولة الفاطمية في ذلك العهد - اي عهد المنصور بالله كالاتون تغلي مراجله، فليس فيها منطقة او جهة تنعم بالهدوء والاستقرار، حتى ان المهدية عاصمة الدولة كانت تحت الحصار، وكان بامكان ابو يزيد الخارجي احتلالها بسهولة... ولكن حتى الآن لم يذكر التاريخ سبب تقاعسه، واحجامه عن اقتحامها... وقد اعتبر الخبراء ذلك الموقف المتردد من الثائر الكبير خطأ عسكرياً، وسوء ادارة وتقدير.

كل هذه اسباب حركت الخليفة المنصور بالله، ودفعته الى الخروج بنفسه لمباشرة القتال معلناً بان خروجه تنفيذاً لأوامر الخليفة... فعاهد الله والشعب الا يعود الى عاصمة بلاده المهدية الا بعد ان يستأصل الداء العضال.

اجل... واختار المنصور بالله لمعاونته اقوى المحاربين والقواد من كتامة وصنهاجة وصقلية... فنظمهم في الوية، وكتائب، وقسَّمهم الى فرق، وأقام عليهم القواد الشباب المتحمسين الذين يتحلون بالمعنوية، والثقة، والايمان... وكان اقدامه على تسلم القيادة العامة باعثاً لاذكاء الحماسة في صفوف الجند الذين اكبروا شجاعته، واقدامه. ومن جهة ثانية فقد ترك «لزيري بن مناد» مهمة التصدي للزناتيين، واطفاء لهيب ثورتهم الكبرى في المغرب الاقصى... وهكذا انقسم الجيش الفاطمي الواحد الى جيشين، وبدأت العمليات العسكرية على نطاق واسع، وخاصة لدى المنصور بالله الذي طبق، وأوجد الاساليب الحديثة في العمليات العسكرية، وحضَّ على النظام والطاعة وتنفيذ الخطط الحربية بدقة، كما منع الفوضى والاستقلال بالرأي لدى القواد، وحارب الاساليب العشائرية القديمة التي كانت سائدة، والتي كانت سبباً بتراجع الجيوش الفاطمية في بعض المعارك، فالمنصور بالله المحارب الجريء ادرك منذ اللحظة الاولى ان الجيوش الفاطمية لا يمكن لها ان تحقق اي انتصار، او احراز اي تقدم في

الميادين الأَّ بعد ان تنزع عن الجيش الصفات القبيلية، وأساليب القتال القديمة.

وهكذا انطلق الى تنظيم جيشه، وتقسيمه الى كتائب للهجوم، واخرى للدفاع، وبعضها للاستطلاع واضعاً نصب عينيه نظام الجيوش المتحضرة الحديثة المحاربة، وكل هذا كان يقابله جيش للعدو تسيطر عليه روح الفوضى، والعشائرية، والاقليمية... فلا خطط عسكرية محكمة، ولا نظام، ولا طاعة، ولا كتائب، ولا ألوية، ولا قواد مسؤولين، بل جيش كثيف مؤلف من عناصر مختلفة يؤلف بينها مبدأ حب الغزو، والنهب، والاستيلاء على المغانم والاسلاب... جيش يأتمر بأمر رجل واحد مهمته السيطرة على البلدان، وقتل الآمنين، والسرقة والنهب، والعيث فساداً في كل مكان... وهذا ما سهل اندحاره في المعارك، وتبديد شمله.

لقد جاء في المصادر التاريخية:

ان ابا يزيد الخارجي اتخذ من مدينة «القيروان» عاصمة لثورته، فجعلها قاعدة حربية، او ميداناً للتعبئة، والتدريب... يغير منها على المدن، والقرى الاخرى في المغرب الأوسط... وهذه المدينة كان قد احتلها في عهد الخليفة الثاني القائم بامر الله... اما هو فاتخذ من «رقادة» التي تبعد اربعة اميال عن القيروان مكاناً لقيادته.

وكان قد اعد لجيوشه الجرارة خياماً، وسرادق خارج اسوار المدينة، وذلك لصيانتها من الوقوع تحت الحصار، وكان ابا يزيد وهو في مقره في تلك الآونة يعتبر بان الدولة الفاطمية اصبحت في حكم المنتهية، وانه سوف لا يقوم لها قائمة بعد الآن... وكان ايضاً استخفافه جلياً عندما علم بان المنصور بالله قد انيطت به قيادة الجيوش الفاطمية... فشك في نجاحه بالمهمة التي فشل بها والده من قبله... وهكذا استسلم للراحة وللامان، واكتفى بارسال الامدادات الى الزناتيين، واقامة الاتصال بهم، وتوحيد الاهداف، ومرامي القتال. وقد ذكرنا ان الزناتيين كانوا يقاتلون زيري بن

مناد امير صنهاجة في اطراف المغرب الاقصى... هذا ولم يكن يدور بخلده ان المنصور بالله قد اعد حملة كبرى من فرسان كتامة وصنهاجة للانقضاض عليه، واخذه على حين غرة.

اجل لقد ادخل المنصور بالله في حسابه وجود هذا الجيش الكثيف الجرار المخيم في ضواحي القيروان... فهزيمة هذا الجيش قد لا تتم بسرعة وسهولة، الا اذا فاجأه بعملية خاطفة منظمة تهد كيانه، وتسد عليه منافذ الهرب.

وأعد المنصور بالله للامر عدته، وظل ثلاثة اشهر وهو يعد هذا الجيش ويرتبه ويمرنه على اساليب القتال.... وعندما تم له ذلك:

انطلق من المهدية باتجاه القيروان في وقت غروب الشمس، وعند آخر الليل، وصلت طلائع جيشه الى مشارف المدينة، فأعطى اوامره بان ينال الجنود قسطاً من الراحة، وان يتزودوا بكل ما يحتاجونه استعداداً لخوض معركة تدوم طيلة النهار، ثم اعطى اوامره ايضاً بعد فترة من الراحة والاستعداد بالانقضاض على جيش الخوارج وكان يستسلم الى النوم غير حاسب اي حساب لما تخبئه الايام... كان افراده يحلمون بان النصر قد تحقق او كاد... وبان جيش الفاطميين لم يعد قادراً على التحرك... ولكنه لم يشعر الا والخيول المغيرة تنقض على المخيمات لتدوس بحوافرها النائمين، واشتعلت النيران بالمخيمات، وبينما كان جنود الخوارج ينفضون عن جفونهم غبار الرقاد، وينهضون لاطفاء النيران، حتى ان بعضهم لم يتمكن من النهوض، او الخروج للوقوف بوجه الجيوش التي راحت تدك معاقلهم. اما ابو يزيد فكان في رقاده يغط في نومه غير حاسب اي حساب لمثل هذه المفاجأة الغريبة. فالاخبار كانت تأتي اليه بان المنصور في المهدية قابع بقرب والده القائم بامر الله «المريض» وانهما عاجزان عن القيام بأي عمل عسكري خاصة، وليس لديهما سوى حامية صغيرة اعداها للدفاع عن المدينة.

وهكذا انقضت جيوش المنصور بالله على خيام جيش ابي يزيدالمنتشرة في سهول القيروان .... انقضت كالعقبان... كالبرق الخاطف... فداست الخيول المغيرة بحوافرها الجثث التي كان اكثرها على فراش النوم، وتلاعبت السيوف في الرؤوس المستسلمة للراحة، وللاطمئنان، وبعضها ذهب طعماً للنيران بينما فرق اخرى من جيش الفاطميين رابطت، وسدت منافذ الهرب، وفي ظرف ساعة او ساعتين تحولت تلك السهول الى بركة من دماء الخوارج، فكنت لا تسمع سوى انين الجرحى، ولا ترى الا الجثث والرؤوس ملقاة على الارض، وخرج ابو يزيد من مخبئه مع حامية رقادة، وقصده انقاذ الوقف، والتصدي للمغيرين، ولكن المنصور بالله اعد قوة خصصها لملاقاته على ابواب المدينة الجميلة، ولما رأى ان زمام الامر قد افلت من يده، اسلم ساقيه للريح، وولى هارباً مع بعض رفاقه، وجعل وجهة سيره «سوسة» المدينة الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط... هذه المعركة تحدث عنها المؤرخون، وقد وصفها بعضهم: بانها من المعارك الخالدة في تاريخ المغرب.

اما الحرب بين زناتة المؤيدة من الامويين، وصنهاجة المدعومة من الفاطميين، فكانت حرباً سجالاً بين كر وفر... وبالنسبة لدولة الادارسة في المغرب الاقصى فكان اصحابها منقسمون على انفسهم. يتولى حكمها افراد الاسرة التي يخضع اكثرهم لنفوذ الامويين.

وامتدت ايادي الامويين الى صقلية، ودفعت الاموال لاغراء المواطنين، واعلان الثورة والاستقلال، ولكن المنصور بالله اعد لكل امر عدته، فعين عليها «الحسين بن علي الكلبي» واعطاه صلاحية امارة البحر والاسطول... والحسين هو احد القواد االبحريين الكبار المدربين، وصاحب الخبرة بحروب البحار.... فقبض بيديه على ناصية الامور، وأخذ بمهاجمة المدن الرومانية الواقعة على شاطىء البحر المتوسط وعندما اندلعت نار الحرب الطائفية بين المسلمين والمسيحيين تصدى الكلبي للمؤامرة، وخاض معركة بحرية قاسية

مع الاسطول الروماني الذي جاء بحجة حماية المسيحيين، ومنعه من انزال الجيوش على الشاطىء.

لم يتوقف المنصور بالله عند هذا الحد، بل واصل زحفه باتجاه «سوسة» وهناك باشر الحرب الفعلية مع الخوارج الذين تحصنوا داخل الاسوار، ولم يتمكن المنصور بالله من احراز الانتصار الاخير الا بعد عام، وبعد ان استقدم قوات جديدة من المهدية بواسطة الاسطول، فدخل سوسة واستولى عليها واستسلم اكثر جنود ابا يزيد اليه.... اما ابو يزيد نفسه فقد فر الى الصحراء والجبال حيث اتخذ منها قاعدة جديدة للحرب وللتعبئة.

ولكن المنصور بالله اقسم على مواصلة القتال حتى يتسنى له القبض على الثائر، فزحف وراءه واخذ يستولي على القلاع والحصون الواحدة بعد الاخرى، وفي نهاية المطاف حاصر ابا يزيد في احدى القلاع، وعندما ضيق عليه الحصار، نزل ابا يزيد وطلب مبارزة المنصور بالله، فقبل العرض، ودارت بينهما رحى معركة جرح في نهايتها ابا يزيد في كتفه، فترك الميدان، وأركن الى الفرار، باتجاه الصحراء، فلم يشأ المنصور بالله ان يتبعه جرياً على عادته بان لا يتبع مهزوماً، وفي ثاني يوم ارسل بعض رجاله، فقبضوا عليه مختبئاً في احدى المغاور.

وقد اتفق المؤرخون:

بان المنصور بالله امر باعدامه، والتمثيل به، فسلخ، وحشي جلده قطناً، ثم صلب لمدة عام على باب المهدية الجنوبي - اي في المكان الذي دقه برمحه. وكان ذلك سنة ٣٣٩ هـ.

بعد ان تمّ كل هذا للمنصور بالله عاد الى قاعدة ملكه، واعلن للناس عن وفاة القائم بامر الله واخذ يقبل المبايعة من الناس... ويجب ان لا ننسى انه بعد عام من وفاة ابي يزيد قام ولده الاصغر «فضل» فدعا الى الثورة، راغباً اعادة سيرة والده، ولكن المنصور بالله ارسل ولده وولي

عهده المعز لدين الله وكان له من العمر تسعة عشر عاماً، فتمكن من قتله في المعركة الاولى، والقضاء على ثورته في مهدها.

اجل... بعد ان تمّ للمنصور بالله هذه الانتصارات، وبعد ان عاد الهدوء الى ارجاء بلاده انتقل الى المنصورية - وهي العاصمة الجديدة التي امر ببنائها، للاستعاضة بها عن المهدية التي تقع على شاطىء البحر فجعل لها سوراً وخمسة ابواب، وبنى فيها قصراً سماه: قصر الهداية، كما جلب لها المياه من مكان بعيد، وقد ظلت عاصمة الدولة الفاطمية حتى وقت انتقال المعز لدين الله الى القاهرة.

وفي هذه الفترة عمل على ايقاف النشاط الذي كان يقوم به ابناء عبيد الله المهدي بغية استلام الملك، كما لم يمنعه ذلك من التفكير بما حققه ويحققه ابناء موسى بن ابي العافية، ومحمد بن خزر من الانتصارات في المغرب الاقصى، فقرر الانضمام الى جيش الصنهاجيين الموالي له، وانهاء هذه الحرب الطويلة ولكن العمر لم يمهله.

يذكر التاريخ انه ارسل هذه المقطوعة الى ولده المعز لدين الله من المنطقة التي كان يطارد فيها ابا يزيد... وفيها تتجلى شاعريته الرقيقة:

كتابي اليك من اقصى الغروب ... وشوقي شديد عريض طويل
اجوب القفار وأطوي الرمال ... وأحمل نفسي على كل هول
اريد بذاك رضاء الاله ... واعزاز دولة آل الرسول
الى ان برى الله اجسامنا ... وكل الركاب وتاه الدليل
فوا غربناه ووا وحشتاه ... وفي الله هذا قليل قليل
وقدمنَّ ذو العرش من فضله ... بفتحٍ مبينٍ وعزٍ جليل
وفي كل يومٍ من الله لي ... عطاء جديد وصنع جميل
فلله حمد على ما قضى ... وحسبي ربي ونعم الوكيل

واخيراً:

تسلم المعز لدين الله منصب الخلافة بعد وفاة والده المنصور بالله، وباشر عمله باذاعة هذا المنشور على العامة والخاصة في جميع انحاء الدولة... وهذا هو بنصه الحرفي:

« الله اكبر... الله اكبر... لا اله الاّ الله... الله اكبر... الله اكبر... شأناً واعظم سلطاناً، وأوضح ايات وبرهاناً عن ان تنكر العقول توحيده، او تروم تحديده.

خالق السموات والارض ومالكها ومدبرها... الفرد الصمد... الواحد الاحد الذي لا شريك له ولا ند... الخالق القدير... الرحمن الغفور... النافذ قضاؤه، الكائن ما يشاؤه، المتقن كل شيء صنعاً، الموسع كل شيء رزقاً، المحيط بكل شيء علماً.

احمده واستعينه واستغفره واستهديه وافوض اليه، واتوكل، في كل الامور عليه، واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له، واشهد ان محمداً خيرته من عباده ونجيه من بريته وصفوته من المتطهرين ورسوله الى كافة العالمين، وبعته بالامامة الى الثقلين ليبلغ حجة الرب، ويوضح محجة الحق، فأدى رسالة الله ورحم ورأف بعباد الله، وصبر على الكبار من مكر الكفار الى ان ادال الله للحق على الباطل، والهدى على الاضائل.

محمد... صلى الله عليه وسلم افضل الصلاة وأزكاها واكملها وأنماها وأخلدها وأبقاها وعلى المهديين من عترته الكرام الابرين الذين اختارهم للخلافة وارتضاهم للامامة واكد بوحيه للرسل حجتهم، وأوجب في التنزيل طاعتهم بعد تفضيله اياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين وعلي افضل الوصيين، وعلى سيدة النساء فاطمة خامسة اصحاب الكساء صلوات الله عليهم، وعلى اميري المؤمنين المهدي بالله، والقائم بامر الله سيدي الورى، وامامي الهدى اللذين اعلن الله بهما دعوة الحق وانطق بهما الايمان والمؤمنين، وأقام بهما دعوة الدين، وأزهق بحقهما باطل المدعين، وأكاذيب المتخرصين وقطع بسيوفهما دابر الظالمين صلوات الله ورحمته وبركاته

ورضوانه وتحياته عليهما .

اللهم اخصص الامام الفاضل والوصي العادل والبر الفاضل والغيث الوابل ذا الآيات المعجزات والعزائم النافذات الباذل نفسه الكريمة في حين الازل والكربات الصابر في البأساء والضراء حتى طهر الارض من جبابرة الاعداء . . . عبدك ووليك ونجيك وصفيك ابا الطاهر المنصور بك والمتوكل عليك والمفوض اليك العامل بما يرضيك ويقرب اليك ويزلف لديك . . . الذي فجعتنا بفقده وأوحدتنا ببعده وافردتنا منه وأوحشتنا فقبلت دعاءه وأجبت نداءه وجمعت بينه وبين احبته في مستقر جنتك وسعة رحمتك .

ان القلق وشدة الحرق عليك بالغ يا ابتاه . . . يا سيداه . . . يا اسماعيلاه . . . يا ابا الطاهر . . . يا بحر علوم الأئمة الطاهرين الهداة المهديين . . . يابقية ابناء الرسول وابناء الوصي والطاهر البتول . . يا امام الائمة ومفتاح باب الرحمة يا سراج الهدى وشمس الورى ومجلي الطخباء يا مخصوصاً من الله بتعجيل الكرامة .

عظم والله علينا المصاب بك ، وحل البلاء وعدم العزاء لفقدك وقصرت الالسن عن ادراك احصاء شمائلك لفقدك وقصرت الالسن ايضاً عن تعداد مناقبك .

فوحق من اختصك بكرامته وحباك بجزيل عطائه وشرفك بابوة رسوله ، لولا ما اوعزت الي به وأكدته علي من القيام بحق الله والذب عن امة جدك رسول الله ، واستنقاذهم من غمرة الجهالة وبحار الضلالة ومهاوي الفتن ومعاطب المحن وما تقرر عندي ورسخ في صدري من الجزاء بمقدار الوفاء لله ولرسوله ولائمة الهدى لضربت على وجهي سائحاً في البلاد ، قالياً للمهاد راضياً ببلغة من الزاد . . . الى ان يلحقني الموت سريعاً بك فأفوز بقربك ورحمة ربك . . . لكني فكرت ونظرت وتدبرت فلم ار لي وجها استوجب به درجتك واللحاق بشرفك سوى الصبر والاحتساب ، فتجلدت

وصبرني ربي فصبرت وغلب علي اليقين فأمسكت وقلت:

انا لله وانا اليه راجعون، ولا حول ولا قوة الاَّ بالله العظيم... والحمد لله على ما ابلى والشكر على ما ادلى.

« المعز لدين الله »

«المعز لدين الله»

ـ الخليفة الفاطمي الرابع ـ

اسمه: المعز لدين الله... لقبه: معد... كنيته: ابو تميم... والده: المنصور بالله... امه: ام ولد.... ولد سنة ٣١٩ هـ. في مدينة المهدية... تسلم الخلافة سنة ٣٤٢ هـ عندما كان له من العمر «٢٣» عاماً.... ادرك ثلاثة من الخلفاء الفاطميين هم: المهدي، والقائم، والمنصور... تربى في قصور المهدية، ونال الثقافة والعلم في جزيرة صقلية... مات ودفن في القاهرة سنة٣٦٥ هـ. فيكون قد عمر /٤٦/ عاماً قضى منها اربعة وعشرين عاماً في مقعد الخلافة... رحل من المغرب الى مصر سنة ٣٦١ هـ. وذلك بعد مضي اربعة سنوات على احتلالها من قبل قائده المظفر «جوهر الصقلي».... انجب اربعة اولاد هم: تميم الشاعر، وعبد الله، والعزيز، وعقيل، وابنتين هن: رشيدة، وعبدة... زوجته هي: تغريد... وذكر ان زوجته الاولى مغربية وهي ام تميم وقد ماتت في سن مبكر.

اعتبر التاريخ الخليفة الفاطمي المعز لدين الله من كبار رجال التاريخ، الذين تفوقوا في مضمار العلم والحرب والسياسة.... فقد بدت عليه امارات النجابة والذكاء منذ نعومة اظفاره، واشتهر بالذكاء وهو بعد في سن الطفولة، كما كان المثل الاعلى للخلفاء المسلمين عامة.. قوي العزيمة يواجه الصعاب دونما خوف او وجل ويقضي في عزم وثبات في وجه الثورات التي اذكى نارها الخارجون على الدولة، وتصدى لمناوأة الامراء الذين عملوا في سبيل الاستقلال عن الفاطميين، والانضواء تحت لواء الأمويين، فضرب هؤلاء بأولئك، وأخذ كلا على حين غرة.

كان رحب الصدر، طيب القلب، كثير الحلم، يعطف على رعيته..

فكانوا يهرعون اليه عندما يروه ليرفعون ظلاماتهم... فيسمع الى كل واحد منهم.

واشتهر بالعدل والاحسان الى الناس، ومقاومة الظلم والتمسك باهداب الدين، وكان يحرص على تلبية مطالب الرعية، وحاجات الشعب، ولهذا احبه شعبه وأطاعه وسلمه امره وقيادته... واصبح اسمه على كل شفة ولسان.

كان ايضاً يذهب الى الصلاة لوحده دونما موكب، وينزل الى الاسواق بمفرده دونما حراسة فيتفقد المتاجر، ويستمع الى شكاوي الرعية، ومطالبهم فيسجل حاجاتهم وظلاماتهم، كما كان يزور بيوت اصحابه، ورفاق صباه، والفقراء حيث يقف على احوالهم، وطرق معيشتهم، وكان يضرب به المثل في حلمه مع خدمه وعبيده، حتى لقد كان بعضهم يعترض عليه، ويقاطع رأيه، ويحتج عليه، ومع كل هذا كان يجادلهم بالحسن ويناقشهم باللين، ولا ياخذهم بالشدة.

اما ثقافته فكانت مضرب الامثال... ويكفي ان يذكر اسمه ليتبادر الى الذهن تفوقه في كل علم واخذه من كل فن وبروزه في اي مجال. ومما سجله التاريخ عنه:

انه تلقى ثقافته على ايدي علماء من صقلية ومنهم «المظفر الصقلبي» وثبت انه كان يتكلم ويجيد عشرة لغات دارجة في عصره ومنها: الرومية واللاتينية، والصقلبية، والسودانية، حتى لغة البربر ولهجاتها.

اما في اداب اللغة العربية وتاريخها وفلسفتها فقد ضرب بسهم وافر لدرجة انه كان يملي على القاضي النعمان بن حيُّون اكثر فصول كتبه ومؤلفاته.... ونسب اليه بعض المؤلفات في الفقه والفلسفة ولكن لم يعثر على اي منها حتى الآن.

ذكر: انه امر خدمه في احدى الايام بأن يهيئوا له الحمَّام.... وجلس

ينتظر، ثم مشى بعد مضي بعض الوقت الى الحجرة التي فيها الحمَّام، فرأى الباب مقفلاً، والحمَّام لم تصلح... فسأل عن المفتاح، ووقف طويلاً ينتظر... ولم يتغير حاله ولا غضب، ولا قال في ذلك شيئاً، ثم دعا بكرسي فجلس عليه حتى جيء بالمفتاح واصلح الحمَّام.

وذكر:

انه في احد الايام الممطرة استدعى شيوخ كتامة وكبار رجال الدولة الى قصره في «المنصورية» فدخلوا عليه، واذا هو جالس في احدى القاعات المفروشة باللبود على مطارح، وحوله كساء وعليه جبة، وبين يديه مرفع ودواة، وهو يرد بخطه على الكتب الواردة اليه، ويوجه الرسائل الى العمال والولاة في الاقاليم وفيها التوصيات، والتعاليم، والأوامر... فقال لهم:

يا اخواننا.... اصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد... فقلت لأم الامراء.. واخالها الآن تسمع كلامي: اترى اخواننا يظنون انَّا في مثل هذا اليوم نأكل، ونشرب، ونتقلب في المثقل والديباج والحرير، والفنك، والسمور، والمسك، والعنبر، والغناء كما يقول ارباب الدنيا... فرأيت ان انفذ اليكم لتشاهدوا حالي اذا خلت دونكم، واحتجبت عنكم، واني لأفضلكم في احوالكم الا فيما لا بد منه من دنياكم، وبما خصني الله به من امامتكم، واني مشغول بكتب ترد علي من المشرق والمغرب اجيب عليها بخطي، واني لا اشتغل بشيء من ملاذ الدنيا الا بما صان ارواحكم، وعمر بلادكم، وأذل اعداءكم، وقمع اضدادكم... فافعلوا يا شيوخ دولتنا في خلوتكم مثلما افعله، ولا تظهروا التكبر والتجبر، فينتزع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم، وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الي، كتحنني عليكم، فيكثر الخير وينتشر العدل، واقبلوا بعدها على نسائكم، والزموا الواحدة التي تكون لكم، ولا تشرهوا الى التكثير منهن، والرغبة فيهن، فينتقص عيشكم، وتعود المضرة عليكم، وتنهكوا ابدانكم، وتذهب قوتكم، ويضعف تمايزكم، فحسب

الرجل الواحد ـ واحدة ـ فنحن محتاجون الى نصرتكم بابدانكم وعقولكم، واعلموا انكم اذا لزمتم ما آمركم به رجوت الله ان يقرب علينا امر المشرق.

وذكر:

ان المعز لدين الله كان وسيماً وانه قريب الشبه بوالده المنصور بالله، وكان جميل القامة، مهيباً لدرجة انه لم يكن باستطاعة احد التحديق في وجهه وعينيه.

وقد وصفه «بنقولا» سفير امبراطور الدولة البيزنطية عندما قام بزيارته سنة ٣٥٧ هـ. في مدينة المنصورية، ليبلغه رسالة من الامبراطور فقال:

«اخطأ الروم حينما اطلقوا عليه اسم ملك «المتبربرين».. فأنا حينما بعثني اليه «نقفور فوكاس» رأيت من عظمته في عيني، وكثرة اصحابه ما كدت اموت فيه.. وحينما دخلت عليه رأيت فيه نوراً غطى بصري... وكان على سريره كأنه ملاك هبط من السماء.».

وذكر:

ان المعز لدين الله هو اول من فكر ـ اي منذ الف ومئة عام بصنع خزان للحبر في الاقلام وبالفعل تعمم هذا الاختراع في ذلك العصر، واستعملت الاقلام ذات الخزان التي توفر على الكاتب عناء حمل الدواة.. وهكذا فيكون هو مخترع قلم الحبر «Stylo».

ومن المشهور عنه انه كان يرسل سفنه من مصر الى شواطىء لبنان في كل فصل ربيع من العام لحمل الثلوج الطبيعية من جبال لبنان الى مصر حيث يكون قد اعد لها امكنة خاصة في اقبية تحت الارض، بعد ان يضيف اليها بعض المواد لحفظها حتى آخر الصيف.. وكانت تستعمل لتبريد المياه.

سأله مرة احدهم عن حسبه ونسبه؟ فسكت... وفي ثاني يوم ادب

مأدبة كبرى دعا اليها وجوه البلاد، وشيوخ القبائل، وكبار رجال الدولة، وبعد ان اكلوا وشربوا قال لهم:

دعوتكم لأقص عليكم خبر رجل يحضر بيننا الآن... وقد سألني امس بارتياب عن حسبي ونسبي... وها اني اجيبه:

هذا هو حسبي... وأشار الى سيفه... وثم هذا هو نسبي... وأشار الى كيس كان بقبضته مليء بالنقود.

ومما يروى عن المعز لدين الله:

انه قدم لبعض جلسائه طبقاً من التفاح وقال:

هذا تفاح جاءنا من المشرق... من البلد الذي خرج منه المهدي والقائم، ومن القرى التي كانت لهما.... وأضاف:

تبركوا به.... فانا نرجو ان شاء الله ان تقطفوه غداً بايديكم من شجرة مباشرة معنا عندما يتم لنا الوصول اليه.... وكان يقصد بذلك بلدة سلمية ـ السورية.

ومن القصص التي يتجلى فيها عدله وحكمته:

ان عامل الفاطميين في مدينة فاس المغربية اعان احد اصدقائه الاغنياء على اغتصاب قطعة ارض كان يملكها احد الفقراء... فجاء الفقير الى المنصورية ودخل عليه باكياً ثم عرض قصته، فأرسل المعز لدين الله بطلب الوالي وصديقه، وبعد ثبوت الاغتصاب، عزل الوالي، وسجن الرجل الغني، واعيدت الارض الى صاحبها.

وذكر:

انه بعد ان وصل الى مصر، اصدر اوامره بالعفو عن الأخشيديين والكافوريين الذين كانوا قد دعوا الى الثورة ضد الفاطميين، وعاونوا القرامطة عندما هاجموا الديار المصرية، كما انه احسن اليهم بعد اعلان توبتهم وندمهم، فأعاد اليهم اعتبارهم، وولى من يستحق منهم بعض

المناصب في الجيش، وادارة الدولة.

وجاء ايضاً:

ان زوجة الاخشيد كانت قد اودعت عند صائغ يهودي « بغلطاق » اي عقد من الجوهر ثم لما ضاقت بها الدنيا طلبته منه، فأنكره... فقالت له:

خذ كم البغلطاق، واعطني ما فضل، فأبى... فلم تزل به حتى قالت له: هات الكم وخذ كل ما يبقى... فلم يفعل... وكان في البغلطاق بضع عشرة درة. فأتت المرأة الى قصر المعز لدين الله، وأخبرته بامرها... فأحضر اليهودي، وقرره فلم يعترف، فبعث الى داره من ضرب حيطانها، فظهرت فيها جرة البغلطاق. فلما رآه المعز لدين الله تحير من حسنه، ووجد ان اليهودي اخذ منه درتين، فاعترف انه باعهما بألف وستمائة دينار... فأخذه المعز لدين الله وسلمه للمرأة وحكم على اليهودي بدفع المبلغ الذي اخذه ثمن الدرتين... وهنا طلبت امرأة الاخشيد من المعز لدين الله ان يأخذ العقد هدية وقالت:

يا مولاي: هذا كان يصلح لي وانا صاحبة مصر... اما اليوم فلا يصلح الا لزوجتك... ولكن المعز رفض ذلك بإباء.

وذكر:

ان الناس كانوا يهرعون اليه اذا رأوه، ويرفعون اليه ظلاماتهم، فيسمع لكل واحد منهم على انفراد، وينهر من يقف في وجههم، وعلى الرغم من كثرة مشاغله... كان واسع الصدر مع رعيته، وابنائه، وموظفيه... يحلم عليهم ليسمو باخلاقهم الى اعلى المراتب، ويثور بهم اذا خالفوا الدين وجاءوا عن الطريق المستقيم.

وجاء في مصدر تاريخي:

ان المعز لدين الله ركب يوماً من ايام الربيع الى مكان وصف له بان فيه زهراً جميلاً ونبتاً حسناً... وفي الطريق من المنصورية اكتنفه الناس

يسألونه عن حوائجهم، ويرفعون اليه امورهم... فما زال يقبل بوجهه على الواحد والجماعة منهم، ويكلمهم، ويجيبهم حتى انتهى الى المكان المقصود، ولم يضجر من مرافقة الناس له... وكنّا حوله نضجر لذلك... وكان المشاة بين يديه يدفعون الناس، فيأمرهم بتخلية من يدفعون، وانّ كثيراً منهم ليطيل مسايرته، ويكرر حاجته، فيأمره من حوله بالانصراف، ويغمزه ارادة التخفيف عليه، وان ينظر الى ما خرج اليه فينهاهم عن ذلك ويأمر ان يدعو من كلمه الى ان يقضي حاجته، وينصرف عن رأي نفسه، وهذا هو دأبه في اكثر خروجه.

ويقول النعمان بن حيون وكان رفيقه في اكثر رحلاته:

لا اعلم ولا سمعت احداً وصف بمثل ذلك الصبر والحلم، وسعة الصدر.

وذكر النعمان:

ان المعز لدين الله حضر عيد الفطر، وتقدمه عواصف واضطراب في الاجواء فشكل الكثير من الوحل والطين، فظن الناس انه سيصلي صلاة العيد في المسجد... ولكنه قال:

لا بد من قضاء فرض الله تعالى في البراح على ما امر به جلّ ذكره... وأضاف:

وهذا من اقل ما ينبغي ان يفعل في ذات الله، واكثر منه... والله لو حبونا في الطين حبواً على الركب... وكان ذلك مما يرضي الله عنا، ويقبله منا... لفعلناه... ان رسول الله يقول:

اذا سمعتم داعياً الى اهل بيتي، فسارعوا اليه، ولو حبواً على الثلج والنار، فاذا كان الله تعالى قد اوجب لنا هذا على عباده، ونحن خلق من خلقه، قد ابتدأنا بفضله، وأنعم علينا باحسانه، فكيف بما يجب علينا للخالق جل ذكره ان نرخص فيه، او نتعاظم مشقة تدخل علينا من اجله... معاذ الله ان نستكبر عن عبادته، او نتأخر في طاعته.

وخرج . . . وخرج الناس يخوضون الماء والطين، فما انصرفوا الا وقد تخضبوا فيه وامتلأت ثيابهم منه . . . وكان مشهداً يرضي الله من وليه، وممن ذهب فيه مذهبه.

اجل . . . كانت تبدو على المعز لدين الله امارات الذكاء والنجابة منذ نعومة اظفاره، حتى ان الخليفة الفاطمي الاول عبيد الله المهدي اختبر ذكاءه واعجب به، وتنبأ بانه سيكون له شأن كبير . . . . ويقول المعز لدين الله :

اني لأذكر يوماً حملت فيه الى المهدي، وانا يومئذ فطيم اعقل الكلام، وأحفظ ما يكون . . . فتناولني، وقبلني وادخلني تحت ثوبه، وكشف عن بطني، وألصقها ببطنه، ثم اخرجني وبارك علي، وسألني عن حالي، وأجلسني في حجره، ودعا لي بمأكل . . . فأتوني بطبق من فضة مذهب فيه موز، وتفاح، وعنب . . . فوضعهم بين يدي، فلم اتناول منه شيئاً . . . فأخذه بيده وناولني، فأخذته بيدي . . . فقال :

امض به، فكل منه ما فيه، واعط الطبق « فلانة » وذكر بعض البنات، وهي يومئذ في مثل سني . . . فقلت له :

لابل آخذ انا الطبق، واعطيها ما فيه . . . . فضحك المهدي، وتعجب من انتباهي لذلك، ودعا لي بالخير . . . وقال :

سيكون له شأن.

ويظهر ان ذكاء المعز لدين الله قد اشتهر لدى الخاص والعام، وانه عرف في جميع مراحل حياته بحل المعضلات، والتغلب على كل ما يشكل على المسرح العام. ومما يثبت ذلك :

ان الخليفة الثالث المنصور بالله خرج ذات يوم ومعه المعز لدين الله وكثير من حاشيته وخرج النعمان معهم كذلك، وفي الطريق عرضت على المنصور بالله شكاية من رجلين من اصحاب الضياع، فأشكل الامر على

الخليفة، وعلى النعمان نفسه، وعلما من كان معهم... حتى لقد قال النعمان لزميل له:

لقد اشتبه عليَّ امرهما، وحسبك ما ترى من توقف امير المؤمنين من الفصل بينهما، ثم جعل يدلي لزميله، ويبين كفاءة المعز لدين الله... فيقول:

لو ان المتخاصمين وقفا بين يدي الامير اعني المعز لدين الله لفصل بينهما... والله ما ضاق عليَّ أمر قد رأيته، ولا اشتبه عندي وجه الحق فيه، فرفعته اليه، الا اجابني عنه قبل استيفائه اخره او عندما يستوفيه بجواب ما خطر ببالي بعد الروية له، والتفكر فيه الايام الكثيرة، والليالي الطويلة، بما لا اشك فيه انه الحق الذي لا وجه له غيره.

ولما ادرك الخليفة المنصور بالله عجزه عن الحكم بين المتخاصمين، احال الامر على الامير المعز لدين الله ففصل بينهما فصلاً سريعاً، مدللاً على ذكائه، وسرعة خاطره.

وذكر:

ان جده القائم بامر الله كان يأنس اليه، ويتخذه واسطة بينه وبين الرعية، وكان اذا غاب عنه يرسل بطلبه، ويكلفه بمهمات صعبة... وكثيراً ما كان يقول:

لولا صغر سنه، لجعلت الامر منذ الآن اليه.

اننا ونحن ننهي هذا الفصل عن الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله نذكر:

بان لهذا الخليفة ميزات خاصة يجهلها الكثيرون بالنسبة لقواعد الامامة المعترف بها لدى الاسماعيلية.

فبحسب تسلسل هذه الامامة يعتبر المعز لدين الله الامام الرابع عشر، ومعنى ذلك انه «سابع الاسبوعين» فقوته في مثل هذا الواقع يجب ان

تكون معادلة لقوة الائمة الذين سبقوه مجتمعين.. ولهذا يكون « اساس » الدعوة، ورتبة « الاساسية » بحسب الترتيب الاسماعيلي اعلى درجة من الامامة، لان الاساس عادة يكون مرافقاً للنبي الناطق بالشريعة وبالتنزيل، وهذه الرتبة خص بها « علي بن ابي طالب » ومن هنا نظر اليه بانه اعلى درجة من الائمة الذين جاءوا بعده، والمعز لدين الله حاز على نفس المرتبة على اعتبار انه « سابع الاسبوعين ».

الامبراطورية الفاطمية:

امتدت رقعة الدولة الفاطمية في عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله فأصبحت من شاطىء المحيط الاطلسي حتى البحر الأحمر، ويدخل في ذلك البحر الابيض المتوسط، وبلغة اصح كانت اعلام تلك الدولة ترفرف على مراكش، والجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر، وبلاد النوبة، وفلسطين، وبلاد الشام، والحجاز، واليمن، فضلاً عن صقلية وكريت... وبهذا تكون قد فاقت باتساع رقعتها الدولة العباسية، وسبقتها في مضمار القوة، وانتزعت منها زمام السيادة والزعامة في العالمين العربي والاسلامي.

وقد يكون من الانصاف... القول:

بان الفضل في هذا التوسع والامتداد يعود الى جهود وعبقرية قائد هذه الدولة وعقلها المفكر، المعز لدين الله، والى تدابيره، وحسن إدارته، واقدامه، وسياسته، وثقافته الواسعة ودرايته باختيار الاعوان، والقواد والولاة الذين ضموا جهودهم الى جهوده، ووضعوا امكانياتهم المشتركة، وخبراتهم تحت تصرفه للنهوض باعباء الحكم، وتخطي العقبات، والسير في طريق النجاح.

اجل... كان المعز لدين الله طاقة كبرى من العبقرية، وشعلة حية من التوقد والذكاء، ومجموعة كبرى من الشجاعة والاقدام، قبض بيد من حديد على زمام الامور في دولته الفتية، وهو في ريعان الشباب، فلم يترك شاردة

او واردة من امور الدولة، الا وأشبعها درساً وبحثاً، ولا داء مستعص الا وأوجد له العلاج الناجع.. وكان قاسياً مع الاعداء والمتآمرين، وطبيباً مع الانصار والمؤيدين... يلبس لكل حالة لبوسها ويعرف من اين تؤكل الكتف.

اما عصره فكان حافلاً بمظاهر العظمة والقوة، فقد استطاع بما اوتيه من ذكاء حاد فذ، ومهارة حربية ممتازة ان يوحد بلاد المغرب بجميع اجزائها تحت رايته، وينتصر على الثائرين، وعلى الامويين، والروم في اكثر من موقعة، حتى ان الامويين في الاندلس اصبحوا يخشون على بلادهم من ان تقع في قبضته، كما ان الروم سارعوا الى محالفته خوفاً من قوته ونفوذه، وقد حاول ان يتخذ من صقلية وكريت جسراً للعبور الى ايطاليا شمالاً، والى مصر والشام شرقاً، ومنها الى بغداد للقضاء على الدولة العباسية، وبعدها الى القسطنطينية حيث اعداء العرب والمسلمين.

وقد كان لنظم الحكم الدقيقة التي سار عليها الاثر البعيد في ازدهار بلاده ورفع مستواها ولاغرو فان حكمه ظلَّ يمثل الحكم المستنير الذي يقوم على الفكر، والدرس.

ومما يجب ان نشير اليه ان وصول المعز لدين الله الى سدة الخلافة والامامة الفاطمية كان بحسب تسلسل هذه الامامة التي تخضع الى نظام خاص، وهكذا بالنسبة لولاية العهد، وكل هذا يشكل فصلاً رائعاً جديراً بالامعان، فانتقال الامامة من عبيد الله المهدي «الامام المستودع» الى القائم بامر الله «الامام المستقر» معناه رد الوديعة الى صاحبها الشرعي - وقد وقع كل هذا بالفعل - فان المهدي ادى الامانة الى القائم بامر الله وسلمه الرتبة التي كان قيماً عليها، ولم يجعل لسائر اولاده نصيباً فيها.

اذن... فامامة الاستقرار في المغرب تبدأ بالامام القائم بامر الله، والقائم بامر الله سار على نهج ابائه الاولين، فقد كان عليه ان ينص على ولده الاكبر المنصور بالله قبل وفاته، وهكذا فعل المنصور بالله بالنسبة للمعز

لدين الله، والمعنى ان النص امر مسلم به عند الفاطميين، ويتجلى كل هذا بما قاله المنصور بالله لولي عهده المعز لدين الله، حين عهد اليه بالامامة:

« والله ما انا آثرتك بما اثرتك، بل الله اثرك واختصك، واعطاك، واجتباك،... والله لو ملكت من الدنيا درهماً فما فوقه من غير هذا الوجه لما استجزت ان اخص به احداً من ولدي دون الآخر فاما ما خولني الله من الكرامة، واصطفاني به من الامامة، فانما هو متاع عندي، وعارية في يدي الى انقضاء المدة، وتمام العدة... ثم هو لك بحكم الله وامره واعطائه، لا عن امري، وحكمي، واختباري، - واختصاصي اياك به ».

وقال له ايضاً:

« انظر ما كنت رأيتني افعله فافعل مثله، وما كنت رأيتني تركته فاتركه، واصنع بعد وفاتي ما كنت رأيتني اصنع في حياتي... فنعم السلف انا لك ».

اجل... اعتلى المعز لدين الله عرش الخلافة الفاطمية في المغرب في شهر شوّال سنة ٣٤١ هـ. فأخفى خبر موت ابيه مدة تقارب الشهر، وذلك كي لا تتعرض الحالة الطبيعية الى انتكاسات، وقد مر معنا ان القائم بامر الله اخفى موت عبيد الله المهدي سنة كاملة وان المنصور بالله اخفى موت القائم بامر الله ثلاث سنوات، اما المعز لدين الله فمدته كانت اقرب، لان امور الدولة كانت اكثر استقراراً وأمناً، وأدعى الى الطمأنينة.

ومهما يكن من امر... فان ادارة الملك، وسياسة الرعية، وتسيير شؤون الدولة لم يكن بالامر الجديد على المعز لدين الله، فهو قد مارسها، وتدرب على تصريف شؤونها، وخبر كل ما يحيط بجوانبها.... فرجال الدولة، والقواد، والشيوخ، والقضاة، والولاة لم يشعروا بان المعز لدين الله - الخليفة الجديد شخص غريب عليهم... فقد سبق لهم ان عرفوه ولياً للعهد بعهدي القائم بامر الله، والمنصور بالله يتصدى لشؤونهم، ويحل معضلاتهم،

ويدرس معهم الامور العائدة للدولة... اما الرعية فقد قابلوا الحدث بكل اطمئنان وترحاب لانهم عرفوه وجربوه، ولم ينسوا اخلاصه، وسهره الدائم على مصالحهم وراحتهم... وهكذا الجند فقد أنسو اليه واستعانوا به، ووثقوا بحدبه عليهم، ويقابل كل هذا القبائل وخاصة «كتامة وصنهاجة» فقد اعتبروا انهم اصبحوا في كنف خليفة يقدر مواقفهم، وجهادهم، واخلاصهم لدولته.

وليس هناك ابلغ من قوله لجماعة منهم عندما جاءوا لمبايعته:

«اني انزلت كباركم مني منازل الاخوة، وصغاركم منازل الأولاد، وانتم في خير زمان... فاعرفوا قدر النعم عليكم... وقيسوا انفسكم اليوم بمن مضى منكم بالامس، وقيسوا انفسكم اليوم بمن مضى منكم بالامس... من قوم انتم بعض حسناتهم، وانتم اليوم معنا في خير زمان مع خير امام برٍ بكم، عطوف، محسن اليكم، يقيلكم العثرة، ويغفر لكم الذلة، ويحسن الى محسنكم، ويتغمد عن مسيئكم... وقال لوفد آخر من كبار المقربين:

«اريد منكم ثلاثاً، واكره لكم ثلاثاً... اريد منكم الصدق وأكره لكم الكذب، واريد منكم العفاف، وأكره لكم الخيانة، واريد منكم التواضع، واكره لكم الكبر... وهذا اخوف ما اتخوفه عليكم».

امام الأحداث

افتتح المعز لدين الله عهده باسناد مهمة القيادة العامة للجيوش الفاطمية الى «جوهر الصقلي» وكان يضطلع بمهام رئاسة الكتابة والانشاء، وقد ذكرت عنه بعض المصادر بان المعز لدين الله اشتراه من سوق المزاد، وأدخله في خدمته.

ونحن في كتابنا «جوهر الصقلي» ذكرنا:

بان الذي اشترى جوهر هو القائم بامر الله... واعطينا الدليل على ذلك بان ولادة جوهر وقعت ما بين سنة ٢٩٨ الى سنة ٣٠٠ هـ، بينما المعز

لدين الله ولد سنة ٣١٩ هـ . وهكذا يكون جوهر اكبر من المعز لدين الله بعشرين عاماً، وهذا يعزز اليقين بان القصة مختلقة من اساسها، ولا تتفق مع الواقع... لان المعز لدين الله عندما يكون في سن العشرين، فيكون جوهر قد تجاوز الأربعين، ورجل الاربعين لا يعرض عادة في اسواق المزاد.

اجل... اختار المعز لدين الله جوهراً لقيادة جيوشه، وقد اقترن اسمه كما سيظهر باسم مصر، فقد عرف بانه فاتحها، وموطد اركانها، ومقيم تعالبم وافكار الفاطميين في ربوعها، ومن الجدير بالذكر ان كل هذا قد تمّ له بعد ان اخضع مراكش، والجزائر، وتونس، وليبيا، وصقلية لدولة المعز لدين الله الفاطمية، وبعد مصر فلسطين، وبلاد الشام والنوبة والحجاز. واذا كان اسم المعز لدين الله قد اقترن باسم القاهرة فمن حق جوهر ان يقترن اسمه بجامعة الازهر... فهو الذي وضع حجر اساسها، وأقام دعائمها.

نظر اليه كقائد من القواد العباقرة امثال: خالد بن الوليد، وطارق بن زياد، وصلاح الدين وغيرهم من مشاهير القواد المسلمين... وجاء من يقول:

بانه كان اوسع فهماً بادارة، وسياسة الجنود، وفنون القتال.... ولد بجزيرة صقلية واتفقت كافة المصادر على القول:

بانه رومي الاصل، ولكنه مسلم بدليل ان والده كان يسمى «عبد الله» وممّا يثبت صحة اسلامه تمسكه باهداب الدين الاسلامي، وحرصه على اعلاء كلمته، واحياء امجاده.

اخذ بنصيب وافر من الثقافة العربية واللاتينية، وعرف اللغات السائدة في عصره ودرس العربية، والرومانية، وتاريخ الحروب، واساليب القيادة السياسية والحربية... وكل هذا اكسبه مهارة في الحروب التي خاضها،

وخبرة في ادارة البلدان التي افتتحها، وفي سياسة الشعوب التي اخضعها لحكمه.

ليس هناك اية مصادر تاريخية تشير بالضبط الى السنة التي ولد فيها، ولكن هناك ما يؤكد بانه عاش اكثر من ثمانين عاماً، ولهذا رجَّح بعض المؤرخين ان تكون ولادته وقعت ما بين سنة ٢٩٨ الى سنة ٣٠٠ هـ كما ذكرنا انفاً، أمّا وفاته ففي سنة ٣٨١ هـ.

كان جوهر مولى من الموالي... وقلما اهتدى المؤرخون الى الوقوف على نسب هؤلاء الموالي، ويبدو انهم اغفلوا تدوين انسابهم، وانتسابهم قصداً، بالنظر لعدم اهميتهم، وشأنهم.

شبَّ وترعرع في حجر الدولة الفاطمية في المغرب - اي بين شباب وامراء الاسرة الحاكمة، وقد ذكرنا ان الخليفة الثاني الفاطمي القائم بامر الله اشتراه من سوق المزاد، بعد ان توسم فيه الذكاء والنجابة، فجعله بين أبنائه، واحاطه برعايته وعطفه، كما انه وفرَّ له اسباب الدرس، والتعليم، ولمّا كبر سلَّمه المنصور بالله بعض المسؤوليات في القصر، وظلَّ يتدرب على شؤون الادارة، وأساليب الحكم والقيادة حتى مجيء المعز لدين الله الى سدة الخلافة، فعيَّنه وزيراً، ثم رقَّاه سنة ٣٤٧ هـ الى منصب القيادة العامة للجيش، وأمر ان يضمَّ اليه القائد «جعفر بن فلاح» امير كتامة، و «زيري بن مناد» امير صنهاجة، و «جعفر بن علي» امير المسيلة، وذلك في حملته الاولى التي قادها لاخضاع المغربين الاقصى، والاوسط.

اننا عندما نتحدث هنا عن ذلك العصر... نرى لزاماً علينا اعطاء صورة موجزة واضحة عن الأوضاع العامة التي كانت سائدة على مسرح المغرب قبل مجيء المعز لدين الله. فنقول:

بان تلك الثورة الكبرى التي اذكى نارها ابو يزيد مخلَّد بن كيداد الخارجي في عهد الخليفتين - القائم بأمر الله، والمنصور بالله... كادت

تعصف بالدولة الفاطمية، وتترك المغرب بكافة اجزائه في حالة يرثى لها من الفوضى. امَّا بالنسبة للدولة الفاطمية، فقد استنفذت الثورة المذكورة كافة الاموال والموارد، وجعلتها في حالة من الانهيار الاقتصادي حتى ان المنصور بالله عجز مرة عن دفع بعض المرتبات لعمَّال الدولة وللجند... كما ان تلك الثورة وقفت بوجه الخليفتين الثاني، والثالث، وأوقفت لديهما كل نشاط، او تفكير بارسال اية حملة للمشرق، فظلَّ همهما محصوراً ضمن نطاق تأديب العصاة، والثائرين الذين شقوا عصا الطاعة، وقاموا بدافع من الامويين يعملون للاجهاز على الدولة الفاطمية.

ومن المفيد ان نشير:

ان عبيد الله المهدي استطاع ان يمزق دولة الادارسة في فاس بواسطة حليفه «موسى بن ابي العافية» وقائده المشهور «مصالة بن حبوس»... ولكن ازالة هذه الدولة من فاس جعل الدولة الفاطمية امام اخطار عديدة اهمها:

تكتل الادارسة، وانصارهم في بلاد الريف، ووقوفهم موقفاً معادياً للفاطميين، ثم ارتماءهم اخيراً باحضان الامويين في الاندلس. فأبو موسى ابي العافية وابناءه انحازوا الى الامويين فيما بعد، وأعلنوا قيام دولتهم المستقلة عن الفاطميين في المغرب الاقصى.. وبالفعل استقام لموسى الامر فيما بعد في المغربين الاقصى والأوسط بعد زوال الادارسة... وقد جرى كل هذا بعدما اخذت مطامع الامويين تتجه الى بسط النفوذ... يتجلى ذلك باستيلائهم على مدينة سبتة سنة ٣١٩ هـ. واعلان الخطبة لهم في كافة البلدان المغربية التي استولى عليها ابن العافية، وقد ساعدهم على ذلك وفاة القائد الفاطمي الكبير «مصالة بن حبوس»، والانتصار الذي حققه على الحسن بن محمد الادريسي الملقب «بالحجَّام» وهو آخر امراء الادارسة في فاس سنة ٣١٣ هـ. وبعد هذا صفا له الجو في اكثر اجزاء المغرب الاقصى.

امّا الفاطميون فكانت غايتهم الاحتفاظ بهيبتهم ولو شكلياً في تلك البلاد النائية على الاقل، لذلك ارسل عبيد الله المهدي جيشاً بقيادة « حميد ابن يصال » قائد منطقة تاهرت، وابن اخي القائد المشهور « مصالة بن حبوس » فاستطاع بعد سلسلة من المعارك ان يوقع الهزيمة بابن العافية، ويضطره الى الفرار من فاس، وقد ساعد الادارسة الفاطميين في هذه المعارك، واشتركوا في القتال الى جانبهم، لا حباً بالفاطميين، ولكن تشفياً وانتقاماً من ابن العافية الذي عاث فساداً في ديارهم، وكان العامل الأكبر في تهديم دولتهم.

بعد هذه الاحداث، عيّن حميد بن يصال « حامد بن حمدان » والياً على فاس، وعاد بعد ذلك الى قاعدته تاهرت، ولما لم تمض سوى فترة قصيرة حتى قام احد اعداء الفاطميين الطامعين المسمَّى « احمد بن ابي الجزامي » فاستولى على فاس، وقتل حامد، وارسل الى ابن العافية الذي ارسله بدوره الى قرطبة، وهكذا عاد نفوذ الامويين الى المنطقة من جديد.

وعندما تسلَّم شوؤن الخلافة الخليفة الفاطمي الثاني القائم بامر الله، ارسل قائده « ميسور الفتى » سنة ٣٢٢ هـ. فاستولى على فاس وقبض على الجزامي، وساقه اسيراً الى المهدّية، وقد تمَّ هذا بعد حصار لفاس دام سبعة اشهر، اشترك فيه الادارسة الى جانب الفاطميين أيضاً، وقبل ان يغادر ميسور فاس عين عليها « الحسن بن ابن القاسم اللواتي » الذي اعاد الخطبة للقائم بامر الله، وضرب السكة باسمه، وقد استمرَّ ذلك مدة سبعة أعوام، واخيراً عاد الجزامي سنة ٣٣٥ هـ. بعد ان اطلق سراحه من المهدية، فتمكن من خلع اللواتي واعادة النفوذ الاموي.

ومهما يكن من امر... فان خطر بيت ابي العافية ظلَّ جاثماً على صدور الفاطميين مدة طويلة، ولم يزل هذا الخطر قائماً حتى عهد المعز لدين الله... ومن الجدير بالذكر انه لم يتمكن من القضاء على دولتهم حتى سنة ٣٦٣

هـ. وان جوهر برغم من انتصاراته العظيمة في حملته الكبرى سنة ٣٤٧ هـ، فان بيت ابي العافية ظلّ يتحرك.

ونعود الى الادارسة لنقول:

بان موسى بن ابي العافية ساهم في بادىء الامر بالاتفاق مع الفاطميين عل القضاء على دولتهم في فاس، وقد كان اتحاد موسى مع مصالة بن حبوس سنة ٣٠٥ الى سنة ٣٠٩ هـ. آخر سهم وجه الى صدر اميرهم يحيي الرابع بن ادريس الذي فرّ الى المهدية، ومات فيها سنة ٣٣٢ هـ.

وبعد يحيي ظلّ الادارسة يتطلعون الى ملكهم، ويحاولون استعادة بعض اجزائها على الأقل، فثار الحسن بن محمد الحجّام كما ذكرنا على الوالي الفاطمي سنة ٣١٠ الى سنة ٣١٢ هـ. وطرده، ثم استبد بامور فاس، وهزم جيش ابن العافية في بادي الامر، ولكن في النهاية تغلّب عليه وطرده من فاس بعد ان استنجد بالفاطميين... وبعد هذه الاحداث اضطرّ الادارسة الى الاعتصام في اقليم الريف. امّا موسى بن العافية فبعد ان حقق كل ما اراده، تنكر للفاطميين، وحارب نفوذهم، ووجودهم في المغرب الاقصى بواسطة الامويين في الاندلس.

امام هذه الاحداث، والمناورات ادرك الفاطميون والادارسة معاً ان ابن العافية هو سبب المآسي التي تعرَّض ويتعرَّض لها المغرب الاقصى.

اجل... وضعوا امامهم استبداده بالمغرب الاقصى دونهم، وتحالفه مع اعدائهم الامويين..... ووضع الادارسة امام اعينهم انتزاعه منهم اقليم فاس بشتى وسائل الدسائس، ولهذا فانهم انضموا الى القائد الفاطمي ميسور الفتى، واستردوا كل ما كانوا قد فقدوه.

وفي خاتمة المطاف انتقلت السلطة في بلاد المغرب الاقصى، بعد فرار ابن العافية الى الصحراء الى القاسم الادريسي واخيه، وهما من امراء الادارسة، فعملا على تعزيز نفوذ الفاطميين في المناطق التي استولوا عليها،

وظلّ ذلك حتى سنة ٣٣٧ هـ .

وبعد القاسم تولّى ابنه احمد المعروف « بأبي العيش » فانحرف عن مبدأ الفاطميين ، وانحاز الى الامويين ، وفي عهده استولى الامويون على طنجه ، دون اذن منه ، فحاول التصدي لهم ، ولكنه لم يتمكن ، واخيراً اذعن ، وأطاع ، وظل حتى مات سنة ٣٤٨ هـ . وممّا هو جدير بالذكر ان هذا الادريسي اشترك مع الناصر الاموي في حروبه مع الفرنجة .

واخيراً :

جاء المعز لدين الله ، فدرس امور المغرب الاقصى دراسة وافية ، على ضوء الاحداث ، فرأى بثاقب بصره بان الامويين استطاعوا ان يخضعوا العديد من امراء المغرب الى نفوذهم بالقوة تارة ، وبالخديعة اخرى ، منتهزين فرصة انشغال الخليفة الفاطمي بامور جانبية ، حتى انهم ملكوا اكثر بلدان المغرب ، وبايعتهم اكبر القبائل كزناتة ، والبربر ، وخطب لهم على المنابر من تاهرت حتى طنجة .

وهنا وضع المعز لدين الله خطته الحكيمة ، وعهد الى جوهر الصقلي قيادة الحملة العسكرية الكبرى ، وألحق بقيادته عدداً من القوّاد والامراء الاقوياء ومنهم: جعفر بن فلاح ، وزيري بن مناد ، وجعفر بن علي الاندلسي . . . وكانت اوامر الخليفة تقضي باخضاع الثائرين ، والمنشقين ، والفتك في كل من حاول او يحاول الانضمام الى الدولة الاموية .

رايات جوهر:

انطلق جوهر من القيروان على راس جيشه الكثيف . . وكانت وجهته تاهرت ، وغايته القبض على حاكمها « يعلى بن محمد » الذي انضمّ الى الامويين ، وبالرغم من ان تعيينه قد تمّ من قبل الفاطميين ، وعند وصول جوهر تظاهر يعلى باخلاصه ، وخضع له دونما قتال . . . ولكن جوهر لم يثق به ، بل قبض عليه وعلى ابنائه وأرسلهم الى سجون المنصورية . وهناك

مصادر تقول:

بانه قاوم بشدة، ولكن جوهر تمكن من اسره، ثم حاكمه، واعدمه... وقد اعتبر هذا فاتحة الانتصارات الكبرى.

ومن تاهرت سار جوهر الى فاس فحاصرها، وكان حاكمها «احمد بن ابي بكر بن سهل الجذامي» فاستطاع صد جيوش جوهر، وايقافها على ابواب المدينة، ممّا جعله يتركها، ويعود الى سجلماسة، وهناك واجه «محمد ابن الفتح» المعروف «بابن واسول» والملقب «بالشاكر لله». وفي المعركة الاولى تمكن جوهر من احراز الانتصار، والقبض على ابن واسول، وهو يحاول التسلل الى المدينة لأخذ بعض امواله، فساقه الى المنصورية مع بعض امراء فاس والعصاة الآخرين.

بعد هذا عاد جوهر الى فاس ففتحها، ثم قصد ادارسة الريف، وكانت رئاستهم في يد «الحسن بن قاسم» «قنون»، وهذا عندما رأى جيوش جوهر قادمة، وجد السلامة بالهرب صوب قرطبة... وهكذا تمّ لجوهر احراز الانتصارات بسرعة، ولم يعد الى المنصورية الاّ بعد ان ركّز اعلام الدولة الفاطمية على مدن المغرب الاقصى حتى سواحل المحيط الاطلسي، وعند وصوله الى المنصورية كانت الاف الناس باستقباله، وكان معه في اقفاص من خشب امير فاس وخمسة عشر من اشياخها، وبعض امراء الادارسة، وغيرهم من العصاة، وكانوا على رؤوس الجمال، وعلى رؤوسهم قلانس من لبد مستطيلة، وفي وسطها قرون... فطيف بهم في بلاد المغرب، واسواق المهدية، والقيروان، ثم اودعوا السجن.

اجل... عاد جوهر بعد عام الى المنصورية، وهو يجر اذيال النصر... ولكن لا بد من التساؤل ونحن في صدد التحدث عن تلك الانتصارات الرائعة... هل استطاع اطفاء اللهيب المتصاعد في المغرب؟ وهل انتهى امر الادارسة؟ وهل امتنع الامويون عن القيام بالمؤامرات واشعال الثورات ضد الدولة الفاطمية؟

الجواب: يتجلى عند ذكر الثورة الجديدة التي قام بها الحسن بن القاسم « الادريسي » الذي فر الى قرطبة ثم عاد منها ليعلن دولته، فأرسل اليه المعز لدين الله قائده « بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي » فهزمه، واعاد الخطبة الى الفاطميين.

من الجدير بالذكر ان الادارسة بعد هذه المعركة لم يعد لهم اية مكانة سياسية في المغرب وقد حلَّ محلهم بنو حمود من سنة ٤٠٧ الى سنة ٤٤٩ هـ. امَّا الزناتيون فقد انتهزوا فرصة ذهاب جوهر الى مصر، فثاروا على الدولة الفاطمية سنة ٣٥٩ هـ. بقيادة ابو خزر، فخرج المعز لدين الله بنفسه، وعندما وصل الى باغاية فرَّ ابو الخزر من وجهه، فأرسل اليه قائده زيري بن مناد، فاستسلم اليه، وجاء الى المعز لدين الله الذي اكرمه، واجرى عليه الارزاق.

بعد هذا الحدث، اتحد الزناتيون مع صاحب المسيلة، واعمال الزاب، وحاربوا زيري بن مناد ثم قتلوه وايدهم في ذلك اهالي باغاية وتاهرت وتلمسان، وكل هذا جعل المعز لدين الله يسرع باعداد حملة كبرى جعل على راسها « بلكين » بن زيري، فجاء اليهم، وانتقم منهم شر انتقام.

ان هذه الاحداث والتحركات حدثت في المغرب، والمعز لدين الله لا يزال فيها... ولكن على العموم كانت كفة الفاطميين هي الراجحة، ودولتهم هي المسيطرة.

بين الفاطميين والأمويين:

العداء بين الفاطميين والامويين قديم، وقديم جداً، لهذا ليس غريباً ان يعود الى الساحة المغربية، ويأخذ ابعاده بين المنصورية وقرطبة.

ومن الجلي الواضح ان خوف الامويين تضاعف على ملكهم، ودولتهم من الفاطميين وخاصة بعهد الخليفة الرابع المعز لدين الله، وخاصة بعد الانتصارات التي حققها، وعندما احبطت جيوشه المؤامرات، وقضت على

روؤس المعارضة، وعندما اصبحت رقعة دولته تشمل كافة اجزاء المغرب.

بعض المصادر ذكرت:

ان الامويين ارسلوا في فترة من الفترات جيوشهم الى عمق اراضي المغرب الاقصى..... وانهم تغلبوا على الجيوش الفاطمية في معارك عديدة. ولا ادري من اين جاءوا بهذه المعلومات؟ فالأمويون لم يستخدموا في عدائهم للفاطميين الاَّ سلاح الدين، وبذل الاموال، والاغراء، والترغيب، حتى وصل بهم الأمر الى استخدام الادارسة في سبيل غاياتهم، ومآربهم بالرغم من أن الادارسة شيعة، ومن اقرباء الفاطميين.

وحتى الآن لم تعرف الاسباب التي منعت المعز لدين الله من غزو الاندلس، في حين كان بامكانه احتلالها، وربما كانت تطلعاته ترمي الى ابعد من الاندلس... الى مصر... الى المشرق... وهذا ما خطط له الفاطميون وعملوا به منذ اول يوم حطّوا رحالهم في اراضي المغرب.

ومهما يكن من امر... فان عداء الامويين للفاطميين لم ينقطع منذ قيام دولة هؤلاء... ففي عهد عبيد الله المهدي ثاروا، وشجعوا الحركات في كل مكان من المغرب ضد عبيد الله، كما شجعوا ثورة الخوارج التي قادها ابو يزيد وأمدوها بالمال والسلاح بعهد القائم بامر الله، والمنصور بالله... حتى اننا نرى ابا يزيد يرسل سنة ٣٣٣ هـ. كتاباً الى الناصر الأموي مع وفدٍ حمل اليه بشائر تغلبه على القيروان ورقَّاده وما جاورهما، وفي الوقت ذاته يظهر له خضوعه، واعترافه بولايته.

وشجَّع الناصر الاموي موسى بن ابي العافية على انتزاع ارجاء المغرب الاقصى من الادارسة لانهم شيعة، ثم اثارهم على عبيد الله المهدي، وعلى خلفائه من بعده، باذلاً لهم الوعود والمغريات. واستمال بالاموال والعطايا حميد بن يصال صاحب تاهرت، وابن اخي مصالة بن حبوس القائد الفاطمي المشهور، وكان قواد الثورات المعادية للفاطميين عندما يتضايقون، لا يجدون ملجأ لهم سوى قرطبة حيث يلاقون كل رعاية وترحيب.

ومن الجدير بالذكر انهم اعادوا لعن الفاطميين على منابر الاندلس، كما فعل اباؤهم في دمشق من قبل، وفي هذا ضربوا الرقم القياسي بانحطاط الاخلاق، والقيم، والشرف.

ان مصادر التاريخ الموثوقة لم تذكر اية مجابهة بين الفاطميين والامويين الاّ مرة واحدة، ويبدو ان العنف الذي قابل به الفاطميون تعديات الامويين جعل هؤلاء يحسبون للامر حسابه، ويتجنبون اية مصادمة قد تعرضهم لهزائم اشد، وأدهى.

فقد ذكر:

ان احدى السفن الاموية هاجمت سفينة فاطمية في البحر على مقربة من صقلية واستولت على رسالة كان قد بعث بها حاكم صقلية الفاطمي الى المعز لدين الله، فاعتبر المعز لدين الله هذا التحدي مقدمة لاعمال اخرى قد يقومون بها... لهذا قرَّر الرد عليها بسرعة وبقوة، بحيث يضع حداً لاعمال القرصنة الاموية في مناطق نفوذ الفاطميين البريَّة والبحرية. فأصدر امره لعامله في صقلية الحسن بن علي الكلبي بان يرد على الاعتداء باعتداء مضاعف. فأرسل الاسطول الفاطمي الى «المرية» وهي قاعدة اسطول الامويين... وهناك انزلت الجنود الفاطمية في المرفأ، ومنه زحفوا الى المدينة، حيث احرقوا كل ما تقع عليه اعينهم، ثم عادوا الى المرفأ واحرقوا المراكب، والخزائن، والمستودعات، والذخائر، حتى اضطر اهل المدينة الى الهرب.

وذكر التاريخ:

ان الامويين لم يقاوموا، وعجزوا عن التصدي لرجال الاسطول الفاطمي، وكان لعنصر المفاجأة النصيب الاكبر... وكل هذا جعل الامويين بعد هذه المعركة يبادرون الى عقد معاهدة مع الروم كان من بنودها اشتراك الاسطولين الرومي والاموي في دوريات مشتركة للوقوف

بوجه التحركات البحرية الفاطمية.

وقد صوَّر القاضي النعمان بن حيُّون في كتابه المجالس والمسايرات هذا التحالف بقوله:

« وأقبل اسطول الروم، فلقي اسطول امير المؤمنين دون صقلية، ففتح الله لوليه على الروم فهزمهم في البحر، وقتل منهم خلقاً عظيماً، وولوا هاربين بين يدي اسطوله، ولكنه تبعهم، فلقوه في البحر فهزمهم ايضاً، فنزل عسكر البر بأرضهم، فأنكى بالقتل فيهم، وأحرق مدائنهم، وخرَّب كنائسهم... وهنا ارسل ملك الروم الى امير المؤمنين المعز لدين الله يطلب الصلح، وأرسل اموالاً عظيمة، وهدايا جليلة، ورغب في التوقف عمن بقي من الروم بارض « قلوريا » على ما قطعه على نفسه، يؤديه عنهم، مع طلبه الهدنة.

وقد اوضح النعمان:

ان الناصر الاموي حينما رأى هزيمة الروم، وما حلَّ بهم من نكبات... دسَّ رسولاً من قبله، وكتب على لسان بعض رجاله الى بعض رجال امير المؤمنين المعز لدين الله في الموادعة والصلح، وكف الحرب. فكان رد المعز لدين الله غاية في الروعة، والثقة بالنفس.. فقد قال للرسول:

ان الناصر استعان علينا بالروم المسيحيين. وأضاف:

ان اتخاذ الناصر لقب امير المؤمنين هو تعدٍ على حقنا، فنحن اهل ذلك دونه، ودون من سواه نرى ان الله فرض علينا محاربة من انتحل ذلك وادعاه.

ما انا بالمداهن في دين الله، والا بالراكن بالمودة الى اعداء الله، ولا بالمخادع في امر من امور الله عز وجل... ارجع بجوابي هذا اليه، فما له عندي سواه.

ويظهر ان الناصر الاموي استمر بارسال الرسائل، والوسائط، وكان

يرمي من وراء ذلك تخدير الاعصاب حتى يعد العدة للقتال، ولكن المعز لدين الله ادرك ذلك. وقال:

« انّما اراد هذا الفاسق ان يقطع الزمان بهذه المراسلة ».

ومهما يكن من امر... فان الفاطميين لم يدخلوا في حسابهم محاربة الامويين في الاندلس كما قلنا، لأن خطتهم كانت ترمي الى احتلال مصر والنفاد الى الشرق حيث بغداد... ولهذا ظلّ الأمويون بمنجاة منهم، وأكملوا مسيرتهم في الاندلس.

المعز لدين الله وجزيرة كريت:

جزيرة كريت او « اقريطش » تشكل مركزاً استراتيجياً حساساً في البحر الابيض المتوسط، وفي عهد الدولة العباسية الاولى كانت تابعة لبغداد، ومتصلة ادارياً بمصر.

وغير خافٍ ان اكثرية سكانها كانوا من الربضيين الاندلسيين الذين ثاروا على « الحكم بن هشام الاموي »سنة ٢٠٤ هـ، وحاصروه في قصره بقرطبة، ولكنه انتصر عليهم فيما بعد في واقعة « الربض » المشهورة، وقتل منهم عدداً كبيراً، كما اجلى البقية الباقية منهم عن الاندلس، فقصدوا مدينة فاس بالمغرب الاقصى، ثم قصد الآخرون مدينة الاسكندرية.

ويظهر انهم كانوا يميلون بطبيعتهم الى الشغب، واحداث الفتن، في كل مكان تطأه اقدامهم، فأخذوا يقومون في الاسكندرية باعمال تسيء الى الاهلين، وفي عهد ولاية عبد الله بن طاهر سنة ٢١١ - سنة ٢١٣ هـ. قاموا بثورتهم، واعتصموا بالمدينة،وطردوا سكانها الاصليين منها، ثم ولوا عليهم احد زعمائهم المسمّى « حفص بن عمر بن شعيب البلوطي »، ولكن والي مصر استطاع اخيراً ان يلحق بهم الهزيمة ويجليهم عن الاسكندرية، فذهبوا الى جزيرة كريت وأقاموا فيها، وقد ظلوا فيها زهاء قرن ونصف في امن وسلام اي حتى منتصف القرن الرابع هجري.

وفي هذه الفترة تعرضوا لغزوات الروم الطامعين بالجزيرة، فطلبوا النجدة من العباسيين ثم من الاخشيديين في مصر، وبعد ذلك من سيف الدولة الحمداني، فلم يجبهم احد من هؤلاء. واخيراً:

ولوا وجوههم شطر المنصورية يطلبون من المعز لدين الله مساعدتهم... فاستمع اليهم، وعطف على مطالبهم... وبالفعل اتصل بالاخشيديين في مصر، وطلب اليهم التعاون في سبيل نصرتهم، وانقاذهم، كما اتصل بالروم وحذرهم من مغبة هذه الاعمال المنكرة.

ومن الامور البارزة في تلك الفترة، ان المعز لدين الله كان في موقف القوة، فقد تمكن من الحاق الهزائم المتلاحقة بالروم، كما قضى على كل آمال الامويين، واحبط مساعيهم، ومخططاتهم... ولكن مهاجمة الروم باساطيلهم لجزيرة كريت اقضت مضجعه، فبادر الى نقض الهدنة معهم، ووقف في وجه مطامعهم، موقفاً املاه عليه غيرته على المسلمين.

ومهما يكن من امر... فان المعز لدين الله ارسل في تلك الفترة رسالتين: الاولى الى الاخشيديين في مصر، والثانية الى الروم... وكل ذلك في سبيل كريت. والحقيقة:

فان المعز لدين الله كان يطمع بضمها الى دولته، لانها برأيه تعتبر مفتاح مصر، والقسطنطينية، وان يجعلها قاعدة بحرية لاساطيله، مضافاً الى ذلك ما كان يعلمه عن المعادن الموجودة فيها، وكل هذا جعله يوجه اللوم للوفد الكريتي الذي زاره على اعتبار انهم لم يتصلوا به قبل الآن.

اجل... لقد كان المعز لدين الله يجد في الاستيلاء على كريت ما يحقق له النفاذ الى الشرق، والى البلاد الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط. وكل هذا يعرفه الالمان والايطاليين حينما حاولوا احتلال جزيرة كريت في الحرب العالمية الثانية.

لقد كان في ذلك العهد على رأس الاخشيديين الحاكمين في مصر

« كافور » ففي ايامه كانت كريت مستودعاً لتموين مصر، حتى ان سفن هذه الجزيرة، ومراكبها كانت تذهب الى مصر محملة بخيرات هذه الجزيرة وغيرها من البلدان الاخرى. ومع ذلك فان كافور لم يحرك ساكناً، سوى انه ارسل بعض مراكبه الى عرض البحر لعرض العضلات فقط.

ويقول المعز لدين الله لابي الحسن علي الاخشيدي:

« لا تخشى على مراكبك منَّا، فلك علينا عهد الله وميثاقه، انا لا نكون معهم الاَّ لسبيل الخير، وانَّا نحلهم محل رجالنا، ونجعل ايديهم مع ايدينا، ونشركهم فيما افاء الله علينا، ونقيمهم في ذلك، وغيره مقام رجالنا، ومراكبك مقام اساطيلنا، حتى يفتح لنا ان شاء الله، ثم ينصرفوا اليك ».

وكان المعز لدين الله قد وضع خطة العمل المشتركة مع الاخشيديين، وهي تقضي بان يرسلوا بعض قطع اسطولهم الى برقة للانضمام الى الاسطول الفاطمي المقرر لحماية كريت.

امَّا بالنسبة للروم فقد كان انذار المعز لدين الله بالغ الشدة كقوله:

فأقريطش (اي كريت) وغيرها من جميع الارض لنا، بما خولنا الله منها، وأقامنا له فيها، اطاعنا من اطاعنا، وعصانا من عصانا، وليس بطاعتهم يجب ان نملك، ولا بعصيانهم يجب ان نترك.

وهكذا تظهر عبقرية المعز لدين الله السياسية، وتطلعاته، ومظاهر قوته في العالم الاسلامي... وهنا يجب ان لا يسهى عن بالنا بان الاخشيديين في مصر، كانوا يميلون الى الفاطميين، ويفضلونهم على العباسيين.

واخيراً:

فان المراجع التاريخية لم تمدنا باية معلومات عن تحركات فاطمية، او اخشيدية في مياه جزيرة كريت وكل ما عرفناه هو:

ان الربضيين استقروا في كريت مائة واربعين عاماً، ثم غزاهم الروم في عهد اوريانوس بن قسطنطين الثامن وذلك سنة ٣٥١ هـ. حدث هذا

في وقت كان المعز لدين الله لا يزال في المغرب يكافح في سبيل تثبيت دعائم ملكه في المغرب، وفي الواجهة الثانية كان في صدد تهيئة الحملة الكبرى لفتح مصر وبلاد الشام. ولعلَّ كل هذا حال دون احتلال كريت، وطرد الروم منها.

ومهما يكن من امر، فنرى من المفيد جداً نشر الكتابين المرسلين من المعز لدين الله الى ابي الحسن علي الاخشيدي والى امبراطور الروم، ففيهما حقائق تاريخية، وقد اعتبرهما اكثر من باحث بانهما من الوثائق المهمة.

قال المعز لدين الله:

ان الله سبحانه قد خوَّلنا من فضله، وأمدَّنا من معونته وتأييده بما نرى، بحوله وقوته، ونصره لنا، واظهارنا على عدونا... انَّا نكف ايدي الكفرة عمَّا تطاولت اليه من حرب هذا الصُقع والايقاع - باهله. وقد انتهى اليك انك اظهرت الحركة الى الجهاد، وامداد هؤلاء القوم بمراكب من قبلك.

وانت لعمري بذلك اجدر لقربهم منك، واتصالهم بك، وميرتهم بلدك، وكونهم واياك في دعوة واحدة. ولو اسلمناهم اليك، وقعدنا عنهم لما كان لك ولا لهم علينا حجة في ذلك ولكنَّا اثرنا نصرة امة جدنا محمد (ﷺ)، ولم نرَ التخلف عن ذلك. وقد رجونا له، والقوا بانفسهم الينا فيه، ونحن لا نحول بينك وبين الجهاد في سبيل الله، ولا نمنعك من تمام ما املت منه. فلا يكن ما يتصل بك من انفاذ اساطيلنا يثنيك عن الذي هممت به من ذلك، وان تخشى على من تبعث به، وعلى مراكبك منَّا. فلك علينا عهد الله وميثاقه، انا لا نكون معهم الاَّ بسبيل الخير، وانا نحلهم محل رجالنا، ونجعل ايديهم مع ايدينا، ونشركهم فيما افاء الله علينا، ونقيمهم في ذلك وغيره مقام رجالنا، ومراكبك مقام اساطيلنا حتى يفتح لنا ان شاء الله، ثم ينصرفوا اليك على ذلك، او يكون من امر الله وقضائه ما هو فاعله، فاعلم ذلك، وثق به منَّا، ففي ذلك تظافر المسلمين على عدوهم، واجتماع كلمتهم

واعزاز لدين الله، وكبت لاعدائه، فقد سهلنا لك السبيل، والله على ما نقول وكيل.

فان وثقت بذلك، ورأيت ايثار الجهاد، فأعمل على ان تنفذ مراكبك الى مرسى «طبنه» في ارض برقة، لقرب هذا المرسى من جزيرة اقريطش، ويكون اجتماعهم مع اساطيلنا بهذا المرسى في مستهل ربيع الآخر سنة ٣٥٠ هـ. بتوفيق الله، وقوته، وتأييده ونصره، وعونه، والاَّ تر ذلك، فقد ابلغنا في المعذرة اليك والنصيحة لك، وخرجنا ممّا علينا اليك.

ونحن بحول الله، وقوته، وتأييده، ونصره، وعونه مستغنون عنك، وعن غيرك، وعلى عزم وبصيرة في انفاذ اساطيلنا، ورجالنا، وعدتنا، وما خولنا الله اياه، وأقدرنا عليه، ممّا نرى اننا بحوله، وقوته نبلغ به ما نؤم اليه بذلك، ونعمد نحوه.

فبالله نستعين وعليه نتوكل، وعلى تأييده نعدل، وهو حسبنا ونعم الوكيل»

وقال القاضي النعمان بن حيُّون:

امر الامام المعز لدين الله، بكتابه هذا الى امبراطورية الدولة الرومانية الشرقية، وقد املاه على الكاتب بحضرتي بين يديه، بكلام ما سمعت اجزل ولا ابلغ منه.... فقال بعد ان خيَّره بين ان يقلع عن حرب اهل اقريطش، وبين ان ينبذ اليه عهده، كما نبذ رسول الله (ﷺ) الى مشركي العرب عهدهم، وارسل عليا ببراءة، فقرأها في الموسم عليهم، ولقول الله اصدق القائلين:

﴿واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم﴾

ثم قال له في كتابه:

ولا يرى ان دعوة اهل اقريطش قبل اليوم الى غيرنا، وقد انابوا اليوم الينا، واستغاثوا بنا، ممّا يوجب لك عندنا تمام الموادعة، بتركهم اليك،

وترك اعتراضك فيهم. ان امتناع اهل الباطل من اهل الحق ليس بمزيل حقهم، وان تغلبوا عليه دونهم، بل هو لهم بتبصير الله تعالى اياه اليهم.

فأقريطش وغيرها من جميع الارض لنا، بما خولنا الله منها، واقامنا له فيها، اطاعنا فيها من اطاعنا، وعصانا من عصى، وليس بطاعتهم يجب لنا ان نملك، ولا بعصيانهم يحق علينا ان نترك ولو كان ذلك، لكان الامر اليهم، لا لله تعالى الذي خولنا، ولا لنا، ان شاءوا اعطونا، وان احبوا منعونا. كلا... ان ذلك لله تعالى الذي له ما في السموات، وما في الارض. هو الذي اصطفانا وملكنا واعطانا ولو كان ذلك للحق، لما وسعنا قتال من امتنع منهم علينا، ولا رد ما انتزعوه بالغضب من ايدينا اذ قدرنا الله على ذلك، وبه قوانا.

فان قلت انت غير ذلك، وانت ترى ما في يديك لك، فقد كان رومانس قد تغلب عليك، وعلى ابيك من قبلك، ثم دارت لكما عليه الدائرة. فان رايت ان من احتجز شيئاً وتغلب عليه فهو له دون صاحب الحق الذي ملكه، فلم يكن لك، ولا لأبيك القيام على رومانس، ولا انتزاع ما صار اليه من بين يديه.

فهذه سبيل اهل الحق عندنا، فان اعترفت لها فقد انصفت، وان جهلتها، لم يكن جهلك اياها حجة على من عرفها.

وعهدك ان تماديت على حرب من اناب الينا منبوذ اليك. فانظر لنفسكَ، ولاهل ملتك، فأنّا مناجـزوك واياهم لحرب بعون الله لنا وتأييده، ولا حول ولا قوة الاّ باللّه.

«المعز لدين الله»

الفاطميون وصقلية:

عندما ارسى الفاطميون قواعد ملكهم في شمالي افريقيا، وجهوا اهتمامهم الى جزيرة «صقلية» وكان هدفهم نزع يد الروم عنها، وجعلها قاعدة لاسطولهم الكبير، ومنطلقاً للهجمات على الروم، وايقافهم عند حدودهم، ولكن طبيعة هذه الجزيرة، وتعدد الجنسيات التي تعيش على ارضها، واختلاف المناهج الحياتية كانت في اغلب الاحيان تهدد الامن، والاستقرار فيها.

وقد كنا ذكرنا ان هذه الجزيرة الكبرى، ذات الاهمية الحربية القصوى استأثرت باهتمام عبيد الله المهدي، منذ ان حطَّ الرحال في بلاد المغرب. وبعد ان ضمَّها لدولته الفاطمية سنَّ قانوناً خاصاً لها يقضي بان تبقى فيها حامية قوية تكون مهمتها منع اي اعتداء خارجي عليها، من جهة، والوقوف في وجه التحركات الداخلية والانتفاضات العنصرية، والدينية التي كانت تنبعث فيها من حين لآخر.

وفي عهد الخليفة الفاطمي الثاني القائم بامر الله ظلّت على ارتباطها بالدولة الفاطمية، وتمكّن القائم بامر الله من ان يطلق منها اسطوله اكثر من مرة الى الشواطىء الرومية لشن الهجمات، وتعكير صفو الدولة المعادية.

وعندما جاء المنصور بالله الى سدة الخلافة سنة ٣٣٦ هـ. عين عليها امير البحر «الحسن بن علي الكلبي» ومنحه صلاحيات كبرى، فاستطاع الكلبي ان يوقف التحركات الاموية، كما استطاع ان يهدد الروم. وان يلقي الرعب في قلوب اهالي الجزء الغربي من البحر الابيض المتوسط.

وقبل ان يتسلّم المعز لدين الله شؤون الخلافة - اي في اواخر عهد المنصور - حدثت في صقلية منازعات داخلية بين المسيحيين، والمسلمين، ممّا حدا بالمسيحيين الى اللجوء الى اباطرة الدولة البيزنطية، والطلب اليهم انقاذهم من حكم المسلمين، فاستجابوا لندائهم، وارسل الامبراطور قسطنطين الثامن جيوشه الى هذه الجزيرة، فاشتبك مع الحسن الكلبي بمعارك عديدة كان النصر في نهايتها حليف الكلبي الذي استولى على امهات مدن قلوريا، وجراجة، وصقلية، ومن الجدير بالذكر ان قائد الروم قد قتل في هذه المعارك، ممّا ارغم الامبراطور على طلب الصلح، مع تعهده بدفع جزية كبرى عن قلوريا للفاطميين، وقد تمكن الكلبي وقتئذٍ من اقامة المساجد في المدن الرومية، والوقوف بوجه التحركات البيزنطية الشرقية.

وعندما تسلّم المعز لدين الله شؤون الخلافة، نقض امبراطور الروم الهدنة ومعاهدة الصلح، وقد شجعه على ذلك الانتصارات التي حققها على العباسيين، والحمدانيين في المشرق، ولهذا ارسل سنة ٣٤٥ هـ. حملة بحرية كبرى الى صقلية، وركز هجومه للاستيلاء على بالرمو التي كانت موالية للمسلمين - ففتحها بعد حصار طويل شاق، ثم اخذت انتصارات الروم تتوالى حتى وصل بهم الامر الى حد ارسال جيوشهم الى صقلية حيث استولوا على «ترميني» غير ان هذا الانتصار لم يدم طويلاً، لان الحسن الكلبي كان على رأس جيش كامل العدة والاستعداد، واخوه عمّار على رأس جيش آخر في قلوريا الاّ ان الحسن كان اكثر انطلاقاً وجرأة وتوفيقا فقد تمكن من ازاحة الخطر عن ترميني بسرعة بينما اخوه عمّار كان عرضة الى المطاردة من مكان الى آخر من قبل الروم ولم ينقذه من هذا الوضع الاّ انضمام اخيه الحسن اليه سنة ٣٤٧ هـ. فقد استطاع عبور خليج مسيني بين صقلية، وقلوريا والانضمام الى جيش اخيه عمّار، ثم انطلقا معاً يغزوان مدن قلوريا الواحدة بعد الاخرى، وامدادات المعز لدين الله تتوالى عليهما، حتى اضطرّ الامبراطور البيزنطي الى ارسال موفداً

عنه يطلب هدنة جديدة، ويدخل في بنودها دفع الجزية الى الفاطميين من قبل اهالي قلوريا.

الى هنا... وتنتهي المرحلة الاولى من حروب المعز لدين الله مع الروم في صقلية... على ان الامبراطور قسطنطين لم ينم على الثأر، فاتفق مع عبد الرحمن الناصري الاموي على محاربة الفاطميين في صقلية، ومهاجمة افريقيا من الشرق، بينما يهاجمها الناصر الاموي من الغرب... ولكن المعز لدين الله استطاع احباط هذه الخطة، وتمكن من احراز الانتصارات الساحقة على الروم في البحر الابيض المتوسط، وهكذا بالنسبة للامويين، ممّا اضطر الامبراطور اخيراً الى طلب الصلح لمدة خمسة اعوام.

لقد اشاد التاريخ العربي والاسلامي بالانتصارات التي حققها الحسن الكلبي على الروم، تلك الانتصارات التي تحققت باستيلائه سنة ٣٥١ هـ على قلعة «طبرمين» وتعتبر من امنع قلاع صقلية. ويذكر التاريخ ان الكلبي طرد اهلها منها، وأسكن فيها المسلمين وسمّاها «المعزّية»، وبعد هذا اخذت المدن الاخرى تفتح ابوابها له الاّ مدينة «روطة» التي وقفت بعناد، ثم طلبت اخيراً من الامبراطور «نقفور فوكاس» ان ينجدها من خطر الفاطميين. فأعدّ جيشاً ضخماً قدر بخمسين الفاً، وزوّده بالمؤن والذخيرة، وعقد عليه للقائد «مانويل» وهو من اقربائه. ويذكر التاريخ: انه لم يسبق لصقلية ان دخلها جيش بهذه القوة.

أمّا احمد بن الحسن الكلبي، فأعدّ اسطوله اعداداً كاملاً، ووزع جيوشه البرية على موانىء صقلية الشمالية والشرقية بعد وصول الامدادات من المعز لدين الله... وقسّم الحسن وابنه احمد الجيوش الى فرقتين: فرقة جعل عليها «الحسن بن عمّار الكلبي» وفرقة وهي الاكثر عدداً جعل عليها «احمد ابن الحسن الكلبي» وقد رابطت في بالرمو.

وذكر التاريخ:

ان الامدادات الفاطمية وصلت من المهدية الى صقلية قبل وصول

الروم... ولكن الروم بالرغم من كل هذه الاستعدادات، والتنظيات فانهم تمكنوا من الاستيلاء على مسينا التي تبعد تسعة اميال عن رمطة، كما استولوا بعد ذلك على ترميني وغيرها، وقطعوا بين الامدادات الفاطمية، وبين الحسن بن عمّار الذي كان يحاصر رمطة، ثم انهم اندفعوا الى فك الحصار عن هذه المدينة، ولمّا علم احمد بن الحسن بهذا الخطر اتجه من بالرمو الى رمطة لانقاذ ابن عمه الحسن بن عمّار، ولكنه لم يستطع ان يسبق الروم اليها، واشتغل باسترداد ترميني.

لم يعبأ الحسن بن عمّار بكثرة عدد جيوش الروم، ولم ترهبه قوتهم، بل ظلّ صامداً، فقسّم جيشه الصغير الى اربعة فرق: جعل فرقة منها على حصار رمطة، ليحول بينهم وبين الاتصال بالجيش البيزنطي المهاجم، ووضع فرقتين على رأس الواديين اللذين يوصلان الى المدينة، وكان العدو يستطيع التسلل منهما اليها، واتجه هو على رأس البقية الباقية من جنده لمقابلة جيوش مانويل الرئيسية، وعندما ادرك ابن عمّار انه وجيشه دون العدو عدداً استماتوا في القتال، وتعاقدوا فيما بينهم على ان يموتوا كراماً... والتحم القتال، وعظم الامر على المسلمين، والحقهم العدو بخيامهم، وأيقن الروم بالظفر... فلمّا رأى المسلمون عظم ما نزل بهم اختاروا الموت، ورأوا انه اسلم لهم من حياة الذل، فثبتوا من جديد، واندفعوا نحوهم على الرغم من قلة عددهم... وكانت مفاجأة للروم، واخذ الهلع يدب الى نفوسهم، بعدما رأوا صفوفهم تتمزق، ورؤوس قوادهم تتدحرج.

واخيراً:

ادرك مانويل حرج مركزه فتقدم الصفوف، وجعل يثير الحماسة، ويحذر جيشه من الهزيمة.. ولكن الحسن بن عمّار قابل ذلك باندفاع جديد محكماً سيفه بالرقاب، ثم احاط بمانويل، وتمكن من عقر فرسه ثم قتله... وكانت هذه بداية الظفر، فقد عزّ عليهم وقوع قائدهم مجندلاً بالساحة. ممّا جعلهم يولون الادبار، وتشاء الاقدار ان تعيقهم العواصف، والامطار عن

الهرب، فوقع سوادهم في الاسر، وقتل جماعة من البطارقة، وامتلأت ايدي المسلمين من الغنائم والاسرى.

ويقول ابن الاثير عن هذه المعركة:

«انهزم الروم اقبح هزيمة، واكثر المسلمون فيهم القتل، ووصل المنهزمون الى جرف خندق عظيم كالحفرة، فسقطوا فيه من خوف السيف، فقتل بعضهم بعضاً حتى امتلأت، وكانت الحرب من بكرة الصباح حتى العصر، وقد غنم المسلمون السلاح، والخيل، والأموال، وكان في جملة الغنائم «سيف هندي» مكتوب عليه:

«هذا سيف هندي وزنه مائة وسبعون مثقالاً» طالما ضرب به بين يدي رسول (ﷺ) فأرسل الى المعز لدين الله مع الاسرى ورؤوس القواد».

بعد هذه الانتصارات التاريخية الرائعة.. اخذت المدن الثائرة تستسلم الواحدة اثر الاخرى.... امَّا اهل رمطة فلم يلقوا سلاحهم، واستمروا بالمقاومة، الى ان تسلق المسلمون الاسوار، واقتحموا المدينة واستولوا عليها عنوة.

ونعود الى احمد بن الحسن بن عمّار، فانه ما كاد يعلم بهزيمة الروم حتى اندفع نحو مسينا ليقطع على فلولهم خط الرجعة، ولكنه علم انهم هربوا الى جزيرة ريجيو، وكان هدفهم التسطنطينية، فلحق بهم، وانتصر عليهم في موقعه عرفت بموقعة «المجاز» وهي لا تقل خطراً عن موقعة رمطة، فقد زحف اليهم احمد بن الحسن في الماء، وقاتلهم، واشتد القتال حتى القى جماعة من المسلمين بانفسهم في المياه، وخرقوا العديد من مراكب الروم، واغرقوها، وقتل الكثير منهم، وانهزم من بقي لا يلوي على شيء، واخيراً اسر قائدهم، وهو ثاني اثنين من قواد هذه الحملة، وارسل الى المنصورية.

على اثر هذه المعارك الكبيرة، ساد الخوف اهالي قلوريا، فبادروا الى عقد الهدنة مع احمد بن الحسن الكلبي، وقد كان لهذه الانتصارات المتتالية

الحاسمة وقعها في نفوس المسلمين في جميع اقطارهم، لذلك اقيمت الافراح، والمهرجانات في كل مكان من ارجاء الدولة الفاطمية، وذكر أن نشوة الفرح اثرت بالحسن بن الكلبي الأب فخرَّ صريعاً وذلك سنة ٣٥٤ هـ .

عند هذا الحد توقف الروم عن اطماعهم، وادركوا بان الفاطميين غير العباسيين، والحمدانيين، وان لا سبيل الى دحرهم في ميدان الحروب، فأخذوا يتقربون منهم، ويعلنون خضوعهم لهم، وهذا ما ساعد المعز لدين الله على تعبئة جميع قواته البرية والبحرية، واعدادها لغزو المشرق.

ومهما يكن من امر... فقد تقلَّد شؤون صقلية في عهد المعز لدين الله اربعة من الولاة اولهم: الحسن بن احمد الكلبي الذي عينه المنصور بالله، ومن المعلوم ان المعز لدين الله اقره في منصبه، وبعد فترة استدعاه الى المنصورية، وولاه منصباً كبيراً، وأناب عنه ولده احمد، كما اشرك مع هذا الاخير ابن عمه الحسن بن عمَّار «بطل معركة رمطة»

ويظهر ان المخاوف ساورت المعز لدين الله من ان تستبد الاسرة الكلبية بالجزيرة، وتعلن استقلالها وانفصالها... وقد برز هذا جليّاً عندما ولّى المعز لدين الله «يعيش» سنة ٣٥٨ هـ. مكان احمد بن الحسن الكلبي بعد ان استدعاه، وسائر افراد اسرته الى المنصورية، وقد برَّر المعز لدين الله هذا التدبير بقوله: انه بحاجة الى هؤلاء الابطال للمشاركة بفتح الديار المصرية، ولكن يعيش هذا لم يستطع الاستمرار بحكم صقلية وخاصة بعد ان انفجر القتال بين كتامة، والقبائل الاخرى، وبعد ان عمَّت الاضطرابات، وتفاقمت الحروب الاهلية... وهنا ادرك المعز لدين الله بانه لا بد من اعادة احمد بن الحسن الى الجزيرة. فعاد مزوداً بالصلاحيات الكافية فبالاضافة الى الولاية على صقلية منح رتبة امارة الاسطول، كما اناب عنه اخاه ابا القاسم بن الحسن، وأبقى محمد بن الحسن في المنصورية حيث عهد اليه بمنصب رفيع.

وممّا تجدر الاشارة اليه أن أبا القاسم ظلَّ في صقلبة حتى سنة ٣٧٢ هـ. اي حتى خلافة العزيز بالله الفاطمي.

وقبل ان نختم الحديث عن هذه الاسرة نقول:

بانها ظلّت على ولائها للدولة الفاطمية، فلم يسمع، او يذكر ان احداً منها خرج على طاعة الفاطميين، او فكّر بثورة، او انتفاضة، بالرغم من ان نفوذها، وقوتها، وعصبيتها وصلت في صقلية الى درجة ان اكثر المؤرخين اطلقوا عليهم اسم «ملوك صقلية».

من جهة اخرى فاننا نرى الفاطميين يقدرون لهم خدماتهم، ويولون العديد منهم المناصب الرفيعة في مصر، وفي المغرب.

بين المشرق والمغرب:

بعد الانتصارات الرائعة التي حققتها قوات الفاطميين في صقلية، وعلى شواطىء، ومرافىء بلاد الروم... وبعد رضوخ المغرب الأوسط، والادنى، والأقصى بكافة اجزائهم، واستقرار الامور في تلك الربوع، اخذ المعز لدين الله يفكر بالمشرق.... بمصر، ببلاد الشام. وكانت الاخبار تأتي اليه مصدقة عن تردي الاوضاع في الدولة العباسية وعن حالة من الفوضى تسود البلاد العباسية عامة، ممّا يجعلها عاجزة عن صد اية تحركات عسكرية، او هجمات تشن من قبل المتربصين والمغيرين. فالدولة العباسية كانت في تلك الآونة تعاني من الوهن، والشيخوخة، ومن تدخل العناصر الغريبة في شؤونها، وخاصة الاتراك الذين اصبحوا هم الحكام الاصليين. امّا الخلفاء العباسيون فكان حالهم كما قال الشاعر:

خليفـــــة في قفـــــصٍ بين وصيـــــفٍ وبغـــــا
يقـــول مـــا قـــالا لـــــه كما تقـــول الببغـــــا

ففي تلك الفترة قام صاحب الزنج في اقليم البصرة، وجنوبي فارس الغربي معلناً ثورته المشهورة، كما قام القرامطة بثورتهم الدموية، فألحقوا الذعر في بلاد الشام، وباديتها، وحدود العراق، ثم هاجموا بغداد في نهاية المطاف، وكادت العاصمة الكبرى تسقط في ايدي ابي الطاهر الجنّابي القرمطي سنة ٣١٥ هـ، كما استطاع علي بن الفضل وابن حوشب داعيا الفاطميين ان يخرجا اليمن عن طاعة العباسيين.

كل هذا ويجب ان لا ننسى قيام دويلات مستقلة في ارجاء الدولة العباسية.... كالدولة الصفّارية، والسامانية اللتان استطاعتا انتزاع جزء كبير من اراضي الدولة في اقصى المشرق. كما يجب ان لا ننسى الطولونية، والاخشيدية، وانتزاعهما مصر والشام... وتأتي الدولة الفاطمية في نهاية المطاف لتنتزع المغرب او كافة شمالي افريقيا. امّا الحمدانيين فقد شاركوا العباسيين حكمهم، وخاصة في الموصل، وحلب، وأهم من كل ما ذكرناه استبداد بنو بويه بالسلطة، لدرجة ان امور الدولة صارت خاضعة لهم، حتى ان تنصيب الخليفة، وعزله كان في ايديهم. وقد وصف احد المؤرخين اوضاع العباسيين بقوله:

لم تكن حالة الضعف التي وصلت اليها الخلافة العباسية راجعة الى السياسة فحسب بل تعدتها الى الدين ايضاً، فقد ظهرت في بغداد مذاهب دينية كان اهمها: انصار ابن حنبل وغيرهم... وكل هؤلاء روجوا، وأساءوا بالعباسيين الظنون، وعابوا عليهم استرسالهم بالملذات، وشرب الخمر، والاستهانة بالدين، وقواعده.

وفي الواقع:

فان هناك خطراً كان اكثر، واشد خطورة من كل ما ذكرناه، واعني به خطر البيزنطيين الذين توغلوا في قلب البلاد العباسية، وتمكنوا من الاستيلاء على حلب سنة ٣٥١ هـ، وعلى المصيصة، وطرسوس، وانطاكية، ثم الرها، وديار ـ بكر، وميافارقين، ونصيبين.

فهذه الاوضاع وضعها المعز لدين الله امام عينيه، وكان دعاته المنتشرين في كل مكان يوافونه بصورة منتظمة بتقاريرهم الشاملة.

امَّا مصر فكان الضعف، وسوء الاحوال العامة، قد اخذا يحلان في ارجائها وذلك منذ وفاة الاخشيد سنة ٣٣٤ هـ، وخاصة حينما قام كافور واستبدَّ بالحكم، وبالرغم من انه قضى على الانتفاضات الداخلية وانتصر على الحمدانيين في الشام، فان كل هذا لم يوطد الامن في بلاده، ولم يؤمن الهدوء والاستقرار.

اجل... استقل كافور بحكم مصر سنة ٣٥٥ هـ. وفي اواخر عهده انقسمت جيوشه الى فريقين، فريق الاخشيدية الذي يناصر بيت الاخشيد الاصيل، والفريق الكافوري الذي انحاز اليه. ويذكر التاريخ:

ان المعز لدين الله ارسل من المغرب في تلك الفترة جيشاً قيل انه جيش طليعة، فوصل الى الواحات ولكن كافور اخرجهم، وردهم على اعقابهم.

وطمع القرامطة في بلاد الشام، فهاجموها مرتين اي سنة ٣٥٣ و سنة ٣٥٧ هـ، وقد ادرك كافور قبل موته ما اصاب بلاده من نكبات، ولم يستطع مكافحة الغلاء، وايقاف الامراض، والأوبئة التي كانت تحصد الناس وترمي بهم في الازقة دون ان يستطيع احد تكفينهم ومواراتهم، وذكر ان الجنود تنكروا للحكم القائم بعد ان اعلن عن عجزه عن دفع مرتباتهم... وتزداد الامور سوءاً عندما غزا امراء النوبة مصر الجنوبية، واشرفوا على اخميم.

وبعد وفاة كافور اضطربت الاحوال السياسية، فلم يستطع الخليفة العباسي ان يولي على مصر من يشاء لذلك اجتمع رجال البلاط الاخشيديين واختاروا احمد بن علي الاخشيدي «ابو الفوارس» وكان له من العمر احد عشر عاماً، وجعلوا ولاية العهد وقفاً على الحسن بن عبيد الله بن طفج، غير ان هذا الاخير لم يبق في مصر طويلاً فعاد الى الشام، وقبض على

الوزير جعفر بن الفرات، وترك مصر تنعي اهلها، وترزح تحت المصائب والاهوال، وعندما عاد ابن الفرات، وتسلّم ادارة البلاد لم يستطع ضبط الامور، وظلت الفوضى ضاربة اطنابها في كل مكان.

هذه الصورة، وهذا الواقع عرفه المعز لدين الله، وله في ذلك قول مشهور:

« والله لو خرج جوهر الصقلي هذا وحده لفتح مصر، وليدخلن مصر بالاردية من غير حرب، ولينزلن في خرابات ابن طولون، ويبني مدينة تسمّى القاهرة ـ تقهر بني العباس.

وقد اورد المؤرخ المقريزي هذه القصة التي تعطي الدلائل على تردي الأوضاع والفساد الاجتماعي، والاخلاقي في مصر... قال:

وجهت ام الامراء « زوجة المعز لدين الله » من المغرب صبية ربتها، لتباع في مصر، فطلب الوكيل فيها الف دينار، فجاءت امرأة شابة على حمار، فلم تزل بها حتى اشترتها بستمائه دينار وقيل للوكيل: يا مغربي... هذه بنت الاخشيد اشترت الجارية لكي تتمتع بها... فلمّا عاد الوكيل الى المغرب اخبر المعز لدين الله بالقصة... فأمر باحضار كبار رجال الدولة، وحدثهم بخبر الجارية وقال:

يا اخواننا... انهضوا اليهم، فلن يحول بينكم، وبينهم شيء، وإذا كان القوم قد بلغ بهم الترف الى ان صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرح، وتشتري الجواري لتتمتع بهنَّ، فقد ضعفت نفوس رجالهم، وذهبت الغيرة والرجولة منهم... فانهضوا اليهم... فقالوا:

السمع، والطاعة.....

وعلى العموم... فان اهل مصر منذ فجر الاسلام لم يكونوا يبغضون المذاهب الشيعية، بل كانوا في سرهم يؤيدونها، ورغبوا بعد ذلك في ان

يحكمهم الفاطميون ابناء علي وفاطمة... فهم بنظرهم اصلح واكرم من العباسيين.

الدعاة والفتوحات:

اعتمد الفاطميون في فتوحاتهم للبلدان، وحروبهم على الدعاية المنظمة... ففي اليمن، والعراق، والبحرين، وفارس، وخراسان... كان دعاتهم يقدمون الخدمات، ويحققون الانتصارات، ويتغلبون في مناقشاتهم على العلماء الآخرين، ويبرزون في مجال العلم كأساطين للفكر لا يشق لهم غبار.

والحقيقة

فهؤلاء الدعاة كان لهم مواقف في مجال الدعاية، تفوق مواقف القواد في ساحات الحرب. وقد ذكر:

انه في عهود عبيد الله المهدي، والقائم بامر الله، والمنصور بالله كان الدعاة يرتدون ثياب الجنود، ويندمجون في الصفوف، ثم يتقدمون الجيوش المحاربة، للاختلاط باعدائهم، وافساد خططهم الحربية.

وكانت مصر قبل الفتح الفاطمي تعج بهؤلاء الدعاة، الذين لجأوا اليها لبث الدعاية، وتأليف جماعات تؤيدهم، وتدين بمذهبهم، حتى توصلوا الى حد الدخول في حرم الاخشيديين، واستقطاب جماعات كبيرة منهم. فقد علم ان القائم بامر الله اتصل بمحمد بن طغج الاخشيد غير مرة عن طريق الدعاة وحاول جذبه اليه، ودفعه الى الانتفاض على العباسيين، وقد تجلّى كل ذلك عندما ارسل الخليفة العباسي الراضي قائده ابن رائق ليستولي على مصر وينزع ايدي الاخشيديين منها بعدما علم بميوله للفاطميين، وهذا ما جعل محمد بن طغج يبطل خطبة العباسيين، ويستعيض عنهم بالفاطميين... ولكن هذا لم يستمر طويلاً، لان اعوانه نصحوه بالاقلاع عن هذه السياسة الوخيمة العواقب.

وذكر:

ان الاخشيد عرض على القائم بامر الله تزويج ابنته من ابنه المنصور بالله... وكل هذا يدل على ان مصر كانت تتوجه تلقائياً للدخول تحت المظلة الفاطمية، وهذه الرغبة كانت تتزايد يوماً بعد يوم... وذكر ايضاً بان المعز لدين الله قال لرسول الامبراطور البيزنطي في مصر:

اتذكر اذ اتيتني رسولاً وانا بالمهدية... فقلت لك لتدخلن، عليَّ وانا بمصر مالكاً لها، وانا اقول لك الآن:

«لتدخلن عليَّ بغداد وأنا خليفة فيها»

اجل... كان المعز لدين الله يختار للبلاد الاسلامية دعاة من العلماء الاذكياء، وكان اذا وجد داعياً متخلفاً عزله، وولّى غيره، وقد رسم لهؤلاء الدعاة خطة كانوا يسيرون عليها في تلقين مبادئهم، فيسير معهم في خطى متئدة حتى لا تضيع البذور في ارض سبخة فلا ينحرف عن السبيل، او ينعكس عن القصد، فتصاب الدعوة بالخيبة والخذلان... وكانت تلك التعاليم زاخرة بالنصائح التي توجب على هؤلاء السير على هديها في تلقين المذهب، ولكي يكونوا من الفراسة بحيث يستطيعون ان يميزوا بين المستجيبين، ويلقنوا كل واحد منهم بمقدار استعداده، وكان لهم في البلاد التي يذهبون اليها دعاة قبلهم، قد استفادوا من التجارب والاوضاع السائدة وعرفوا كل شيء.... وكل هذا كان من العوامل التي سهلت فتح مصر والشام، ومهدت السبيل للانتصارات الحاسمة.

القائد المظفَّر:

ذكر التاريخ:

ان القائد جوهر الصقلي، مرض مرضاً شديداً بعد عودته من المغرب الاقصى، فحزن المعز لدين الله عليه حزناً بالغاً، وعاده بنفسه... وهذا شرف لا يناله الاَّ المقربون فلمّا عاد من زيارته قال:

جوهر لا يموت، وستفتح مصر على يديه.... وقد تحققت نبوءة المعز لدين الله فشفى جوهر، وتمّ فتح مصر على يديه... وخفقت راياته في سمائها.

لقد خرج المعز لدين الله، وكبار رجال الدولة الى وداع قائده جوهر قبل ان ينطلق باتجاه المشرق، وأضفى عليه هالة من التقدير والاحترام حينما امر اخوته، وابناء عمه، وأولاده وولي عهده بالترجل بين يديه، والسير في خدمته وهو راكب... كما كتب الى سائر عماله يأمرهم ان يترجلوا مشاة في خدمته، فلمّا وصل الى برقة افتدى عاملها عن ترجله، ومشية في ركابه بخمسين الف دينار ذهب، فأبى جوهر الاّ ان ينفذ وصية امير المؤمنين.

وسارت الحملة من بلاد المغرب في الرابع عشر من ربيع الثاني سنة ٣٥٨ هـ... كما سارت قبلها جيوش نابليون سنة ١٧٩٨ م، وجيش فريزر البريطاني سنة ١٨٠٧ م، وجيش ولسلي سنة ١٨٨٢ م، وجيش رومل الالماني في الحرب العالمية الثانية.

وكانت الجيوش الفاطمية منظمة تنظيماً دقيقاً، ومزودة بالاموال، والرجال، والعتاد، والمؤن..... وذكر ان المعز لدين الله انفق على اعداد هذا الجيش اربعة وعشرين مليون دينار عدا حمولة الف جمل من الذهب خصصت للانفاق على الحملة... وذكر ايضاً ان عدد الجيش الفاطمي الذي توجه الى مصر كان مئة وخمسين الفاً، ومن الخيول ما يزيد على ذلك، فضلاً عن الجيش البحري الذي اتجه من المهدية، وصقلية على ظهر سفن الاسطول باتجاه الاسكندرية، وقد وصف هذا الجيش احد المصريين بقوله:

انه جمع مثل عرفات كثرة وعدة، ومن الجدير بالذكر ان جوهر كان قبل عام قد فتح في الصحاري والواحات ابار، وانتظر عليها حتى امتلأت بمياه الامطار، كما انه اقام الاستراحات والخيام وزودها في كل ما يمكن ان يوفر للجيش الزاحف المؤن والمياه.

ويجب ان نذكر: ان احدى الصحف الالمانية كتبت فصلاً عن القائد

روميل ابان الحرب العالمية الثانية فقالت:

انه في زحفه الى ليبيا، والاسكندرية يتبع خط القائد الفاطمي جوهر الصقلي... ومهما يكن من امر فقد اورد النعمان بأن المعز لدين الله حينما ودع جوهر منحه كل ما كان عليه من الثياب الاّ خاتمه، وقد حضر حفلة الوداع تلك الشاعر ابن هانىء الاندلسي فقال:

رأيتُ بعيني فوق ما كنت اسمعُ	وقد راعني يوم من الحشر اروعُ
غداة كأنّ الأفق سُدَّ بمثله	فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم ادر اذ ودعت كيف اودع	ولم ادر اذ شيعت كيف اشيع
فلا عسكر من قبل عسكر جوهر	تخبُّ المطايا فيه عشراً وتخضع
اذا حلَّ في ارضٍ بناها مدائناً	وان غاب عن ارضٍ ثوت وهي بلقع

وصل جوهر الى الاسكندرية، فلم يجد فيها مقاومة تذكر، وادرك ان اهاليها اصحاب نيات طيبة، وانهم ليسوا بصدد المقاومة او المعارضة... ولهذا اذاع امراً يومياً على الجيش:

بعدم التعرض للاهلين، وتحريم دخول المنازل دون اذن، او السرقة، او النهب، او الاعتداء على اي كان.... وفي هذا تتجلّى عظمة جوهر، وبعد نظره، وسياسته الحكيمة... كما اعطى البرهان على انه القائد الذي يعرف كيف يسوس جنوده، ويمنع تصرفاتهم... من جهة اخرى فكان من خططه اغداق الاموال على جنوده وذلك ليحول دون تطلعهم الى اموال احد، وليجعلهم في غنى عن اقتراف اية مخالفة.

وعندما سمع المسؤولون في مصر، وعلى رأسهم الوزير جعفر بن الفرات، اجتمعوا وقرروا المفاوضة والاذعان للامر الواقع، لان لا قبل لهم على التصدي لهذا الجيش الكبير، وكان ان اختاروا جعفر بن الفرات وبعض الاشراف العلويين، وآخرين من ذوي المكانة، للذهاب والمفاوضة

مع جوهر بشأن الصلح. فخرج الوفد من الفسطاط في ١٨ رجب سنة ٣٥٨ هـ والتقوا مع القائد جوهر في «تروجة» القريبة من الاسكندرية فخرج جوهر للقائهم مرحباً، وتداول معهم في شؤون مصر.. وتلقى التماسهم القاضي: بالتأمين على انفسهم وأموالهم، وبلادهم، ثم تقدموا من جوهر بالمطالب التالية:

اولاً - اعتراف من القائد العام، وعهد يقطعه على نفسه بان يؤمن جميع المصريين جنوداً ومدنيين - مسلمين، ومسيحيين على انفسهم وأموالهم وبلادهم.

فأجابهم بالموافقة، وانه ما جاء الاَّ لينشر السلام والطمأنينة بين الناس كافة، ويطبق العدل والحرية وعلى الاثر اذاع هذا البيان على المصريين:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من جوهر الكاتب عند امير المؤمنين - المعز لدين الله - صلوات الله عليه....

الى

اهل مصر الساكنين بها من اهلها، ومن غيرهم

انه ورد من سألتموه الترسل، والاجتماع معي... ومعهم: ابو جعفر مسلم الشريف اطال بقاءه وأبو اسماعيل الرَّسي ايده الله، وأبو الطيب الهاشمي ايّده الله، وأبو جعفر احمد بن نصر اعزه الله، والقاضي اعزّه الله..... فذكروا عنكم، انكم التمستم كتاباً يشتمل على امانيكم في انفسكم، واموالكم وبلادكم، وجميع اموالكم... فعرفتهم ما تقدم به امر مولانا، وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه وحسن نظره لكم. فلتحمدوا الله على ما اولاكم، وتشكروه على ما حماكم، وتدأبوا فيما يلزمكم، وتسارعوا الى طاعته العاصمة لكم، العائدة بالسعادة عليكم، وبالسلامة لكم، وهو:

انه صلوات الله عليه لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة، والجيوش

المظفّرة الاّ ما فيه اعزازكم، وحمايتكم، والجهاد عنكم اذ قد تخطفتكم الأيدي، واستطال عليكم المستذل، والممتعة نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة، والتغلب عليه، وأسر من فيه، والاحتواء على نعمكم، وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من اهل بلدان المشرق، وتأكد عزمه ـ واشتد لكبه. فعاجله مولانا، وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه باخراج العساكر المنصورة، وبادره بانفاذ الجيوش المظفَّرة دونكم، ومجاهدته عنكم، وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمَّهم الخزي، وشملتهم المذلة، واكتنفتهم المصائب، وتتابعت الرزايا، واتصل عندهم الخوف، وكثرت استغاثتهم، وعظم ضجيجهم، وعلا صراخهم، فلم يفتهم الاّ من ارمضه امرهم، وامضَّه حالهم، وأبكى عينه ما نالهم، وأسهرها ما حلّ بهم، وهو مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه.

فربما بفضل الله عليه، واحسانه لديه، وما عوَّده، وأرجاه عليه استنقاذ من اصبح منهم في ذل عقيم، وعذاب اليم، وان يؤمن من استولى عليه المهل، ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل، واثر اقامة الحج الذي تعطّل واهمل العباد، فرد منه حقوقه لخوف المستولي عليهم، واذ لا يأمنون على انفسهم، ولا على اموالهم، واذ قد اوقع بهم مرة بعد اخرى، فسفكت دماؤهم، وابتزت اموالهم، مع اعتماد ما جرت به عادته من اصلاح الطرقات، وقطع عبث العابثين فيها ليطرق الناس آمنين، ويسيروا مطمئنين، ويتحفوا بالاطعمة، والاقوات اذ كان قد انتهى اليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها، اذ لا زاجر للمعتدين، ولا دافع للظالمين، ثم تجديد السكة وصرفها الى العيار الذي عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة، وقطع الغش منها، اذ كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظرَ في امور المسلمين الاّ اصلاحها، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها، وما اعزّ به مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه الى عبده من نشر العدل، وبسط الحق، وحسم الظلم، وقطع العدوان، ونفي الاذى، ورفع

الحزن، والقيام في الحق، واعانة المظلوم مع الشفقة، والاحسان، وجميل النظر وكرم الصحبة، ولطف العشرة، وافتقاد الاحوال، وحياطة اهل البلد في ليلهم، ونهارهم، وحين تصرفهم في ابتغاء معاشهم حتى لا تجري امورهم الاَّ على ما لَمّ شعثهم، وأقام أودهم، وأصلح بالهم، وجمع قلوبهم وألّف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه .

وما امره به مولاه من اسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي صلوات الله عليه باثباتها عليكم وان اجريكم في المواريث على كتاب الله، وسنة نبيه (ﷺ)، وأضع ما كان يؤخذ من بركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفي بها، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال، وان اتقدم في رمّ مساجدكم وتزيينها بالفرش والايقاد، وان اعطي مؤذنيها، وقومتها، ومن يؤم الناس فيها ارزاقهم، وأدرها عليهم، ولا اقطعها عنهم ولا ادفعها الاَّ من بيت المال، لا باحالة على من يقبض عنهم، وغير ما ذكره مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه، ممَّا ضمنه كتابه هذا من ترسل عنكم ايدهم الله، وأصحابكم اجمعين، من انكم ذكرتم وجوهاً التمستم ذكرها في كتاب امانكم، فذكرتها اجابة لكم، وتطميناً لأنفسكم، فلن يكن لذكرها معنى، ولا في نشرها فائدة اذ كان الاسلام سنة واحدة، وشريعة متبعة، وهي اقامتكم على مذهبكم، وان تتركوا على ما كنتم عليه من اداء المفروض في العلم، والاجتماع عليه في جوامعكم، ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الائمة من الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين بعدهم، وفقهاء الامصار الذين جرت الاحكام بمذاهبهم وفتواهم، وان يجري الاذان، والصلاة، وصيام شهر رمضان، وفطرة قيام لياليه، والزكاة، والحج، والجهاد على ما امر الله في كتابه ونصّه نبيه (ﷺ) في سنته، وأجرى اهل الذمة على ما كانوا عليه .

ولكم عليَّ امان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الايام، وكرور الاعوام في انفسكم، وأموالكم، وأهليكم، ونعمكم،

وضياعكم، ورباعكم، وقليلكم، وكثيركم، وعلى ان لا يعترض عليكم معترض، ولا يتجنّى عليكم متجني، ولا يتعقب عليكم متعقب، وعلى انكم تصانون، وتحفظون وتحرسون، ويذب عنكم، ويمنع منكم، فلا يتعرض الى اذاكم، ولا يسارع احد في الاعتداء عليكم، ولا في الاستطالة على قويكم فضلاً عن ضعيفكم، وعلى ان لا ازال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه، ويشملكم نفعه ويصل اليكم خبره، وتتعرفون بركته، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه .

ولكم عليَّ الوفاء بما التزمته، واعطيتكم اياه، عهد الله، وغليظ ميثاقه، وذمة انبيائه ورسله، وذمة الائمة موالينا امراء المؤمنين قدس الله ارواحهم، وذمة مولانا امير المؤمنين ـ المعز لدين اليه ـ صلوات الله عليه فتصرحون بها، وتعلنون بالانصراف اليها، وتخرجون اليّ، وتسلمون علي، وتكونون بين يدي الى ان اعبر الجسر وانزل في المناخ المبارك، وتحفظون، وتحافظون من بعد على الطاعة، وتثابرون عليها، وتسارعون الى فروضها، ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه، وتلزمون ما امرتكم به ... وفقكم الله وأرشدكم اجمعين .

« جوهر الصقلي »

بعد اذاعة البيان، وقراءته على اعضاء الوفد ... ادَّب القائد جوهر لاعضاء الوفد مأدبة غداء تمتيناً لأواصر الصداقة، والمودة، وتأليفاً لقلوب المصريين عامة .

اجل ... لقد ضمن البيان للمصريين تأمين حقوقهم كاملة، دون تفريق بين جندي، ومدني، او مسلم او مسيحي، وانهى اليهم ان الوفد الذي انتدب للمفاوضة قد قدم شروطاً معقولة، وانه اي جوهر قد استجاب للمطاليب التي يدخل في نطاقها نشر العدالة والامن، والسلام، والطمأنينة .

وجاء في البيان بان المعز لدين الله هو صاحب الفكرة بإيفاد جوهر الى

مصر لانقاذها من براثن العباسيين، والاخشيديين، والقرامطة، الذين غزوا بلاد الشام ما بين سنة ٣٥٣ و سنة ٣٥٧ هـ. وعاثوا فساداً في ارجائها ومنعوا الحجاج من تأدية فروضهم، ومن الروم ايضاً الذين استولوا على بعض مدن الشام، وعلى اجزاء من شمالي العراق.

وفي البيان: التزام جوهر بالعهد الذي قطعه على نفسه بتحقيق السياسة الحكيمة، وترك الحرية الدينية لكافة المصريين بان يمارسوا الطقوس التي يريدونها، كما تعهد باصلاح ديني شامل، يقوم على اساس تعمير المساجد واصلاحها، وترميمها، وفرشها... وبذلك اثبت للمصريين بان الفاطميين من صميم الاسلام، وانهم حريصون على تأدية الشرائع، واقامة السنن، من اذان، وصلوات خمس، وحج، وزكاة، وجهاد.

وفي البيان ايضاً: تعهد باصلاح الشؤون الادارية، وتأمين الامن، وقطع ايدي العابثين والمجرمين، وقطاع الطرق، والمغامرين... كما تعهد بضبط العملة، ونشر العدالة، واغاثة المظلوم، وقطع دابر الظالم، واشاعة الشفقة والرحمة من قبل الدولة.

ولم يصف البيان الوفد من الالتزام ببعض القيود، كاذاعة البيان على الخاص والعام في مصر، ومن ثم ضمان عبور الجيش الفاطمي من الجيزة الى الفسطاط دون ان يتعرض اليه احد، كما الزمهم بالطاعة والمثابرة على الخضوع للانظمة، وللقوانين.

ومهما يكن من امر... فان البيان كان على قدر كبير من الاعتدال، وبعد النظر، ولقد اثبت فيه القائد جوهر بانه من اكابر القواد، والساسة، والحكماء.

وعلى الرغم من كل هذا، فان بعض الجنود من الاخشيدية، والكافورية اجتمعوا وقرروا المقاومة، ووضع العراقيل بوجه جوهر، حتى لا يستولي على مصر بهذه السهولة، واعتبروا ان دخوله معناه ازالة كل ما بقي لهم من

نفوذ، وذهاب مصدر رزقهم، وحياتهم... لهذا عدلوا على الحرب، ورفضوا تنفيذ ما جاء ببيان القائد جوهر.

وعندما ادرك جوهر خطورة الاوضاع والتحركات... اخبر الوفد باسترداد عهده... وبانه اصبح حراً بالعمل وفق ما تقتضيه الظروف... الا ان اعضاء الوفد التمسوا منه العدول عن هذا الرأي.... فاستجاب لطلبهم، وفي الوقت نفسه قرر الوقوف بوجه العصاة، والقضاء عليهم.

وذكر ان اعضاء الوفد، وكان على رأسهم الوزير ابن الفرات، خرجوا من عند جوهر، وهم في حالة مضطربة، فقاموا بمظاهرة حماسية اشترك فيها الآلاف من المصريين ضد الاخشيديين والغرباء الذين ساروا في ركابهم.

وتابع جوهر تقدمه، حيث وصل الى الجيزة في الحادي عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ... وكان الاخشيديون يعسكرون في جزيرة الروضة، وعلى شاطىء النيل الشرقي من ناحية الفسطاط.

فقسم جوهر جيشه الى فريقين: واتبع طريقين: وكان همه الاستيلاء على المخاضة الواقعة في منية شلفان شمالي الجيزة.. اذ منها قرر العبور الى الفسطاط... ثم استعان بالسفن المصرية المتواجدة في النيل للعبور... ولهذا صادرها وكانت في طريقها من تنيس، ودمياط، واسفل الارض.

وعندما تم له ذلك نادى جعفر بن فلاح فقال له:

لهذا اليوم ارادك المعز لدين الله يا جعفر... فعبر النهر بعد ان خلع ثيابه، وتبعه المغاربة... وهكذا اوقع العصاة بين فكي كماشة.

وذكر التاريخ:

ان جعفر بن فلاح اوقع بهم، وأجبرهم على التقهقر نحو الفسطاط، ولكن جوهر عبر النهر هو ورجاله والتقى بهم، وكانوا قد جاءوا للمرابطة على المخاضة لحراستها... وبعد جولة او جولتين ركنوا الى الفرار،

والخروج الى بلاد الشام، بعد ان فقد من قوادهم ورؤسائهم عدداً لا يمكن تحديده.

اجل... لم تدم المعركة سوى ساعة او ساعتين... وبعدها ارسل جوهر الاعلام الفاطمية مع شرطة المدينة وكان عليها اسم المعز لدين الله... لتوزع على الابنية، والامكنة الرسمية، كما امر بقرع الاجراس، علامة استتباب الامن.

وبعد ان تم له كل هذا ارسل الى الشريف ابي جعفر مسلم بن محمد عهداً ثانياً جاء فيه:

« وصل كتاب الشريف الجليل اطال الله بقاءه، وادام عزه وتأييده وعلاه، وهو المهنأ بما هنأ من الفتح الميمون... فوقفت على ما سأل من اعادة الامان الاول... وقد اعدته على حاله، وجعلت الى الشريف ايده الله ان يؤمن كيف رأى، وكيف احب، ويزيد على ما كتبته كيف يشاء.. فهو اماني، وعن اذني، واذن مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه... وقد كتبت للوزير ايده الله بالاحتياط على دور الهاربين الى ان يرجعوا الى الطاعة، ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة، ويعمل الشريف ايده الله على لقائي، يوم الثلاثاء لسبع عشر تخلو من شعبان.

بعد هذا الانتصار السريع على فلول الاخشيديين... عبر جوهر الجسر المقام على نهر النيل بين الجيزة والفسطاط، وكان في استقباله على الضفة الثانية الوزير ابن الفرات، والشريف العلوي، وسائر الاشراف، والقضاة، والعلماء، وكان جوهر يرتدي حلة مذهبة، وهكذا معاونيه من القواد، والفرسان... ثم عبرت الجمال المحملة باكياس الذهب، وظل بسيره حتى وصل الى شمالي مدينة القطائع التي اسسها احمد بن طولون... وهناك امر باقامة الخيام للجيش، ثم وضع فيما بعد اساس مدينة القاهرة، واصبحت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الاطلسي غرباً حتى البحر الاحمر شرقاً، ونافست القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية الجديدة، بغداد العباسية، وقد كان

لتلك المنافسة اثره البعيد في بعث الحضارة الاسلامية .

اجل... ان اخبار الانتصارات وصلت الى المغرب، فعم الفرح جميع البلدان، وكان الناس يرددون قول ابن هانىء الاندلسي:

تقول بنو العباس قد فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضي الامرُ
وقد جاوز الاسكندرية جوهرٌ تطالعه البشرى ويقدمه النصرُ

ومهما يكن من امر فقد توقع المصريون بعد المعركة الاخيرة ان يعاملهم جوهر معاملة من فتحت بلادهم عنوة... ولكن جوهر عاد وأعطى عهداً ثانياً كما ذكرنا لأبي جعفر العلوي بان معاملته للمصريين ستكون كما انها معاملة من فتحت بلادهم صلحاً... وهكذا بلباقة، وحسن تصرف تألفت قلوبهم، وظهرت محبتهم، ودانوا له بالطاعة، ورضوا بحكمه، كما انه دلل على حسن نياته باصداره عفواً عن بعض المصريين الذين غرر بهم الاخشيديون . وعاد للمرة الثانية ليؤكد على الجند عدم اقتراف، اية جريمة مع المواطنين او استعمال العنف مع الشعب الآمن .

ولنترك جوهر الآن في مصر يبني ويعمر، ويقيم سنن العدالة، ولننتقل الى فلسطين والشام حيث ان اوامر المعز لدين الله تقضي باحتلال هذه الاجزاء المهمة... على ان نعود الى مصر فيما بعد لندرس كل ما يتعلق باعمال جوهر.

في ربوع فلسطين والشام:

ترك جوهر لجعفر بن فلاح امر قيادة الحملة الى فلسطين، والشام، كما ترك له حرية اختيار المعاونين، وتجهيز جيشه بما يحتاج اليه .

وجعفر بن فلاح ينحدر من اسرة مغربية عريقة، ومن قبيلة كتامة... رافق جوهر في حروبه المغربية، واظهر عن رجولة وعبقرية جعلته في نظر

الناس القائد الثاني بعد جوهر وكانت فرقة كتامة في الجيش الفاطمي المغربي تحارب تحت قيادته، وتطيع اوامره، وهذا ما جعل الخليفة المعز لدين الله يشركه بالفتح ويترك اليه امر فتح فلسطين، وبلاد الشام، لان كتامة هذه القبيلة التي انضوت تحت امرة الفاطميين منذ عهد عبيد الله المهدي لم يكن من الوفاء ابعادها عن الفتح مهما بدر من افرادها من تصرفات غير انسانية، وكان المعز لدين الله يعتقد بان جعفر بن فلاح هو الوحيد الذي يستطيع قيادتها وضبط امورها، مضافاً الى ذلك ان جوهر الصقلي لم يعهد اليه بمهمة فتح فلسطين، وبلاد الشام الا بعد ان خبر شجاعته، وحسن قيادته، ومرونته باساليب القتال، وببعد نظره بافتتاح البلدان، وسياسة الشعوب، ولكن مصادر تاريخية عديدة ذكرت: بان جوهر عندما اختاره لقيادة تلك الحملة كان يتوخى ابعاد القائد المنافس من امامه، وتوريطه في بلاد عسيرة المسالك، معقدة الاحوال، عرفت بتعصبها وكرهها للفاطميين، مضافاً الى كل ذلك خوفه من منافسته على القيادة العليا في مصر... لان جعفر كان يقول: للمقربين اليه بانه افضل من جوهر واحق منه للقيادة العامة، والنيابة على مصر... وكان يرى نفسه انه امير وابن امير... بينما يقول عن جوهر: بانه عبد وابن عبد.

ومهما يكن من امر... فان فلسطين، وبلاد الشام كانت انئذٍ خاضعة لحكم الاسرة الاخشيدية.. وعندما علم الحسن بن عبد الله بن طغج الاخشيدي والي الرملة، ودمشق بخبر الحملة العسكرية الفاطمية المولجة بفتح فلسطين والشام استخلف «شمول الاخشيدي» على دمشق، وسار بنفسه الى الرملة على رأس جيش كبير لملاقاة جعفر بن فلاح، ولكن شمول لم يكن مخلصاً للحسن، فكاتب جعفر سراً ودعاه الى الاسراع بالقدوم الى دمشق مع الوعد بانه سيفتح له ابوابها... وقد صدق بوعده عندما تقاعس عن امداد الحسن بالمعونات عندما اشتبكت جيوشه بالقتال مع الجيش الفاطمي.

واخيراً:

وصل جعفر الى بلاد فلسطين، واخذ يحرز الانتصار تلو الانتصار، ويتقدم من نقطة الى نقطة... وفي كل مرة يتقدم فيها يكتب الى حكام المدن، ورؤساء القبائل يدعوهم الى طاعة المعز لدين الله ويعدهم بحسن المكافأة... ولكن الحسن الاخشيدي قاوم هذه الدعوات، ورفض الا التصدي لجعفر، وجيشه فدارت الدائرة عليه بعد عدة معارك في الرملة، وفي خاتمة المطاف وقع في الاسر مع العديد من قواده، وجنوده.... فأرسل الى الفسطاط بمصر، وسجن فيها، ثم ارسل اخيراً الى المغرب حيث ظل هناك حتى وفاته سنة ٣٧١ هـ.

وبعد ان تم لجعفر تصفية الأمر مع الحسن بن طغج تابع زحفه، فوصل الى طبرية، وكان عليها فاتك غلام كافور... فحاول المقاومة، ولما عجز لجأ الى الاعتصام... ولكن جعفر بنى برجاً وتمكن من خلاله من دخول المدينة، والقبض على فاتك، ومحاكمته، ثم قتله اخيراً.

ومن الجدير بالذكر: انه بعد هذه المعركة استسلمت كافة القوى المحاربة في بلاد فلسطين واعتبرت هذه المنطقة الواسعة من ممتلكات الدولة الفاطمية... الا ان القبائل العربية كبني عقيل وبني فزارة، وبني مرة وسواهم عادوا من جديد الى الانتفاض، فهبوا لمقاومة الزحف ولكنهم لم يتمكنوا من الصمود طويلاً، لان جعفر تمكن من تفريقهم، ومنع اجتماعهم، وضربهم ببعضهم البعض، حينما تقرب الى الفزاريين، وبني مرة، واتخذهم الى جانبه ضد العقيليين... وكل هذا احبط مساعيهم وسهل على جعفر التقدم نحو دمشق ولكن العقيليين لم يتوقفوا بل استطاعوا الوصول الى دمشق، واغراء اهلها، والبقية الباقية من جنود الاخشيديين، فتجمعوا وتصدوا لجعفر بن فلاح. وهنا وقعت معارك طاحنة قتل فيها الكثير من الفريقين... واخيراً انتهت بانتصار جعفر وبمواصلة الزحف حتى ضواحي دمشق.

... لم يكن القائد جعفر بن فلاح صارماً مع جنده مثل جوهر...

والسبب لان هؤلاء الجنود كانوا من قبيلة كتامة، ولهذا نراه يترك لهم الحرية بالتصرف، والتعدي على كرام الناس، والعبث بالامن، والمعاملة السيئة، واعطاء فكرة عاطلة عن الجيش الفاطمي، وقد تجلى كل هذا عندما ارسل اهل دمشق وفداً عنهم الى طبرية لمفاوضة القائد جعفر، والاتفاق معه على شروط الصلح، والاستسلام... فهذا الوفد تعرض بعد خروجه الى اسوأ معاملة من الجند الذين سلبوهم كل ما يحملون من اموال، وثياب... وعندما عاد الوفد الى دمشق عمَّ الخبر انحاء المدينة، ممَّا اثار النفوس وولد الغضب، والحقد، والنقمة... ـ وتكررت التعديات، والتجاوزات في ضواحي دمشق حينما كان الجنود المغاربة يدخلون على البيوت الآمنة، لعيثوا فيها فساداً، وينهبوا الناس، وكل هذا جعل خطباء المساجد في دمشق يعلنون من على المنابر للناس هذه الوقائع، مع التصميم على الدفاع عن انفسهم، ومقاومة الغزو حتى النفس الاخير.

ولم تعرف الاسباب التي منعت جعفر ـ وهو القائد المحنك ـ من السكوت على هذه الفضائح، والاخطاء في حين انه رافق جوهر الصقلي، ورأى كيف كان موقفه من اهالي مصر، والمغرب اثناء فتوحاته، وكيف كان يغمر الاهلين باحسانه، وعطفه، ويمنع جنده من الاساءة اليهم، وعدم تعرضهم لأي اذى.

كل هذه اسباب جعلت جعفر بن فلاح في موقف حرج لا يدري ماذا عليه ان يفعل؟ فأهالي دمشق جاءوا اليه اكثر من مرة مرحبين، يريدون الدخول في طاعته، فلم يأبه لهم، وحينما يخرجون كان جنده يلحقون بهم ويسيئون معاملتهم.

ولم يقف الامر عند هذا الحد... فهذه الاحوال ادت في النهاية الى فرار عدد من زعماء البلاد، وأهل الحل والربط فيها، كظالم بن موهوب العقيلي، وغيره من زعماء الاخشيديين، والكافوريين، والى اعتقال الكثير منهم، حتى ان بعضهم علقت جثته على ابواب المدينة، وقد عزا بعض

المؤرخين هذه التصرفات من قبل جعفر، الى فقدان التوازن وسوء الادارة والسياسة، او ربما كانت نشوة الظفر قد اعمت بصره، وحجبت الحقائق عنه .

اجل . . . لقد تمكن سنة ٣٥٩ هـ . من اعلان الخطبة على منابر دمشق باسم المعز لدين الله، بدلا من المطيع العباسي، فكان هذا ايذاناً بزوال نفوذ العباسيين عن ديار الشام، وتجلى كل ذلك حينما اتخذ جعفر من دمشق قاعدة لقيادته يوجه منها ضرباته للروم، ولفلول العباسيين، والمتعاطفين معهم . ويبدو ان جعفر بعد ان تم له كل ذلك اراد ان يبرز اسمه كما برز اسم جوهر الصقلي، بل اراد ان يحقق انتصارات يكون لها صدى واسع في اوساط المعز لدين الله، تفوق انتصارات جوهر . . ففتح بلاد الشام، وفلسطين لم يكن يروي غليله، او يوقف طموحه، بل تاقت نفسه الى التصدي للروم، واستخلاص انطاكية وما يجاورها منهم، وبالفعل ارسل جيشه وترك دمشق وما يجاورها في قبضة ايدي قلة من الجند، وكأنه لم يكن يدري ما تخبئه له الاقدار . . . اجل . . . لقد فاته اختيار الوقت المناسب، ولعب الغرور، والغطرسة، والانانية برأسه حتى افقده الصواب . . . لقد نسي الثورات، والانتفاضات التي كانت تنبعث من حين لآخر في وجه الجيوش الفاطمية في ديار الشام، ونسي ما اعده القرامطة بقيادة الحسن الاعصم له، بعد ان قطع عنهم الدية المقررة على اهالي دمشق وقدرها ثلاثة الاف دينار، ونسي المكائد العباسية، والاموال التي كانوا يبذلونها للقوى المعارضة للقيام بالثورات، والانتفاضات، وهكذا بالنسبة للحمدانيين، وللبويهيين، كما انه نسي ان جيوشه اضرموا النار مرة في اسواق دمشق ومنازلها، وحولوا العديد من احيائها الى رماد، وعلى اثر ذلك فرَّ الكثير من رجالاتها، وقتل، وسجن بعضهم . . . وكيف ينسى اهل دمشق قوله لهم مرة:

بانه لا يقبل رجاءهم الا بعد ان يخرجوا اليه، ومعهم نساؤهم

مكشوفات الشعور، فيتمرغن في التراب بين يديه، وذلك تكفيراً لهم عن قتل العديد من جنود المغاربة.

وكيف ينسى اهل دمشق القبض على رؤسائهم امثال: اسحاق بن عصودا، وغيره... ومن ثم فرار محمد بن عصودا، وابو القاسم بن ابي يعلى العباسي الذي قبض عليه جعفر قرب بلدة تدمر بينما كان في طريقه الى بغداد... وهذا الاخير ارسله جعفر الى مصر، بعد ان وعده بالافراج.

وذكر التاريخ:

انه سأله: ما الذي حملك على ما صنعت، ومن ندبك الى ذلك.؟ فقال:

ما حدثني به احد، وانما هو امر مقدر... فرق له جعفر. ووعده بالسعي للافراج عنه لانه من الهاشميين.

وأخيراً:

تم لجعفر السيطرة على بلاد الشام وفلسطين، بالقوة، والاكراه، ولكن هذه السيطرة لم يكن مقدراً لها الاستمرار طويلاً، لان الاخطاء العسكرية، والسياسية التي ارتكبت اكثر من ان تحصى، وأوضاع بلاد الشام تختلف جداً عن اوضاع مصر.

ان جعفر بن فلاح لم يكن يملك القدرة التامة للتصرف كقائد ميدان يأمر وينهي، فجيشه الذي كان اكثره من الكتاميين كان يعتبره اميراً وسيداً وليس قائدا لهذا فان الفوضى سادت صفوفه، واصبح الصغير لا يطيع الكبير كما ان الكبير لم يكن يملك القدرات لردع الصغير عن ارتكاب الجرائم.

ان اول خطيئة ارتكبها في بلاد الشام هي:

افساحه المجال لافراد جيشه بالاساءة الى الناس، وامتهان حقوقهم، والتعدي على الآمنين، مما جعل الناس يفقدون كل امل، وينظرون للجيش الفاطمي نظرة تقوم على العداوة، والحقد، كقولهم: انه ما جاء الا لينتقم

من اهل دمشق، ويسومهم ضروب الاذى والاذلال.

والخطيئة الثانية هي: قطعه المعونة التي كان يدفعها اهل دمشق للقرامطة، ومقدارها ثلاثة الاف دينار، فلو انه لم يتعرض لهذه المعونة لظل القرامطة بعيدين عنه، ولما فكر الحسن الاعصم بالزحف على الشام، ثم على القاهرة فيما بعد.

والخطيئة الثالثة: ارسال الجيش الفاطمي الى انطاكية للوقوف بوجه الروم، في وقت لم يكن هذا من برنامجه، ولا مطلوباً منه فالروم كانوا في حرب مع العباسيين، ومع الحمدانيين، وكان على هؤلاء ان يتصدوا وحدهم لهم، بينما كان على ابن فلاح ان يرجىء كل صدام معهم الى وقت اخر، والى حين تصفو له الايام.

ومهما يكن من امر... فهذا القائد السيء الحظ، والطيب القلب، قدر له ان يقتل في دمشق بعد ان خاض سلسلة من المعارك، خاضها ببسالة ورجولة ادهشت الكثيرين حتى قيل انه من اقدر القواد وابرعهم في الساحات والميادين.

وأخيراً:

دام حكم جعفر بن فلاح للبلاد الشامية عامين تقريباً اي من سنة ٣٥٨ الى سنة ٣٦٠ هـ. ففي عام ٣٦٠ هـ ذهب الحسن الاعصم زعيم القرامطة الى بغداد بعد وصول الانباء اليه عن الانتصارات التي حققها جعفر، وعن تعمده قطع المعونة السنوية التي كان يدفعها اليه الدمشقيون، فعرض على المطيع العباسي فكرة الهجوم على بلاد الشام، وفلسطين، واستخلاصها من الفاطميين، ثم الزحف بعد ذلك الى مصر، على شروط اهمها: ان تبقى هذه البلدان تحت سيطرته وحكمه باسم العباسيين.

والحقيقة:

فان العباسيين قبلوا الفكرة، وأمدوا الاعصم بالاموال، والسلاح،

والعتاد، حتى ان عز الدولة بختيار وضع تحت سيطرة الاعصم الف الف درهم والف جوشن، والف سيف، والف رمح، والف قوس، والف جعبة. كما ان الحمدانبين تعاونوا مع القرامطة وايدوهم، وجندوا لهم الاخشيديين، والكافوريين، وكانوا قد لجأوا الى ديارهم. مضافاً الى ذلك ان القبائل انضوت ايضاً تحت لواء الاعصم، وحملت شعار الحرب ضد الفاطميين.

وهكذا تألب السنيون، والشيعة البويهيون، والحمدانيون، وجندوا انفسهم، ووضعوا امكانياتهم تحت تصرف الاعصم... فالعباسيون كانوا يخشون على ملكهم، وقد اقض مضاجعهم احتلال مصر والشام وفلسطين بحيث اصبحت جيوش الفاطميين على مقربة من حدودهم، والبويهيون خافوا على نفوذهم من الضياع اذا ما حل الفاطميون محل العباسيين في بغداد، كما خشي الحمدانيون على امارتهم من السقوط في ايدي الفاطميين.

لم يتوقف الحسن الاعصم لحظة واحدة بعد ان تم له تجهيز جيشه، فزحف بسرعة باتجاه دمشق، ووصوله الى مقربة منها كان مفاجأة لجعفر بن فلاح الذي لم يكن يملك اية معلومات عما يدبر له بالخفاء، والا لما كان ارسل خيرة جيوشه، وقواده الى انطاكية... ومن الجدير بالذكر انه بالرغم من كل هذا استهان بقوة القرامطة، واعتقد بان هذه القوة الصغيرة كافية للتصدي لهم، وايقاف زحفهم.. وعلى نهر يزيد، وفي موقع «الدكة» تواجه الجيشان، ولم تلبث ان حلت الهزيمة بجعفر وجيشه، وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٣٦٠ هـ. فالقرامطة كانوا في حروبهم يعتمدون على عنصر المفاجأة او ما يسمى بالحرب الانتحارية. ولكن هناك مصادر ذكرت:

بان جعفر بن فلاح كان مريضا عندما خاض المعركة مع القرامطة، وهذا ما جعله يخطىء التقدير والحساب فسقط ضحية سوء التقدير، ولم ينفعه استدعاء جيشه من انطاكية بعد فوات الأوان، فهذا الجيش لم يتمكن من انقاذ قائده من المصير المحتوم في الوقت المناسب.

وذكرت بعض المصادر:

ان العلاقات كانت سيئة، وربما مقطوعة بين جعفر بن فلاح، وجوهر الصقلي، فجوهر كما ذكر تقاعس عن ارسال الامدادات لجيش الفاطميين في الشام في الوقت المناسب، والاسباب ان جعفر لم يأخذ برأي جوهر، ولم يستشره عندما ارسل الجيش الفاطمي الى انطاكية، وقد تجلى كل هذا عندما ارسل جعفر كتابه المشهور الى المعز لدين الله للمغرب يخبره فيه بما تم على يديه من فتوحات وانتصارات في فلسطين، وبلاد الشام، ولكن المعز لدين الله غضب، وأرجع الكتاب دون ان يقرأه وكتب اليه:

« قد اخطأك الرأي لنفسك، ونحن انفذناك مع قائدنا جوهر، فاكتب اليه، فما وصل منك على يده قرأناه، ولا تتجاوزه بعد، فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذي اردته، وان كنت اهله عندنا، ولكننا لا نستفسد جوهراً مع طاعته لنا».

ومما يجب ان يذكر ان محمد بن عصودا عثر على جثة جعفر بن فلاح ملقاة في ضواحي دمشق، فقطع رأسه، وصلبه على حائط داره انتقاماً لأخيه اسحق، الذي قتل وصلب بأمر من جعفر.

وهكذا انتهتْ حياة هذا القائد الكبير الذي نشر سلطان الفاطميين في فلسطين وديار الشام، بعد ان انتزعها من الاخشيديين، وأذل زعماء الثورات التي قامت بوجهه، وذهب به الطموح الى حد التصدي لقوى الامبراطورية البيزنطية الكبرى.

اجل.. انتهت حياة القائد الذي لم تستطع الجيوش الجبارة هزيمته في المغرب، ومصر، وفلسطين، والشام، وذهب ضحية سوء التدبير، والاستهانة بالامور، والتباهي بالنفس.

اما القرامطة فلم يتوقفوا عند هذا الحد، بل استولوا على دمشق، وشمال الشام، ثم جنوبها ومنها تابعوا الزحف في قلب فلسطين دونما مقاومة حتى

وصلوا الى الرملة، وكان عليها «سعادة بن حيان» فلما ادرك ان لا قدرة له على الصمود، فرّ الى يافا، واعتصم فيها فلحقه الاعصم، وطوقه، وترك على رأس الجيش قائده ابا المنجا، وظالم بن موهوب العقيلي. ولم يكتف الاعصم بكل هذا بل جعل الخطبة على المنابر باسم الخليفة العباسي المطيع، ورفع الاعلام السود شعار العباسيين، كما نقش اسم المطيع على اعلام الجيش.

والآن:

لنترك الاعصم يتأهب لغزو مصر، ولنعرج على القرامطة، حيث نتحدث في هذا الفصل بايجاز عن الصراع بينهم، وبين الفاطميين، وأسبابه.

بين الفاطميين والقرامطة:

بعد ان قضى العباسيون على ثورة القرامطة الاولى التي كانت تتألف من قرامطة السواد والعراق، والشام بقيادة «آل زكروية»... تلك الثورة المجنونة التي خرجت على القواعد، والاعراف، والسنن والقوانين، وأجرت الدماء وخربت المدن، وأشاعت القلق، وقتلت الابرياء. وكنا ذكرنا انها قامت باديء ذي بدء ضد عبيد الله المهدي، واضطرته الى مغادرة وطنه الى المغرب، ثم جاءت الى «سلمية ـ سورية»فأطاحات باسرته الفاطمية، ولم تترك شيئاً الا وهدمته.

ان هذه الثورة لم يقدر لها الاستمرار طويلا لانها قامت على العنف، وارتكاب الاعمال الوحشية، والدماء ودون اي تخطيط، او منهاج مدروس. وبعد ان كاد الزمن يمحي من الاذهان ذكرى تلك الثورة العنيفة قامت ثورة قرمطية اخرى في بلاد البحرين، فلعبت دوراً بارزاً على مسرح العالم العربي، وفي البلاد الاسلامية، ولكن اعمالها كانت اكثر تنظيماً وتركيزا من الثورة الاولى.

لقد كان يتزعم هذه الثورة اسرة « آل الجنّابي » البحرانية، وهذه الاسرة لم تلبث ان انقسمت على نفسها... فكان فريق منها يؤيد الفاطميين، ويأتمر بأوامرهم، وفريق آخر يطمع بالزعامة، ولكنه يتبع الاستقلالية بالعمل، وعدم التقيد بأوامر احد، وهذا الفريق تسلم القيادة العامة للقرامطة، وامام التدخل الفاطمي في شؤونه وتأليب الفريق المعارض، كان لا بد له من اللجوء الى العباسيين متخذاً منهم اداة لنصرته... وهكذا استمرت المنازعات بين الاسرة الواحدة على الزعامة وقتاً طويلاً.

اجل... لقد كان ابا سعيد الجنابي سنة ٣٠١ هـ. هو رأس الاسرة، وذلك في عهد الخليفتين الفاطميين الاول والثاني عبيد الله المهدي، والقائم بأمر الله، ولكنه لم يكن موالياً لعبيد الله، وذكر انه قتل في ظروف غامضة، كما حيل بين ابنه سعيد، والقيادة العامة، فعين عبيد الله ابا طاهر الجنابي وذلك سنة ٣٠٥ هـ. فكان له اطوع من بنانه وقد ظل على اخلاصه للمهدي ومن ثم للقائم حتى وفاته سنة ٣٣٢ هـ.

وبعد موته قام الفريق المعارض وطالب بالحكم على اعتبار ان ابا طاهر لم يترك من الأولاد من يصلح للقيادة فابنه سابور كان طفلاً، ولهذا تدخل القائم بامر الله بالامر وتمكن من اصلاح ذات البين بأن عين احمد بن ابي سعيد، وهو شقيق سعيد الذي كان قد نحي عن الحكم. ثم جعل سابور بن ابي طاهر ولياً للعهد.

وهكذا انقسم القرامطة الى فريقين: فريق ابناء ابي طاهر، ومعهم عدد كبير من وجوه، وأعيان القرامطة وفريق ابناء ابي سعيد ومن انضم اليهم من الاتباع، وسارت الامور فترة طويلة على هذا الوضع.

وأخيراً:

شعر ولي العهد سابور بان عمه احمد بن سعيد قد استأثر بالحكم دونه، وانه اخذ يتصرف بالامور دون ان يأخذ رأي ابناء ابي طاهر، وقد تجلى

كل هذا باسناده قيادة الجيوش القرمطية الى ولده الحسن بن احمد الملقب « بالاعصم » وهو الذي حقق انتصارات مبدئية في عمان وطبرية وغيرها.

ولكن كل هذا لم يمنع قيام جماعة سابور بالمطالبة بحقهم من الحكم. ووصل بهم الامر الى حد عزل احمد بن سعيد سنة ٣٥٨ هـ. ولكن سابور لم يلبث ان اغتيل... وعاد احمد بن ابي سعيد الى الحكم من جديد، وتمكن بعد مقتل سابور من نفي اخوته وأشياعه الى جزيرة « وال » بالخليج الفارسي.

وهكذا خسر الفاطميون اتباعهم، واصبحت القرامطة تدين بالطاعة للفريق المستقل الذي اظهر ميلاً للعباسيين انتقاماً من مواقف الفاطميين المعادية.

وفي سنة ٣٥٩ هـ. مات احمد بن سعيد، فتولى القيادة بعده، ولده الحسن « الاعصم » فحكم من سنة ٣٥٩ الى سنة ٣٦٧ هـ. وكثرت وقائعه وحروبه، ومن المعروف انه عمل على استئصال شأفة ابناء ابي طاهر، واستقل بالامر،واصبح القرامطة في عهده سادة على البلاد الممتدة على شاطىء الخليج الفارسي الغربي من عمان حتى مصب نهري دجلة والفرات، بالاضافة الى الصحراء، كما اصبحوا سادة على بلاد الشام، وفلسطين، واصبح حكام الاخشيديين في الشام يدفعون لهم الجزية.

الأعصم يدق ابواب القاهرة:

ركز الحسن الاعصم القرمطي هجومه على مصر من الناحية الشرقية، بعد ان دانت له اكثر مدن الشام وفلسطين.... فاستولى على « الفرما » وهي مفتاح الديار المصرية، ثم هاجم « القلزم » وهي « السويس » واستولى عليها، وأسر عاملها عبد العزيز بن يوسف، كما نهب كل ما كان فيها من خيل وابل وأموال، وأرزاق. وقد كان من اثر هذا الهجوم ان اعترفت بعض المدن المصرية والقرى بسلطان القرامطة كما ثارت « تنيس » على

واليها الفاطمي، واعترفت بالسلطة القرمطية . . . وهكذا اخذ الاعصم يتقدم دون مقاومة تذكر، حتى حطَّ اخيراً الرحال امام عين شمس « هليوبوليس » ومن هذه النقطة اخذ يطبق خططه، فأرسل جواسيسه يحملون المناشير، ويوزعونها في المساجد، وفيها الحض على الثورة. والعصيان ضد الفاطميين، مع الانذار باحتلال القاهرة.

وازاء هذه الاحوال، تحرك جوهر الصقلي للعمل، واحباط هذا الهجوم الكثيف، فأرسل عيونه لاستقصاء الاخبار، ولما علم بعدد جيش القرامطة، حفر خندقاً حول مدينة القاهرة، واعتصم مع جيشه وراءه وكانت هذه خطة استدراج، وانهاك للجيوش المهاجمة، ثم خرج بعد ذلك الى خارج الخندق وبدأ القتال . . . وقد ظلت الحرب سجالاً بين الفريقين منذ اواخر شهر صفر حتى شهر ربيع الأول من سنة ٣٦١ هـ.

وفي مستهل ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ. التحم القتال بشكل عنيف على باب مدينة القاهرة، وكان يوم جمعة فقتل جماعة، واسر جماعة، من الفريقين، وفي يوم السبت استؤنف، القتال، وكانا متكافئين. وفي نهار الاحد دفع الاعصم بجميع عساكره للميدان، واراد اقتحام الخندق، وكان الباب مغلقاً . . . ولما زالت الشمس فتح جوهر الباب، فاندفع فريق كبير من جيش القرامطة الى داخل المدينة حيث كان جوهر، قد اعد لهم الكمائن . . . فقتل منهم خلق كثير، وشعر الاعصم بالخسارة الجسيمة اخيراً مما دفعه الى الهرب، ولم يتبعه جوهر بل استولى على خيمته ولوازمه وصناديقه وكتبه . . . اما الطريق الذي سلكه مع شراذم جيشه الهاربة فكان عن طريق القلزم ومنها الى فلسطين، ثم الى الشام.

في هذه المعركة الكبيرة استخدم جوهر سلاح الدعاية . . . فأرسل فريق الدعاة الى قلب صفوف القرامطة، فاستطاعوا ايقاظ الفتنة، والنقمة على الاعصم لمخالفته الفاطميين، واتباعه العباسيين، كما انهم تمكنوا من اللعب بافكار القبائل العربية بعد ان دفعوا لبعضهم الاموال . . . ومن جهة اخرى

تمكن القائد جوهر من احباط تدابير الجاسوسية القرمطية، فجعلها في موقف الرعب، والارتباك خاصة عندما القى القبض على اربعة من الجنود المصريين كانوا يعملون لمصلحة القرامطة، فأعدمهم، وصلبهم على مرأى من جيش القرامطة، كما انه ولاحتياطات كان لابد من سجن الوزير جعفر بن فرات في منزله، وسوق الزعماء والقضاة الى المعسكر وجعلهم تحت نظره حتى نهاية المعركة.

وذكر:

ان المعز لدين الله ارسل في ذلك الوقت الى مصر امدادات برية، وبحرية لا تحصى، وجعلها بقيادة الحسن بن عمار، كما ان جوهر قبض على كافة الاخشيديين الذين تآمروا مع القرامطة وأعدمهم وكان قد دعاهم الى تناول الطعام على مائدته، وحين تم اجتماعهم قبض عليهم وقيدهم، وكانوا الف وثلاثمائة رجل... بعد هذا: ارسل من استرد مدينة الفرما، وقبض على واليها القرمطي «الغمر»، وهكذا فعل بالنسبة لمدينة تنيس وغيرها من المدن التي استسلمت للاعصم.

ولم تقف جهود جوهر عند هذا الحد، بل ارسل اسطوله، وعليه الجند... فتمكن من فك الحصار عن يافا وارغم الجيش القرمطي على الفرار نحو دمشق... كما انه اعاد معظم بلاد فلسطين، ولم يبق للقرامطة، وانصارهم سوى مدينة دمشق، وبعض القرى القريبة منها.

اما الاعصم، فلم تطل اقامته في دمشق، بل ذهب الى البحرين ليطفىء لهيب ثورة جديدة آثارها عليه ابناء عمه، وقبل ذهابه اسند ولاية دمشق الى ابي المنجا القرمطي، والى ظالم بن موهوب العقيلي الذي ساعده في هجومه على مصر، ولكن سرعان ما دب التنافس بينهما، وذكر:

انه عند عودة الاعصم من البحرين سنة ٣٦٢ هـ. قبض على ظالم العقيلي، وأهانه... وكان هذا الاجراء بداية تقليص نفوذ القرامطة لدى

القبائل، والمواطنين في ديار الشام.

اجل... رجع الاعصم، ومعه جيش كثيف، اعده من جديد بالاتفاق مع القوى التي ساعدته بالامس، وكان غرضه الهجوم على مصر ثانية، والانتقام من القائد جوهر... فتقدم في بلاد الشام، واسترد اكثر المدن التي فقدها وهكذا بالنسبة لفلسطين، وعندما بدأ يلوح بالزحف الى مصر، تقدم بعد ذلك باتجاه الوجه البحري متخذاً منه مركزاً حربياً، ومما يجب ان يذكر ان الاعصم اعتمد في هذه الحملة على القبائل العربية التي اغراها بالمال، والوعود العباسية، والحمدانية.

اما القائد جوهر الصقلي، ومنذ اليوم الاول لوصول طلائع القرامطة الى بلاد الشام الشمالية، ارسل الى المعز لدين الله كتاباً يدعوه فيه بالحضور الى مصر، والمشاركة بحمل المسؤوليات والاعباء... فجاء المعز على عجل... وكان اول عمل قام به اقالة جوهر، وتجريده من كافة الصلاحيات، ثم ارسل الى الاعصم هذا الكتاب، وكان لا يزال في الوجه البحري.. وهذه صورته كما ورد في كتب التاريخ:

من عبد الله، ووليه، وخيرته، وصفيه... معد ابي تميم... المعز لدين الله امير المؤمنين وسلالة خير البنين، ونجل علي افضل الوصيين.

الى

الحسن بن احمد

﴿بسم الله الرحمن الرحيم..﴾

رسوم النطقاء، ومذاهب الائمة والانبياء، ومسالك الرسل، والاوصياء، السالف، والآنف منار صلوات الله علينا، وعلى ابائنا اولي الايدي، والابصار، في متقدم الدهور، والأنوار، وسالف الازمان، والاعصار عند قيامهم باحكام الله، وانتصابهم لامر الله.. الابتداء بالاعذار، والانتهاء بالانذار، قبل انفاذ الاقدار في اهل الشقاق، والآصار. لتكون الحجة على

من خالف وعصى، والعقوبة على من باين وغوى، حسبما قال جلّ، وعزّ: «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً» «وإنْ من امة الاّ خلا فيها نذير» وقوله سبحانه: «قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني، وسبحان الله، وما انا من المشركين» وقال: ﴿فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وان تولوا فانما هم في شقاق﴾.

اما بعد... ايها الناس... فانا نحمد الله بجميع محامده، ونمجده باحسن مماجده حمداً دائماً ابداً، ومجداً عاليا سرمداً، على سبوغ نعمائه، وحسن بلائه، ونبتغي اليه الوسيلة بالتوفيق، والمعونة على طاعته، والتسديد في نصرته، ونستكفيه ممايلة الهوى، والزيغ عن قصد الهدى ونستزيد من اتمام الصلوات، وافاضة البركات، وطيب التحيات، على اوليائه الماضين، وخلفائه التالين منا ومن ابائنا الراشدين، المهديين، المنتخبين، الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون.

ايها الناس....!! قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن ابصر فلنفسه، ومن عمي فعلبها، ليذكر من يذكر، وينذر من ابصر واعتبر.

كتابنا هذا من فسطاط مصر، وقد جئناها على قدر مقدور، ووقت مذكور، فلا نرفع قدماً، ولا نضع قدماً، الا بعلم موضوع، وحكم مجموع، وأجل معلوم وامر قد سبق، وقضاء قد تحقق.

فلما دخلنا، وقد قدر المرجفون من اهلها ان الرجفة تنالهم، والصعقة تحل بهم، تبادروا، وتعادوا شاردين، وجلوا عن الاهل، والحريم، والأولاد، والرسوم.... وانا لنار الله الموقدة، التي تتطلع على الافئدة، فلم اكشف لهم خبرا، ولا قصصت لهم اثرا... ولكني امرت بالنداء، واذنت بالامان، لكل باد وحاضر، ومنافق، ومشاقق، وعاص ومارق ومعاند، ومسابق، ومن اظهر صفحته، وابدى سوأته، فاجتمع الموافق، والمخالف، والبائن والمنافق... فقابلت الولي بالاحسان، والمسيء بالغفران، حتى رجع النائي والشارد، وتساوى الفريقان واتفق الجمعان، وانبسط القطوب، وزال

الشحوب، جرياً على العـادة بـالاحسـان، والصفـح، والامتنـان، والرأفـة والغفران، فتكاثرت الخيرات، وانتشرت البركات كل ذلك بقدرة ربانية، وأمرة برهانية. فأقمت الحدود بالبنية، والشهود في العرب والعبيد، والخاص والعام والبادي والحاضر، بـاحكـام اللـه عـز وجـل... وآدابه، وحقـه، وصوابه.. فالولي آمن جذل، والعدو خائف وجل.

فاما انت ايها الغادر الخائن، الناكث، البائن عن هدى ابائه واجداده، المنسلخ عن دين اسلافه وأنداده، والموقد لنار الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنة، فلم اغفل امرك، ولا خفي عني خبرك، ولا استتر دوني اثرك، وانك مني لمنظر ومسمع.. كما قال الله جل وعز: ﴿اني معكما اسمع وأرى﴾ .. ﴿ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت امك بغيًّا﴾ .

فعرفنا على اي رأي أصلت، وأي طريق سلكت اما كان لك بجدك ابي سعيد اسـوة، وبعمـل ابي طـاهـر قـدوة؟ امـا نظـرت في كتبهـم، وأخبارهم؟ وقرأت وصاياهم، وأشعارهم؟ اكنت غائباً عن ديارهم، وما كان من اثارهم؟ الم تعلم انهم كانوا عبادا لنا اولي بأس شديد، وعزم اكيد وامر رشيد، وفعل حميد؟ يفيض اليهم موادنا، وينشـر عليهم بركاتنا، حتى ظهروا على الاعمال، ودان لهم كل امير ووال، ولقبوا بالسادة، فسادوا منحة منا واسماً من اسمائنا، فعلت اسماؤهم، واستعلت هممهم، واشتد عزمهم، فسارت اليهم وفود الآفاق، وامتدت نحوهم الاحداق وخضعت لهيبتهم الاعناق، وخيف منهم الفساد والعناد، وان يكونوا لبني العباس اضدادا، فعبيت الجيوش، وسار اليهم كل خميس، بالرجال المنتخبة، والعدد المهذبة، والعساكر الموكبة، فلم يلقهم جيش الا كروه، ولا رئيس الا اسروه ولا عسكر الا كسروه والحاظنا ترمقهم، ونصرنا يلحقهم كما قال الله عز وجل: ﴿انا لننصر رسلنا (والذين آمنوا) في الحياة الدنيا... «وان جندنا لهم الغالبون»... وان حزبنا لهم المنصورون...﴾ .

فلم يزل ذلك دأبهم، وعين الله ترمقهم، الى ان اختار لهم ما اختاروه

من نقلهم من دار الفناء الى دار البقاء، ومن نعيم يزول الى نعيم لا يزول فعاشوا محمودين، وانتقلو مفقودين، الى روح وريحان، وجنات النعيم، فطوبى لهم وحسن مآب.

ومع هذا، فما من جزيرة في الارض، ولا اقليم الا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون الينا، ويدلون علينا، ويأخذون تبعتنا، ويذكرون رجعتنا، وينشرون علمنا، وينذرون بأسنا، ويبشرون بأيامنا. بتصاريف اللغات، واختلاف الألسن وفي كل جزيرة، واقليم رجال منهم يفقهون. وعنهم يأخذون. وهو قول الله عز وجل:

﴿وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم﴾ وانت عارف بذلك.

فيا ايها الناكث الحانث... ما الذي ارداك، وصدك؟ اشيء شككت فيه، ام امر استربت به؟ ام كنت خلياً من الحكمة، وخارجاً عن الكلمة، فأزالك، وصدك، وعن السبيل ردك؟ ان هي الا فتنة لكم ومتاع الى حين وايم الله لقد كان الأعلى لجدك، والارفع لقدرك، والافضل لمجدك، والأوسع لرفدك، والانضر لعودك، والاحسن لعذرك، الكشف عن احوال سلفك، وان خفيت عليك، والقفو لآثارهم، وان عميت لديك، لتجري على سنتهم، وتدخل في زمرهم، وتسلك في مذهبهم. اخذاً بامورهم في وقتهم، وزمرهم في عصرهم، فتكون خلف قفا سلفا بجد وعزم مؤتلف، وامر غير مختلف. لكن غلب الران على قلبك والصدأ على لبك، فأزالك عن الهدى، وأزاغك عن البصيرة، والضياء، وأمالك عن مناهج الأولياء، وكنت من بعدهم كما قال الله عز وجل:

﴿فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾.

ثم لم تقنع في انتكاسك، وترديك في ارتكاسك، وارتباك، وانعكاسك،

من خلافك الآباء ومشيك القهقرى، والنكوص على الاعقاب، والتسمي بالالقاب، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان، وعصيانك مولاك، وجحدك ولاءك حتى انقلبت على الادبار، وتحملت عظيم الأوزار، لتقيم دعوة قد درست، ودولة قد طمست. . انك لمن الغاوين، وانك لفي ضلال مبين. ام تريد ان ترد القرون السالفة، والاشخاص الغابرة؟ اما قرأت كتاب السفر، وما فيه من نص، وخبر؟ فأين تذهبون؟ ان هي الا حياتكم الدنيا، تموتون، وتظنون انكم لستم بمبعوثين؟ قل: بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم، وذلك على الله يسير.

اما علمت ان المطيع آخر ولد العباس، وآخر المترئس في الناس؟ اما تراهم كأنهم اعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية؟ ختم والله الحساب، وطوى الكتاب، وعاد الامر الى اهله، والزمان الى اوله، وأزفت الآزفة ووقعت الواقعة، وقرعت القارعة، وطلعت الشمس من مغربها، والآية من وطنها، وجيء بالملائكة، والنبيين، وخسر هنالك المبطلون، هنالك الولاية لله الحق والملك لله الواحد القهار، فله الامر من قبل، ومن بعد. ويومئذ يفرح المؤمنون، بنصر الله ينصر من يشاء ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت، وتضع كل ذات حمل حملها: وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد»﴾ .... فقد ضل عملك، وخاب سعيك، وطلع نحسك، وغاب سعيك، حين آثرت الحياة الدنيا على الآخرة، ومال بك الهوى، فأزالك عن الهدى، فان تكفر انت، ومن في الارض جميعاً فان الله هو الغني الحميد ثم لم يكفك ذلك من بلائك، وطول شقائك، حتى جمعت ارجاسك، وانجاسك، وحشدت اوباشك واقلاسك وسرت قاصداً الى دمشق، وبها جعفر بن فلاح في فئة قليلة من كتامة وزويلة، فقتلته، وقتلتهم جرأة على الله، وردا لامره واستبحت اموالهم، وسبيت نساءهم، وليس بينك وبينهم ثرة، ولا ثأر، ولا حقد، ولا ضرار، فعل بني الاصفر، والترك، والخزر، ثم سرت امامك، ولم ترجع، وأقمت

على كفرك ولم نقلع، حتى اتيت الرملة وفيها سعادة بن حيان في زمرة قليلة، وفرقة يسيرة، فاعتزل عنك الى يافا، فلم تزل ماكتاً على نكثك، باكراً، وصابحاً وغادياً، ورائحاً، تقعد لهم بكل مقعد، وتأخذ عليهم كل مرصد، وتقصدهم بكل مقصد، كانهم ترك، وروم، وخزر، لا ينهاك عن سفك الدماء دين، ولا يردعك عهد ولا يقين. قد استوعب من الردى حيزومك، وانقسم على الشقاء خرطومك. اما كان لك مذكر، وفي بعض افعالك مزدجر؟ او ما كان لك في كتاب الله عز وجل معتبر حيث يقول:

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها، وغضب الله عليه، ولعنه، وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾ . . .

فحسبك فعلة بها يلقاك يوم ورودك، وحشرك، حين لا مناص، ولا لك من الله خلاص، ولم تستقلها وكيف تستقبلها؟ وانّى لك مقبلها؟ هيهات . . . هيهات . . هلك الضالـون، وخسر هنـالـك المبطلـون، وقـل النصير، وزال العشير . . ومن بعد ذلك تماديك في غيك، ومقامك في بغيك، عداوة لله ولأوليائه، وكفراً لهم، وطغياناً وعمى، وبهتانا . اتراك تحسب انك مخلد، ام لأمر الله راد؟ ام يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره، ولو كره الكافرون؟ هيهات لا خلود لمذكور، ولا مرد لمقدور، ولا طافىء لنور، ولا مفر لمولود، ولا قرار لموعود .

لقد خاب منك الأمل، وحان لك الأجل، فان شئت، فاستعر للتوبة بابا، وللنقلة جلباباً، فقد بلغ الكتاب اجله، والوالي امله، وقد رفع الله قبضته عن افواه حكمته، ونطق من كان بالامس صامتا، ونهض من كان هناك خائفا . ونحن اشباح فوق الامر، والنفس دون العقل، وأرواح في القدس، نسبة ذاتية، وآيات لدنية، نسمع ونرى، ما كنت تدري ما الكتاب، ولا الايمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون .

ونحن عارضون ثلاث خصال، والرابعة اردى لك، واشقى لبالك، وما

احسبك تحصل الاّ عليها . . فاختر :

امّاً قدت نفسك بجعفر بن فلاح، واتباعك بـا نفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله، ورجال سعادة بن حيان، ورد جميع ما كان لهم من رجال، وكراع، ومتاع الى آخر حبة، من عقال ناقة، وخطام بعير، وهي اسهل ما يرد عليك. واماًّ ان تردهم احياءً في صورهم، وأعيانهم، وأموالهم، واحوالهم، ولا سبيل ذلك الى ذلك ولا اقتدار. وامّا سرت ومن معك بغير ذمام، ولا امان، فاحكم فيك وفيهم بما حكمت، واجريتم على احدى ثلاث :

امّا قصاص، وامّا من بعد، وامّا فداء... فعسى ان يكون تمحيصاً لذنوبك، واقالة لعثرتك، وان ابيت الاّ فعل اللعين ، فاخرج منها فانك رجيم، وان عليك اللعنة الى يوم الدين.. اخرج منها.. فما يكون لك ان تتكبر فيها، وقيل اخسئوا فيها، ولا تكلمون، فما انت الاّ كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار. فلا سماء تظللك، ولا ارض تقلك، ولا ليل يخبك، ولا نهار يكنك، ولا علم يسترك ولا فئة تنصرك. قد تقطعت بكم الأسباب. وأعجزكم الذهاب، فأنتم كما قال الله عز وجل :

« مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء، ولا الى هؤلاء، فلا ملجأ لكم من الله يومئذٍ، ولا منجى منه، وجنود الله في طلبك قافية.... فلا تجد في السماء مصعدا، ولا في الارض مقعدا، ولا في الارض، ولا في البحر منهجاً، ولا في الجبال مسلكاً، ولا في الهواء سلما، ولا الى مخلوق ملتجأً... حينئذٍ يفارقك اصحابك، ويتخلّى عنك احبابك، ويخذلك اترابك، فتبقى وحيداً فريدا، وخائفاً طريدا، وهائماً شريدا.. قد الجمك العرق، وكظك الغلق، وأسلمتك ذنوبك، وازدراك خزيك.. كلاَّ لا وزر، الى ربك يومئذٍ المستقر، ينبأ الانسان يومئذٍ بما قدمَّ وأخرّ.

« المعز لدين الله »

وقد رد الاعصم على كتاب المعز لدين الله، بالقليل من الكلام وهذا جوابه كما ورد:

« وصل كتابك الذي قلَّ تحصيله، وكثر تفصيله، ونحن سائرون اليك في اثره والسلام

« الحسن بن احمد »

اعتبر المؤرخون كتاب المعز لدين الله الى الحسن الاعصم، وثيقة تاريخية تصوّر مراحل الحرب التي دارت بين القرامطة والفاطميين، وما جرى بين الاعصم، وجعفر بن فلاح، وسعادة بن حيَّان، كما يظهر الكتاب العلاقات القديمة بين القرامطة الأولين اجداد الاعصم والفاطميين. مضافاً الى ذلك الى ان الرسالة اعتبرت آية في الدبلوماسية، لان المعز لدين الله استطاع ان يجلب اليه العديد من القرامطة الذين كانوا يحاربون، فنقموا على الاعصم عندما تبين لهم انحرافه عن طاعة الفاطميين وهم ائمة القرامطة، واتباعه طريق العباسيين المعادي لدينهم، ولهذا ذكر انهم كانوا يفرون من جيشه، ويلجأون الى الجيش الفاطمي.

ومهما يكن من امر، فان الاعصم واصل زحفه حتى عين شمس، فانتشر جيشه في هذه الجهات من نواحي مصر، وأمر عماله بتحصيل الاموال، والضرائب من عموم الصعيد. واخيراً:

هاجم القرامطة القاهرة، فاخترقوا الخندق، ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحام السور الذي بناه جوهر حول المدينة... وفي تلك الساعات الحاسمة تمكن المعز لدين الله من احداث ثغرة كبيرة في صفوف القرامطة، فاتفق مع حسَّان بن جرَّاح الطائي على التظاهر بالهزيمة.. والفرار من الميدان ممَّا يثبط همة القرامطة، ويجعل الذعر يدب في صفوفهم... وبالفعل نفَّذ حسان وعده، وتقهقر امام الجيش الفاطمي... لقاء مبلغ كبير من المال... وكان هذا التدبير مقدمة لهزيمة الاعصم.

ان هذه المعركة الرهيبة قادها ببسالة « الأمير عبد الله بن المعز لدين الله » و « علي بن جعفر بن فلاح » لان جوهر في ذلك الوقت كان مجهداً، وفي عزلة تامة.

اجل . . . لقد ضيَّق الامير عبد الله الخناق على الاعصم، وأرغمه اخيراً على التقهقر . . . وذكر ان الاسرى من جيشه فاقت الحد، ولم يكتف الامير عبد الله بذلك، بل لحق بالاعصم مطارداً حتى اذرعات بقرب عمّان . . . وهنالك اسرع بالذهاب الى دمشق، ومنها الى البحرين، يجرُّ اذيال الخيبة، تاركاً بعض قواد القرامطة في بلاد الشام، وعلى راسهم ابو منجا . . . . وذكر :

ان الامير عبد الله، وعلي بن جعفر بن فلاح، ابديا من ضروب البسالة، ما تحدثت به الناس في كل مكان . . . . . وفي الشام استعان علي بن جعفر بقبائل طي، وبظالم بن موهوب العقيلي الذي انضمَّ اخيراً الى الفاطميين، فقبض على ابي منجا القرمطي وابنه، وسلمهما الى القائد الفاطمي، وعلى الأثر استخلف الفاطميون ظالم بن موهوب على دمشق وذلك في شهر رمضان سنة ٣٦٣ هـ .

جوهر امام التاريخ :

ذكرت المصادر التاريخية الفاطمية :

ان المعز لدين الله الفاطمي حزن حزناً عميقاً لدى سماعه خبر مقتل جعفر بن فلاح على الصورة التي ذكرناها . . . فجعفر بنظره كان من قواد الدولة الفاطمية البارزين الذين اخلصوا، وضحوا بكل غالٍ، ونفيس في سبيل عزتها، ومجدها، وسؤددها . وذكر :

انه عاتب جوهر عندما وصل الى مصر عن تغاضيه، وتقصيره بامداد جعفر بالجنود، والعتاد في حروبه، كما انه اخذ عليه اهماله كل ما يتعلق بفلسطين، والشام ابآن وجود جعفر بن فلاح، ولم يقنع، المعز لدين الله

بالاعذار التي قدمها جوهر، وظلّ على رأيه القائل، بان تقاعس جوهر هو الذي ادّى لهذه المأساة الكبرى وكل هذا جعل المعز لدين الله ينظر الى جوهر نظرة تختلف عن نظراته الاولى .

ولكن لا بد من القول :

بان مقاليد الامور، وكافة الصلاحيات في مصر، ظلّت بأيدي جوهر الصقلي حتى قدوم المعز لدين الله، وذلك لمدة تزيد على الشهرين، وعندما استقر، ودرس الأوضاع، قبض على زمام الامور بحزم واستأثر بكافة الصلاحيات، ولم يترك لأحد اي مجال لتخطي الحدود، والصلاحيات، وقد ثبت انه سلب جوهر صلاحياته، ونفوذه، منذ اليوم الأول، ولكنه ابقاه الى جانبه يستشيره في كل ما تتطلبه البلاد من اصلاح . ولم يذكر التاريخ، والوقائع : ان المعز لدين الله قد حفظ لهذا الفاتح الكبير ما كان له من الايادي البيضاء على الدولة الفاطمية، وما قام به من فتوحات، واعمال، وتثبيت لدعائم الخلافة الفاطمية في المغرب، ثم صد هجمات القرامطة، والاخشيديين عن مصر . . . تلك الهجمات التي كادت تعصف بالدولة الفتيّة .

ولكن ثبت ان المعز لدين الله اقصاه عن مناصب الدولة الكبيرة، والصغيرة، وجعله في عزلة تامة عن كل ما من شأنه سياسة الدولة الفاطمية . . امّا الاسباب فعديدة . . . وربما كان بعضها مجهولاً حتى الآن .

وهكذا نرى جوهر الصقلي، يتوارى قليلاً قليلاً عن المسرح الفاطمي، ولم يعد الى الظهور الاّ في بدء عام سنة ٣٦٦ هـ . حينما تفاقم خطر أفتكين التركي، والحسن الاعصم القرمطي، وفي تلك الفترة استعصى على قواد الجيوش الفاطمية ايقاف القوى الجرارة المهاجمة . . . وكان المعز لدين الله قد توفي سنة ٣٦٥ هـ، وتسلّم شؤون الخلافة العزيز بالله، فلجأ العزيز الى جوهر، وولاّه قيادة جيوشه، ولم يكن جوهر في هذه المرحلة اقل اخلاصاً لمولاه الجديد من المعز لدين الله .

ومهما يكن من امر . . . فنحن لا ندري سبب موقف المعز لدين الله من قائده جوهر . . . كما قلنا . . . ولعلّ الخليفة الفاطمي سلك معه الطريق الذي سلكه غيره من الملوك، والخلفاء مع عظماء قوادهم، ممن اسسوا الدول، وفتحوا الامصار، وذلك اتقاءً من انتفاضاتهم، وخشيةً على ملكهم منهم . . . ولن يعوزنا الدليل . . . فقد قتل ابو جعفر المنصور العباسي قائده ابا مسلم الخرساني، وكذلك فعل عبيد الله المهدي الفاطمي بقائده، وداعيته ابا عبد الله الشيعي . امّا المعز لدين الله فكان احسن حالاً، واكثر رأفة بقائده جوهر .

والحقيقة :

فان جوهر الصقلي لم يكن قائداً عادياً، فالتاريخ افرد له الصفحات الطوال، ووضعه في عداد القواد العالميين الذين يضمون الى جانب خبرتهم العسكرية معرفة بادارة البلاد، وسياسة الشعوب، واختيار المعاونين، والاصحاب . وعندما يختلف علماء الاجتماع في عظماء الرجال، ويذهبون فيهم مذاهب شتى . . يقول بعضهم :

ان الرجل العظيم هو ابن الساعة، ووليد الظروف . . . تخلقه الايام . . . وتنشئه الحوادث، وتهيء له الفرص، ما لم تهيء لغيره، وتخلع عليه من مظاهر العظمة ما تضن به على سواه . . . وليس الرجل العظيم هو الذي يخلق الظروف، ويرغم الحوادث على السير طوع ارادته، والمضي في الطريق الذي يشقه لها .

ولا غرو فقد كان لجوهر الصقلي من المواهب التي طالما املت ارادتها على الايام، وفرضت رأيها على الحوادث، وكل هذا جعل منه قائداً موفقاً، وسياسياً حكيماً . . . الاّ ان هذا وحده لا يكفي . فلو لم تتح الظروف لجوهر الاتصال بالمعز لدين الله، وهو في بلاد المغرب، ولو لم يحز على اعجابه، ويوليه ثقته، ويمنحه رتبة قيادة جيوشه، كما ظهرت مواهبه النادرة، وقوة شكيمته، وحكمته بتوطيد اركان الدولة الفاطمية في

المغرب، والمشرق.... ويكفي ان نعلم انه اخضع بلاد المغرب بمجموعها لسلطان الفاطميين في اقل من عام بينما عجز الكثيرون عن ذلك في اعوام عديدة، كما انه فتح مصر في خلال ايام معدودة، بينما عجزت ثلاث حملات عن الوصول الى الفسطاط.. وهكذا تكاثفت ظروف الرجل العبقري، وجاءت معها مواهبه تتعاون لوضع الحجر الاساسي في بناء المجد، والمستقبل.

ولم تقف ثقة المعز لدين الله عند هذا الحد، بل جعله على رأس الحملة التي وجهها لفتح مصر، ونشر الدعوة الفاطمية في المشرق، بعد ان فشل من سبقه من القواد الفاطميين في هذه المهمة العسيرة.

ومن الجلي الواضح ان حظه في مصر لم يكن اقل منه في بلاد المغرب التي كانت ترزح تحت الفوضى والاضطراب، في كل الدولة العباسية التي كانت تحكها اسمياً، وتعجز عن ارسال جندي واحد للمساهمة في رد الاعداء المغيرين.

وعلى الرغم من وقوف المعز لدين الله على حقيقة هذه الاوضاع، فانه كان يرى: ان فتحها يحتاج الى جهود، وقيادة حكيمة، وعقل راجح، وبعد نظر، فاختار جوهر، وسلّمه القيادة العامة، ولا غرابة في ذلك، فقد سبق له ان خبره كاتباً، ووزيراً، وقائداً لجيوشه في المغرب... وفي كل هذه المهمات كان جوهر عند ظن المعز لدين الله... ثم تمّ فتح مصر اخيراً على يديه، واتخذها قاعدة، ومنطلقاً للتوسع، والانتشار عبر فلسطين والشام... ثم بغداد... وعندئذٍ تتحقق احلام المعز لدين الله بالوحدة العربية المنشودة، ويكون الفضل بذلك لمهارة جوهر، وحسن سياسته وقيادته، وتمكنه من اخضاع الظروف الى ارادته.

ان اثار جوهر الصقلي لا تزال حتى يومنا هذا تنطق بعظمة هذا القائد العظيم... كيف لا وهو منشيء القاهرة = المعزّية = وهي اعظم قاعدة اسلامية، واقدم منارة للحضارة العربية، او المدنية التي انبسطت انوارها

على الآفاق، فاصبحت منبعاً للعلوم، والمعارف، وكعبة للفنون، والآداب، ومحط رحّال العلماء، والشعراء.

اجل... كان جوهر احسن مثال للحاكم العادل... يجلس للمظالم بنفسه... يعاقب المسيء، وينصف المظلوم، ويقضي بين الناس بالعدل، ويرد الحقوق الى اصحابها، ويضرب على ايدي المعتدين والعابثين بالامن، ولو كانوا من خاصته، وخلصائه، ويسهر على راحة الشعب، ويمنحه الحرية المطلقة... ويكفي ان المعز لدين الله محضه ثقته، وترك له حكم مصر اربعة اعوام، لم يفكر في خلالها بالحضور اليها.

واخيراً:

مات جوهر في القاهرة سنة ٣٨١ هـ، فعاده الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله في مرضه الاخير وقدم اليه خمسة الاف دينار... وهكذا فعل ولي عهده الحاكم بامر الله... وذكر:

انه امر بتكفينه بسبعين ثوباً ما بين موشى، ومثقل بالذهب... ثم صلّى عليه، ودفنه في القرافة الكبرى.

وبموت جوهر طويت صفحة من صفحات البطولة والعظمة، وغاب القائد الذي لم يهزم في معركة، والسياسي المحنك، والعاقل المدرك، والانسان الطيب... الذي لم يبق في مصر رجل الاّ ومشى وراءه، ولا شاعر الاّ ورثاه، وأشاد برجولته، وشخصيته النادرة، وصفاته العالية، الخالدة على ممر الاجيال.

الصراع في الشام:

لم تكن هزيمة الحسن الاعصم من مصر سنة ٣٦٣ هـ... نهاية الصراع بين القرامطة والفاطميين، فبالرغم من عودة الحسن الاعصم الى البحرين، واستيلاء الفاطميين على بلاد الشام... فان الاخطار عادت من جديد، ولكن هذه المرة من جوانب عديدة... فهناك الروم من جهة، وهناك

أفتكين التركي من جهة اخرى، ومن المعلوم ان افتكين من قواد الاتراك الذين كانوا في خدمة بني بويه، ثم انه ثار على بختيار بن معز الدولة بعد ان انتصر الديلم على الاتراك، ولكن بختيار استعان عليهم بابن عمه عضد الدولة فحلّت الهزيمة بهم، ممّا اضطر افتكين الى الذهاب الى الرحبة وكان معه اربعمائة محارب، فعاضده الحمدانيون، وأمدوه بكل ما يحتاجه، وزيّنوا له احتلال بلاد الشام، واستخلاصها من الفاطميين، فتحالف ايضاً مع القرامطة، ومع بعض اهالي بلاد الشام، وخاصة القبائل العربية . . . . . وكناّ ذكرنا: ان المعز لدين الله استغلّ العداء الذي حدث بين ظالم العقيلي، وابي المنجا القرمطي، ففاوض، ظالم، وعينه على دمشق، وجعل تحت تصرفه جيشاً من اتباعه، ومن المؤيدين للفاطميين . . . وعندما قصد دمشق قبض على ابي المنجا وسجنه مع ابنه، واعتبرت دمشق حينئذٍ من ممتلكات الفاطميين، لان سلطانهم استقر فيها كما استقرّ في مصر . . . . ولم يكتفِ المعز لدين الله بذلك، بل ارسل تعزيزات اخرى الى دمشق للبقاء فيها بصورة دائمة، وكانت مهمتها حفظ الامن، واقرار السلام، والضرب على ايدي كل من يعبث بالامن، او يفكر بالخروج على الفاطميين .

ومن الجدير بالذكر: ان المعز لدين الله ارسل في تلك الفترة قائده علي ابن جعفر بن فلاح الى دمشق على رأس جيش من المغاربة، وجعل مهمته التعاون مع ظالم العقيلي، ولكن ظالم لم يرض عن هذا التدبير، لان اهالي دمشق كانوا لا يزالون يحنقون على الجيش الفاطمي المغربي، اذ لا تزال ماثلة امام اعينهم تصرفاتهم، وسوء ادارتهم وعبثهم، وتعدياتهم .

وتذكر المصادر التاريخية :

انه لم تمضِ سوى ايام حتى دبّ الخلاف بين ظالم وعلي بن جعفر . . . فظالم كان بحكم مركزه مضطراً للوقوف بوجه جنود المغاربة، ومنعهم من التعديات على السكان . . . وتطوّر الخلاف الى حد نشوب اكثر من معركة

بين المغاربة والاعراب . وهذه الاعمال كانت مدعاة لغضب القائد العام على ابن جعفر، فأصدر امره باقصاء ظالم، وعيَّن مكانه ابن اخته « جيش بن الصمصامة » ولكن بعد شهر من هذا التدبير قامت الثورة من جديد في احياء دمشق .

وعندما علم المعز لدين الله بما وقع، اصدر امره بتعيين ظالم العقيلي على اقلم بعلبك، واستعان بريّان الخادم واليه على طرابلس طالباً اليه التوجه الى دمشق، ومعالجة الموقف . . . فجاء الى دمشق وتسلَّم شؤونها، بينما عاد علي ابن جعفر الى الرملة . . . وهكذا استطاع تهدئة الأمور الى حين .

اما افتكين فقد قام بدور كبير في بلاد الشام استمر من سنة ٣٦٤ حتى سنة ٣٦٧ هـ . اي في أواخر عهد المعز لدين الله، وأوائل عهد العزيز بالله . . . ومن الجدير بالذكر انه تمكن بدهائه ورجولته ان يكوّن قوة . وان ينشر نفوذه في بلاد الشام، متخذاً لنفسه شعار محاربة الفاطميين بالتعاون مع القرامطة، والحمدانيين .

وذكرت المصادر :

ان ظالم العقيلي، عاد وتحالف مع عليّ بن جعفر، وسارت جيوشهما معاً للقاء افتكين عندما زحف باتجاه دمشق عابراً طريق حمص، وعندما وصل ضواحي المدينة تجنَّد في جيشه كل من يستطيع حمل السلاح من القبائل وخاصة اهالي دمشق، وكان على رأسهم ابن الماورد، ولهذا لم يتمكن ظالم وعلي من الصمود طويلاً امامه، وخاصة بعد ان جاءت اليهما الاوامر بضرورة ترك جبهة الشام، والعودة الى طرابلس لصد جيوش الروم الغازية .

ان هذا التراجع من قبل الجيش الفاطمي مكَّن افتكين من دخول دمشق حيث اقام الخطبة في مساجدها باسم ـ الطائع العباسي، ومن دمشق زحف باتجاه بعلبك لاخراج ظالم منها، وهناك التقى بجيش الروم، ودخل معه بمفاوضات سلمية انتهت الى اتفاق يقضي بالابقاء عليه في دمشق لقاء جزية

كبرى مع المساعدة في احتلال باقي الاجزاء الشامية، وعندما اخبرهم بانه لا يستطيع الايفاء بتعهداته المالية ما دام ابن الماورد في دمشق يقبض على ناصية الامور، وعندئذٍ هبط الجيش الرومي الى دمشق، وقبض على ابن الماورد، وسلم اليه دمشق.

بعض المصادر تقول:

بان افتكين كانت له ميول فاطمية تظهر احياناً، وتختفي، ولكنه لم يكن قادراً على اظهارها جليةً خوفاً من قيام انتقاضات، وثورات مضادة، وممّا ذكر ايضاً: انه كان يراسل المعز لدين الله، ويعلن انقياده اليه، ورغبته في التعاون معه، فيجيبه المعز لدين الله بضرورة حضوره الى القاهرة للتفاهم، مع التعهد باعادته مكرماً، مشرفاً... ولكن افتكين خاف اخيراً على نفسه من القيام بمثل هذه الخطوة. وفي تلك الاثناء برزت للعيان قوة القرامطة من جديد، فاتصل بهم افتكين، وعقد مع الاعصم محالفة عسكرية كان من بنودها محاربة الفاطميين في كل مكان.

ومهما يكن من امر، فان المعز لدين الله قرّر في النهاية الخروج بنفسه الى الشام لمقاضاة افتكين والقرامطة من جهة، والروم من جهة ثانية، ولكن الأجل وافاه قبل ان يستطيع تحقيق هذه الامنية.

من الواضح:

ان خطة افتكين كانت تهدف الى الاستيلاء على اجزاء بلاد الشام بأكملها، وتجند الفاطميون، وأعدوا قواتهم لقتاله، وكانت امالهم وخطتهم تقضي بالتخلص منه، ولكن الامبراطور البيزنطي يوحنا تزيمكس دخل الى بلاد الشام عن طريق حمص ثم غادرها الى بعلبك، وارسل انذاره الى دمشق، وهنا كان لا بد لافتكين من التحرك.. وتذكر بعض المصادر:

بانه كان للروم عميلاً دمشقياً يسمّى ابو بكر الزيات فقام بدور الوساطة بين افتكين والروم، واتفق الطرفان: على ان يكف الروم عن الدخول الى دمشق لقاء قسط من المال مقداره ثلاثون الف دينار... ومن

الجدير بالذكر ان يوحنا سار بعد ذلك. واستولى على بيروت، ثم اغار على طرابلس ولكنها استعصت عليه، ولم يتمكن من دخولها بسبب مرض مفاجىء اصابه واضطره الى العودة الى بلاده.

بعد هذا اتجه افتكين الى صيدا، واشتبك مع والبها الفاطمي ابن الشيخ وكان قد انضمَّ اليه ظالم العقيلي، فاستطاعا الصمود، ولكن افتكين استعمل اخيراً سلاح الحيلة والدهاء... فأشعرهم انه انهزم امامهم... ولكن ظالم عرف بالمكيدة، ونصح ابن الشيخ وجنوده بعدم الخروج، واللحاق به... ولكنهم لم يصدقوه، وظنوا به السوء. فأتبعوا افتكين، وما زال يستدرجهم حتى عاد اليهم ثانية، وقاتلهم وقتل منهم ما يقرب من اربعة الاف قتيل، وأخيراً استولى على صيدا... بينما فرَّ ظالم الى صور، ومن صيدا اتجه افتكين الى عكا، ففرض على الفاطميين فيها الحصار، ولكنه تركها اخيراً بعد ان رأى استحالة اقتحامها... ومن عكا سار الى طبرية، فحاصرها ودخلها، وبعد ذلك عاد الى دمشق عبر حوران بعد ان اخضع كافة البلدان الشامية والفلسطينية اليه.

ان الاحداث الكبرى التي وقعت في الشام، ازعجت المعز لدين الله، وهذا ما حمله على اعداد جيش كثيف للزحف الى الشام وملاقاة افتكين، ولكن المرض الاخير فاجأه في منتصف ربيع التاني سنة ٣٦٥ هـ وقضى عليه بالموت، فخلفه ابنه العزيز بالله الذي اعاد الى جوهر الصقلي اعتباره، وسلّمه القيادة العامة للجيوش الفاطمية، فزحف الى بلاد الشام، ولقي من الاهوال، والمصاعب في حروبه مع افتكين والقرامطة ما لا يستطيع كاتب ان يصفه، وأخيراً حوصر جوهر وجنده في عسقلان فتمكن بحيلة وخطة تجلّت فيها البراعة من الافلات، وانقاذ جيشه، والعودة الى القاهرة.... وهناك اخذ بتجهيز حملة جديدة، سارت من القاهرة وكان على رأسها الخليفة الفاطمي العزيز بالله... وفي سهول الرملة، وبعد سلسلة من المعارك، فرَّ الاعصم بعد ان فقد اكثر قواته، امّا افتكين فوقع اسيراً،

وسيق الى القاهرة .

وتعتبر هذه المعركة، آخر محطة في حياة القرامطة، اذ بعدها انطوت صفحتهم، وغاب ذكرهم من ساحات القتال، والميادين، واسدل الستار على نشاطهم التاريخي والسياسي والى الابد

اعمال جوهر في مصر

١ ـ الوزارة

لمّا فتح جوهر الصقلي البلاد المصرية، اقَّر الوزير جعفر بن الفرات في منصبه وجعفر، كما مرَّ معنا كان وزيراً اول في عهد الاخشيديين . . . اذ ان جوهر كان في مخاطباته، ومراسلاته له تتوج دائماً بكلمة وزير . . . وكان جوهر بحاجة لذلك، لان معرفة ابن الفرات بأحوال مصر وسياستها اجبرته على ان يجعل منه مستشاره الخاص، ومن جهة اخرى كان يرمي من الابقاء عليه افساح المجال للمغاربة للتدريب على يديه .

ومن جهة ثانية اراد بذلك التأكيد للسنيين بانه لا يقيم وزناً للتفرقة المذهبية، وانه ليس بصدد التعرض للاديان وان كافة الناس عنده سواسية امام العدل والقانون، ومصلحة الدولة الفاطمية .

ورأى جوهر انه اذا اقدم على عزل ابن الفرات من منصبه، وسائر الموظفين السنيين، واحلال المغاربة الفاطميين الشيعة مكانهم، فقد تحدث في البلاد اضطرابات عامة تعرقل ادارة الاعمال الحكومية . . . ومن جهة ثانية فان الوقت كان لا يزال مبكراً امام المغاربة لاستلام المناصب الادارية الكبرى التي يفترض بمن يتسملها الخبرة، والادارة والمرونة .

ان هذا التدبير وحده كان حلاً وسطاً بين الادارتين السنية، والشيعية، وعندما قرَّر جوهر تعيين موظفاً مغربياً الى جانب الموظف المصري، كان يرمي من وراء ذلك تدريب المغاربة على اعمال الدولة تمهيداً لتسلمهم السلطات فيما بعد، وكأني به اراد خلق جيل جديد من الموظفين يستطيع

الفاطميون الاعتماد عليهم في مراحل حياتهم السياسية وهذه السياسة التي سلكها جوهر تتجلّى فيها عظمته، وبعد نظره، والظاهر انها صادفت النجاح العميم في جذب قلوب الرعية، وكان فيها الضمانات لبقاء المناصب والادارات في منجاة من الفساد، والتلاعب، والاستغلال.

وممّا يلفت النظر ان القائد جوهر عمد الى اشراك مرافق مغربي مع الوزير ابن الفرات، ومهمته كانت تنحصر بالسير في ركابه، اينما سار... في غدواته ورجعاته بحجة المحافظة عليه، وفي الوقت ذاته لبكون رتيباً على ما يقوم به من اتصالات، واجتماعات.

وعندما جاء المعز لدين الله الى مصر، عرض ابن الفرات اوضاعه، وشرح له كيف اصبح مسلوب الصلاحية، بحيث انه لا يمارس من الوزارة الاّ اسمها... ثم تقدم اخيراً باستقالته، فحاول المعز لدين الله ان يثنيه عن عزمه، ولكنه رفض، واعتذر ولم يرَ المعز لدين الله بعد ذلك من قبولها على شرط ان يبقى في مصر، وقريباً من الخليفة للاستفادة من خبرته، وخدماته، والاستئناس برأيه في الامور الطارئة.

اجل... شعر ابن الفرات بامتهان كرامته، منذ اللحظات الاولى، عندما اغتصب جوهر كافة الصلاحيات من يده، ولكنه لم يكن يتجرأ على اعلان ذلك لأحد... وعندما جاء المعز لدين الله الى مصر رفض ان يستقبله في الاسكندرية، ولكن كبار المصريين نصحوه، وبينوا له ما تجره عليه، وعلى الآخرين المصريين هذه العملية من غضب، وأعمال عنف ونقمة.. فاستجاب الى طلبهم مرغماً، وعلى مضض، واشترك في الاستقبال.

ومن الطريف انه عندما دخل على الخليفة المعز لدين الله... سأله:

احجَّ الوزير؟

قال: نعم

وزرت قبر الشيخين ؟

شغلني عنهما رسول الله (ﷺ) . . .

كما شغلني امير المؤمنين عن السلام على ولي العهد . . . وكان ولي العهد حاضراً فقال : السلام عليك يا ولي عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته .

هذه القصة تعطي الدليل على ذكاء ابن الفرات ، وسرعة خاطره ، وتخلصه من الشباك في الوقت المناسب . . . . . ومهما يكن من امر ، فبعد استقالة ابن الفرات سنة ٣٦٣ هـ . اسند المعز لدين الله وزارة الدولة المدنية والحربية الى يعقوب بن كلس ، والى عسلوج بن الحسن المغربي . . . ومن المفيد ان نذكر :

بأن ابن الفرات ظلَّ في مصر يعيش فيها كرجل له قيمة كبيرة في الاوساط ، وقد نَمت بينه وبين يعقوب بن كلس صداقة متينة ادَّت اخيراً الى تزويج الفضل بن جعفر بن الفرات من ابنة يعقوب بن كلس . . . وكل هذا ساعد على تقوية اواصر الصداقة بين الرجلين بعهد الخليفتين المعز لدين الله ، والعزيز بالله .

اجل . . . لقد مرَّت حياة ابن الفرات بمراحل عديدة في مصر . . . فكان وزيراً اولياً بعهد الاخشيديين ، ووزيراً مسلوب الصلاحيات بعهد جوهر . . . ثم مستشاراً بالاسم بعهد المعز لدين الله . . . ثم رجلاً عادياً . . . وعاد اخيراً الى الحياة السياسية من جديد ، وتسلَّم الوزارة مرتين بعهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، كما شغل وظيفة صاحب الخراج . . . ومات اخيراً سنة ٣٩١ هـ .

٢ ـ انظمة الحكم :

وضع جوهر الصقلي للبلاد المصرية نظاماً للحكم يختلف عن النظام الذي كان سائداً في عهد الاخشيديين . . . ومن المعلوم ان مصر كانت قبل الفتح الفاطمي مقسمة الى ولايات مستقلة ادارياً ومالياً ، ومرتبطة بالقاعدة العامة ،

فلم يشأ ان يحدث تغييراً كبيراً في التقسيمات الادارية انما احدث تعينات جديدة كان لا بد منها... فأسند الحكم الى اشخاص لديهم الخبرة والتجربة، واكثرهم من المصريين، وجعل في كل ولاية من الولايات التابعة للدولة دواوين يقوم على ادارتها موظفون معاونون للوالي... فكان منهم على سبيل المثال: صاحب الخراج، وصاحب الشرطة، وقاضي القضاة، والمحتسب، وصاحب المظالم... وغيرهم... وكل هؤلاء كان للوالي الحق بالاشراف على اعمالهم، وتقديم التقارير بذلك الى نائب الخليفة جوهر صاحب الصلاحيات بتوزيع المناصب والمسؤوليات في كافة اجزاء الديار المصرية.

ومن الجدير بالذكر ان المعز لدين الله بعد وصوله الى مصر، وافق على هذه التدابير، وأقَّر الاسس الموضوعة لانظمة الحكم الفاطمي في مصر وكانت كما يلي:

اعتبار مصر منقسمة الى اربعة ولايات، او اربعة اقاليم:

الاولى: ولاية «قوص» او الصعيد، ويحكمها عادة والي مغربي فاطمي يعاونه نائب من اهل مصر.

الثانية: ولاية «الشرقية» وهي الاراضي الواقعة شرقي دمياط... ومن اشهر مدنها قلبوب وبلبيس.

الثالثة: ولاية المغربية، ونشمل البلاد الواقعة بين رشيد، ودمياط من اقصى الشمال، الى اقصى الجنوب، ومن اشهر مدنها منوف، وأبيار، والمحلة الكبرى.

الرابعة: ولاية الاسكندرية، ويضاف اليها البحيرة، ومن اشهر مدنها دمنهور والاسكندرية.

وممّا تجدر الاشارة اليه ان كلا من هذه الولايات الاربعة كانت مستقلة عن الاخرى، ولكنها تتصل اتصالاً مباشراً بالقائد جوهر الذي منح والي

الولاية صلاحية تعيين العمال على المدن، والنواحي، والقرى في ولايته مع القيام بكل ما يهم الولاية من النواحي العمرانية، والصحّية والزراعية والادارية، دون الرجوع الى الحكومة المركزية.. مضافاً الى ذلك المحافظة على امن المواطنين، وحريتهم، وراحتهم، والضرب على العابثين بالامن، والخارجين على قوانين الدولة.

وكان على القاهرة والٍ، كما كان على الفسطاط والٍ آخر... وكانا تابعين ايضاً للحكومة المركزية الاّ ان رتبة والي القاهرة كانت اعلى من رتبة والي الفسطاط، بالرغم من انهما متساويان في الراتب.

وقسّم جوهر بعد ذلك الولاية الى ما يسمّى الكورة، والكورة هي مثل المديرية اليوم، وتشمل على مدن وقرى، ويشرف عليها رئيس الكورة، ويعد رئيسها بمثابة المدير او المحافظ اليوم، وله نائب صلاحياته كصلاحية وكيل المديرية... امّا القرية فكان لها عمدة كما هو اليوم.

واشهر الأكوار في عهد الفاطميين... الدقهلية، وجزيرة قويسنا، والشرقية، والغربية، والبحيرة، والجيزة، والفيومة، والاسيوطية... وغيرها.

وممّا تجدر الاشارة اليه... بان كل ما ذكرناه كان مخصصاً لمصر... امّا بلاد النوبة او السودان، فان جوهر اعتبرها من البلدان التابعة لمصر... وطبيعي انها كانت ترتبط بمصر عندما يكون حاكم مصر قوياً، وتنفصل عندما يكون ضعيفاً... وعندما حطّ جوهر الرحال في مصر كانت بلاد النوبة مستقلة تمام الاستقلال، وعلى رأسها ملك مسيحي اسمه «جورج» وكانت المسيحية فيها منتشرة انتشاراً كبيراً فأرسل جوهر الى ملك النوبة كتاباً يطلب اليه الدخول في الاسلام، او دفع الجزية، فقوبل هذا الطلب بالترحيب، ولبّى الملك جورج الطلب الاخير، ورضي بدفع الجزية الى الفاطميين، وظلّت علاقة السودان مع مصر الفاطمية علاقة طيبة لا يشوبها اية شائبة... فلم تصدر عن هذا البلد اية ثورة او اضطراب او عصيان.

ويذكر بعض الؤرخين:

ان العرب القاطنين على ضفاف النيل الازرق قد زاد عددهم في ذلك الوقت حتى انهم استطاعوا ان يبنوا مسجداً في «سوبة» حاضرة المملكة المسيحية، وتبعد اثنا عشر ميلاً عن مدينة الخرطوم.

وبالنسبة لفلسطين، وبلاد الشام فقد اعتبرتا أيضاً من ملحقات مصر، وتقسَّمت الى ولايتين:

الاولى ـ في الجنوب وقاعدتها الرملة.

والثانية ـ في الشمال وقاعدتها دمشق.

وكان والي الشام يملك صلاحية الاشراف على ولاية الرملة، والمعنى ان والي الرملة كان عليه ان يتلقى اوامره من والي دمشق.

اما بالنسبة للحجاز... فان القائد جوهر لم يفكر بارسال اية حملة اليها... فقد كان للدعاية الفاطمية اثرها في هذا البلد، حتى ان الدعاية وصلت الى حد استقطاب جماعة العلويين الحسينيين، وجعلهم من اتباع الدولة الفاطمية، والعاملين لها، وهؤلاء تمكنوا في نهاية المطاف من الاستيلاء على مكة المكرمة، واقامة الخطبة باسم المعز لدين الله... وهذا الانتصار الذي حققه جوهر قوبل بالترحيب والثناء من قبل المعز لدين الله الذي كان لا يزال في المغرب.

ومما يجب ان يذكر:

ان الخطبة ظلت في المدينة ومكة تقام باسم المعز لدين الله حتى وفاته، وبعد ذلك قطعت مما حدا بالخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله الى ارسال حملة تمكنت من محاصرة مكة والمدينة، وظلت تضيق الحصار على العصاة حتى عادوا، واعلنوا عن طاعتهم، وأعادوا الخطبة باسم العزيز بالله... وكل هذا اعتبر انتصاراً للدولة الفاطمية على العباسيين.

ومهما يكن من امر فان الفاطميين دللوا في مناسبات عديدة على

حرصهم على اقامة الشرائع الاسلامية وتعزيز سنن الاسلام... فكانوا يرسلون في كافة المناسبات الكسوات الى الكعبة، وكانوا يبذلون المساعدات والمعونات الكبيرة للبلاد الحجازية... مما اضفى على اسمائهم هالة من الهيبة، والتقدير، والاحترام. وهذا بعكس العباسيين.

٣ ـ الشرطة:

عندما فتح القائد جوهر مصر، واستقر فيها... اخذ بدراسة شؤون الشرطة فرأى انها منظمة، وموزعة، وقائمة باعمالها ومسؤولياتها بكل جد ونشاط لحفظ النظام، واستتباب الامن والقبض على الجناة والفارين من وجه العدالة، وتنفيذ اوامر القضاة والمسؤولين.

ومن الجدير بالذكر: ان شرطة مصر كانت في ذلك الوقت مقسمة الى فرعين رئيسيين:

الأول: فرع شرطة الفسطاط او السفلى.

الثاني: فرع العسكر والقطائع العليا ـ ويقع شمالي الفسطاط.

فكان كل واحد من هذين الفرعين مستقلاً عن الآخر. وكان صاحب الشرطة السفلى ينوب عن امير مصر اذا غاب عن الفسطاط، حتى كثيراً ما كانوا يطلقون على هذه المنظمة اسم خلافة الفسطاط كما ان صاحب الشرطة السفلى والعليا كثيراً ما يصليان بالناس، ويتوليان اعطيات الجند مضافاً الى اعمال وصلاحيات اخرى، مما يعطي الدليل على سمو هذا المركز، وعلو قدره.

ولم يشأ جوهر ان يغير شيئاً في نظام الشرطتين بل ابقى الشرطة السفلى بالفسطاط، ونقل الشرطة العليا الى القاهرة، ومن الجدير بالذكر: انه اسند الشرطة السفلى بالفسطاط الى عروبة بن ابراهيم، وشبل المعرفي وهما شيعيان، كما اسند الشرطة العليا في القاهرة الى رجل شيعي آخر يدعى جبرا، وظل جوهر يشرف بنفسه على هاتين الشرطتين، الى ان جاء المعز لدين الله من المغرب وعندئذٍ منح الوزيرين يعقوب بن كلس، وعسلوج بن

الحسن، صلاحيات الاشراف على ادارة الشرطة. وهناك اصطلاح فاطمي طبق في فترة ما... فكثيراً ما كانت مديرية الشرطة، والقضاء يسندان الى شخص واحد... وكثيراً ما كانت الحسبة، والشرطة ايضاً تسندان الى رجل واحد.

اما في الولايات الاخرى، فقد كان هناك موظفين تابعين لصاحب الشرطة مهمتهم حفظ الامن، واستتباب النظام، ومساعدة القضاة، وحاكم المدينة.

٤ ـ النظام المالي:

وبالنسبة للنظام المالي، فان جوهر وجد فيه الدقة، والتنظيم، وتوزيع الاعمال، وخاصة في الدواوين الخاصة بالخراج، وفي دوائر الضرائب العامة، لهذا لم يدخل عليه اي تحسين، او تعديل.

ومن الجدير بالذكر: ان جوهر جعل الادارة المالية العامة تحت انظاره، ورقابته وكان من برنامجه ان يجعل الحالة المالية مزدهرة، ومستقرة، ولهذا نراه يعنى عناية كبرى بتوفير الغذاء، والطعام للمصريين... والدليل على ذلك انه عند حدوث المجاعة المعروفة طالب المعز لدين الله، وكان لا يزال في المغرب بارسال الغلال، والاموال، وقام هو من جهة بفتح مخازن الحبوب، كما منع الاحتكار، وحال دون حدوث اية شكوى من الرعية، او اي اضطراب في مجال التوزيع، وارضاء الرعية. كما انه اقر على ادارة جباية الخراج علي بن يحيى بن العرمرم وهو مصري، ولم يعزله من منصبه، بل عين الى جانبه رجاء بن صولاب وهو مغربي فاطمي.

وحين قدوم المعز لدين الله الى مصر سلم شؤون البلاد المالية الى يعقوب ابن كلس، وعسلوج بن الحسن وجعل الخراج، والحسبة، والسواحل، والاعشار، والجوالي، والاحباس، والمواريث، والشرطتين تحت امرتهما، وكتب لهما سجلاً بذلك.

وذكرت بعض المصادر:

انه بفضل سهر جوهر على الشؤون المالية بلغ خراج مصر سنة ٣٥٨ هـ ما مقداره ثلاثة ملايين واربعمائة الف دينار، وهذا دليل على تنفيذ جوهر لعهوده التي اقتطعها على نفسه يوم قال للمصريين:

« ولكم علي امان الله التام، العام، الدائم، المتصل، الشامل، الكامل، المتجدد، المتأكد على الايام، وكرور الاعوام.. في انفسكم، واموالكم، واهليكم، ونعمكم، وضياعكم، ورباعكم، وقليلكم، وكثيركم، وعلى انه لا يعترض عليكم معترض، ولا يتجنى عليكم متجن، ولا يتعقب عليكم متعقب».

٥ ـ النظام القضائي:

كان القضاء في مصر عند دخول القائد جوهر الصقلي بيد محمد بن احمد ابن عبد الله بن صالح بن اسامة الذهلي، وهو من اهل البصرة، وكان مالكياً، واديباً، وعلامة، وسهلاً في احكامه، فأحبه جوهر، وقربه اليه، وخلع عليه، وأقره في منصبه، ولكن بعد فترة اخذ يحد من نفوذه، فادخل بعض القضاة المتدرجين في السلك والزمهم باتباع سنن الشيعة في بعض الاحكام، كما اخذ يتدخل في شؤون القضاة، ويشدد الرقابة عليهم.

وعندما جاء المعز لدين الله الى مصر، ابقى القاضي الذهلي، بالرغم من انه ابى ان ينزل عن مطيته عندما استقبله كما فعل غيره، وابى ايضاً ان يقبل الارض، وقد لفت موقفه هذا انظار المعز لدين الله، وسأل خواص حجابه قائلاً:

من هذا الذي خالف الناس كلهم... فقيل له: قاضي مصر.... وعندما لام الذهلي احد مرافقيه على تصرفه... اجابه بصوتٍ عالٍ:

وما هذا...؟ اهو الشمس التي قال رسول الله (ﷺ): من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها.... الم تسمع قول الله تعالى:

﴿ومن اياته الليل والنهار والشمس والقمر.. لا تسجدوا للشمس، ولا للقمر.. واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون﴾... فأرضى

هذا القول الامام المعز لدين الله . . . واستحسنه .

ومما يذكر: ان القاضي الذهلي ظل في منصبه حتى اواخر سنة ٣٦٣ هـ . وفي هذا العام عين المعز لدين الله علي بن النعمان قاضياً مساعداً ، ومعنى هذا ان تعيينه جاء مقدمة لصرف الذهلي . . . وذكر ايضاً : ان المعز لدين الله عين بعد الذهلي ابن ابي ثوبان ولما مات عين ابن النعمان .

٦ ـ المظالم :

اولى جوهر الصقلي شؤون المظالم اهمية خاصة ، وعرف : انه كان يعقد مجلس المظالم بنفسه ، ويدرس القضايا ، والدعاوي التي يقيمها الافراد ، والجماعات على الولاة ، والموظفين عندما يحيدون عن طريق الحق والعدل ، وخاصة على عمال الخراج اذا ظلموا ، واشتطوا في فرض الضرائب وجمعها ، وهكذا بالنسبة لكتاب الدواوين اذا حاولوا الانحراف . . . مضافا الى ذلك المظالم التي يرفعها الجنود المرتزقة ، اذا نقصت ارزاقهم ، او تأخرت تعويضاتهم ورواتبهم ، ثم النظر في اقامة العبادات ، وتنفيذ الحدود الدينية ، كالحج ، وصلاة الجمع ، والجهاد في سبيل الله . . وكان جوهر يجلس في كل يوم سبت وحوله الوزير ، والفقهاء ، وغيرهم . . . وعندما كثرت اشغاله ومهماته اوكل بالمظالم « ابو عيسى مرشد » .

وذكرت المصادر التاريخية :

ان المعز لدين الله ، بعد ان وصل الى مصر ، تسلم هذه المهمة فكان يجلس للمظالم بنفسه احياناً ، او ينيب احداً عنه .

٧ ـ المنشآت والعمران :

القاهرة ـ الازهر

لم يشأ جوهر الصقلي ، ان يقيم مدينة القاهرة في الفسطاط ، او في مدينة العسكر وذلك لان هاتين البلدتين كانتا غاصتين بالسكان السنيين . . . ولكن هذا القول يعوزه الدليل .

فالمعروف: ان جوهر اثر دخوله الفسطاط، وضع اساس مدينة القاهرة، وقصر الخليفة، كما خطط للسور، فجاءت هذه العاصمة كما ارادها محاطة بسور من اللبن الكثيف الكبير الحجم، والى الشرق منه كان يقع قصر الخليفة ومكانه الآن في الموقع المعروف بخان الخليلي، وهناك قصر آخر اقيم بقرب مسجد الحسين، وكان بينهما الميدان المسمى « ما بين القصرين »

كما اختط طريقاً عاماً وسط القاهرة من باب زويلة جنوباً، ويتصل بمدينة الفسطاط ماراً بين القصرين حتى باب الفتوح. وكان يصل الى الفضاء الواقع في الشمال، والى الجنوب الشرقي من قصر الخليفة كان يقع الجامع الازهر. اما السور المحيط بالقاهرة، فقد تم بناؤه سنة ٣٥٩ هـ. والى الجنوب منه تقع مدينة الفسطاط، كما الى الغرب تقع المقس التي كانت تمتد الى النيل - وهي المعروفة في ذلك الوقت بميناء القاهرة.

وكانت القاهرة عند انشائها تمتد من منارة جامع الحاكم حتى باب زويلة، وكانت حدودها الشرقية هي نفسها حدود القاهرة الحالية. اما من الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج.

وتذكر المصادر التاريخية:

ان المعز لدين الله امر ان تسمى القاهرة، وعند بنائها سميت « المنصورية » نسبة الى الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله والد المعز لدين الله، او نسبة الى المنصورية عاصمة الدولة الفاطمية في المغرب.

ويظهر ان جوهر اراد ان يسميها: « المعزية » ولكن المعز لدين الله سماها القاهرة تصديقاً لقوله لجوهر عندما ودعه:

« انك ستبني مدينة تقهر الدنيا »

وهناك اقوال تؤكد: بان تسمية القاهرة تعود الى ظاهرة فلكية، وان اساسها وضع وقت طلوع كوكب المريخ او القاهر.

وذكرت « النجوم الزاهرة »:

ان جوهر لما شرع ببناء السور، واقامة القاهرة، جمع المنجمين، وأمرهم ان يختاروا طالعاً لحفر الاساس، وطالعاً لرمي حجارته، وجعلوا بدائر السور قوائم من خشب، وبين القائمة، والقائمة حبل فيه اجراس وأفهموا البنائين ساعة تحريك الاجراس ان يرموا ما في ايديهم من اللبن والحجارة. ثم وقف المنجمون لتحرير هذه وأخذ الطالع، فاتفق وقوف غراب على خشبة من تلك الاخشاب، فتحركت الاجراس، وظن الموكلون بالبناء ان المنجمين حركوها، فألقوا ما في ايديهم من الطين والحجارة في الاساس... فصاح المنجمون: لا... لا... القاهر في الطالع... ومضى ذلك، وفاتهم ما قصدوه.

وكان غرض جوهر ان يختاروا للبناء طالعاً لا يخرج البلد عن نسلهم ابداً فوقع: ان المريخ كان في الطالع وهو مايسمى عند المنجمين القاهر.

وذكر مصدر آخر:

ان القائد جوهر ارسل الى المعز لدين الله كتاباً يخبره فيه بوصوله الى الفسطاط، وشروعه ببناء مدينة تكون عاصمة للدولة الفاطمية... فأجابه:

يا جوهر.... ابنِ مدينة، وسمّها القاهرة، لأني سأقهر بها بني العباس.

وذكر ايضاً:

انها سميت القاهرة لان حروفها بحساب الجمل يأتي مطابقاً لتاريخ تسلم المعز لدين الله شؤون الخلافة الفاطمية وهي سنة ٣٤٢ هـ. فتكون على هذا الشكل:

ا ل ق ا هـ ر هـ

٣٤٢ المجموع ١ - ٣٠ - ١٠٠ - ١ - ٥ - ٢٠٠ - ٥

ومما تجدر الاشارة ان جوهر راعى ببناء القاهرة الموقع الحربي، فجعلها اقرب الى الانتفاع بمياه النيل، كما جعلها غرب حافة الصحراء الشرقية اي

جبل المقطم، وذلك لاغراض الدفاع من الجهة الشرقية.

وذكرت بعض المصادر:

ان المعز لدين الله عندما جاء الى مصر رأى ان هناك خطأً، وكان على جوهر ان يجعل القاهرة على جبل المقطم، او على شاطىء النيل مباشرة..

ومن منشآت جوهر في القاهرة قصر الخليفة (المعزي)... وقد شرع ببنائه داخل المدينة الجديدة اي سنة ٣٥٨ هـ. وانتهى من بنائه في اواخر سنة ٣٥٩ هـ. فأدار عليه سوراً متيناً سنة ٣٦٠ هـ.. ولما جاء المعز لدين الله كان القصر جاهزاً، ومفروشاً، وكان يضم العديد من دواوين الحكومة، ودور السلاح، وقد اعدت فيه المياه درءاً للحريق، كما كثرت فيه الانفاق السرية... فجاء هذا القصر آية في الفخامة، والضخامة، وبلغت حجراته اربعة الاف، ومن مميزاته كثرة ابوابه.... فكان فيه باب الذهب وتعلوه منظرة الجلوس الخليفة عليها، وباب العيد، وامامه رحبة متسعة يقف فيها الجنود في يومي العيدين.. وباب الديلم، ويصل الى قبة الزعفران «وهي مقبرة الخلفاء وسائر الاسرة المالكة» وموضعه الآن خان الخليلي.

اما جامع الأزهر فقد شرع جوهر ببنائه حول منتصف سنة ٣٥٩ هـ، وانتهى من بنائه سنة ٣٦١ هـ اي بعد عامين، وقد كتب على احدى قبابه:

«بسم الله الرحمن الرحيم... مما امر ببنائه عبد الله، ووليه، ابو تميم معد الامام المعز لدين الله.. امير المؤمنين... صلوات الله عليه، وعلى ابائه، وابنائه الاكرمين... على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي وذلك في ستين وثلاثمائة».

هذا... ويعتبر الازهر رابع المساجد الجامعة في حواضر مصر... فقد سبق ان بنى عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط الجامع المعروف بجامع عمرو

سنة ٢١ هـ. وكان يطلق عليه اسم: المسجد الجامع، وتاج الجوامع، والجامع العتيق... ثم اسس العباسيون مسجداً ثانياً انشأه والي مصر صالح ابن علي العباسي، وسمي جامع العسكر، فظل قائماً حتى دخول جوهر مصر، وبنى احمد بن طولون مسجداً في مدينة القطائع... فظلت هذه المساجد الثلاث عامرة حتى جاء جوهر الى مصر وبنى الازهر.

ولا يعرف على التحقيق سبب التسمية... فهناك من يقول: انه سمي بهذا الاسم نظراً لازدهار العلوم، والمعارف فيه... ولكن الحقيقة هو ان هذا الاسم اطلق عليه نسبة لفاطمة الزهراء زوجة الامام علي بن ابي طالب، وابنة الرسول الكريم (ﷺ).

ولم تكن مساحة الازهر في زمن جوهر واسعة... ولكن الزيادات تعاقبت عليه فيما بعد ثم تحول اخيراً من مسجد صغير الى جامعة لنشر العلوم والمعارف، وقد بلغت اعمدته ثلاثمائة وخمسة وستين عاموداً، وكان في احدى مقصوراته التي اعدها جوهر وحدها: خمسة وستون عاموداً من اجود انواع الرخام... وهذه المقصورة كانت خاصة بالخليفة المعز لدين الله... ويصل اليها عن طريق خاص.

ومن منشآت جوهر في الجامع الازهر المحراب القديم امام المقصورة القديمة، غير انه اقيمت محاريب اخرى بلغ عددها تسعة... وأقام جوهر للازهر منارة واحدة... وأخيراً بلغت المنائر خمسة.

ومهما يكن من امر فان جوهر الصقلي ما كاد يستقر في مصر حتى اخذ يعمل على اعداد العقول والاذهان لتقبل العقائد الفاطمية. ففي عام ٣٥٨ هـ. اي بعد عدة ايام من دخوله مصر، امر باقامة الخطبة باسم المعز لدين الله، وفي سنة ٣٥٩ هـ. امر بان يزاد على الأذان عبارة «حيَّ على خير العمل»... كما امر بابطال شعار العباسيين، وأمر الخطباء بارتداء الملابس البيض شعار الفاطميين... ونهى عن التكبير بعد صلاة الجمعة.

ومهما يكن من امر... فان سياسة جوهر مع المصريين كانت تدل على مهارة، وبعد نظر، اذ انه نهج في حكم البلاد المصرية منهج الحذر والتؤدة... فلم يتعمد مواجهة المصريين بالانتقال، وبسرعة من المذهب السني، الى المذهب الشيعي، بل اخذ كل هذا بالتدريج... او ما يسمى: خطوة... خطوة.... واخيراً:

اتخذ من المساجد مدارس لتلقي علوم الدين... كما جعل منها في بعض الاوقات قاعات للمظالم، ولمجالس الشورى.
وفي خاتمة المطاف لا بد من القول:

بان آثار جوهر حتى الان تنطق بعظمة هذا القائد العظيم والفاتح الكبير، والسياسي المحنك... ويكفيه ان يكون منشىء القاهرة المعزية... اعظم عاصمة اسلامية، وأقدم منارة للحضارة، وللعلوم.

عودة الى المغرب:

انقضت الاعوام الاربعة اي من سنة ٣٥٨ هـ الى سنة ٣٦٢ هـ. والخليفة الفاطمي المعز لدين الله في المنصورية عاصمة المغرب، جالساً على كرسيه، يعالج شؤون دولته المغربية... يقيم المنشآت، ويوطد البنيان، ويستنبط القوانين، ويزيد في قدرات الدولة المالية، وهذه الاعوام الاربعة مرت بسلام ولم يتخللها الا قيام بعض الاضطرابات في المغرب الاقصى كان يثيرها الأمويون، فيدفعون بعض اعوانهم من الناقمين لاحداث بعض الفتن واقلاق راحة الدولة، فكان المعز لدين الله بعد ذهاب جوهر الى مصر يخرج بنفسه لتأديب العصاة، واعادة الأمن الى نصابه. وعلى العموم فان هذه الحوادث بمجملها كانت شبه عادية... وكثيراً ما يحدث مثلها في كل دولة.

اجل... اربعة اعوام مرت... والمعز لدين الله قابضاً على شؤون المغرب، وتاركاً مصر وبلاد فلسطين والشام لقائده الامين جوهر الذي منحه ثقته، ومحضه حبه، وفوضه في كل شيء... وجوهر هذا من جهته

كان ملتزماً بأخذ رأي قائده الاعلى، فلا يقوم بعمل الا بعد مشورته، ولا يبرم امراً دون معرفته.

وأخيراً:

قرر المعز لدين الله الذهاب الى مصر... وقراره هذا جاء بعد ورود انباء مزعجة عن تحركات قرمطية عنيفة، ثم ان رسائل جوهر اليه كانت تلح عليه بالحضور، وعلى وجه السرعة، لان الاخطار تحدق بمصر من كل جانب، وان عليه ان يكون على رأس البلاد بحيث يتمكن من الاضطلاع بالمسؤولية الخطيرة.

وهنا تبرز امامه قضية المغرب، فلمن يترك امر حكمها، وادارتها... وهذه البلاد الذي تعب هو واجداده في امر وجودها لا بد له من تسليمها الى اناس مخلصين يحافظون على حدودها، وامنها، واستقرارها وكيانها.

ومن الجدير بالذكر:

انه ترك جزيرة صقلية بأيدي الاسرة الكلبية، وجعلها تابعة لمصر مباشرة، كما جعل من اقليمي طرابلس، وبرقة ولايتين تابعتين للقاهرة وذلك دون ان يكون لنائبه في المغرب الحق بالتدخل في شؤونهما.

اجل.. كان ذلك في اواخر سنة ٣٦١ هـ. وقبل هذا التاريخ استدعى الامير جعفر بن علي... واسرَّ اليه بانه يريد استخلافه في المغرب... فأجابه:

تترك معي احد اولادك، او اخوتك، وتفوضني بأموال الدولة تفويضاً مطلقاً، وتطلق يدي بتقليد القضاء، والخراج... ولا تسألني عن شيء...

فغضب المعز لدين الله وقال:

يا جعفر عزلتني عن ملكي، وأردت ان تجعل لي شريكاً في امري، واسبددت بالاعمال، والاموال دوني،... ثم اخطأت خطأك... وما اصبت رشدك.... «فخرج عنه».

بعدئذٍ اختار «بلكين بن زيري بن مناد» امير صنهاجة، وأعطاه الأمر بحكم بلاد المغرب باسمه، ونيابة عنه، وكان المعز لدين الله يعلم مدى العداوة بين الزناتيين، والصنهاجيين. وذكر ان المعز لدين الله زوده بالتعاليم، وأوجز له خطة الحكم بقوله:

لا تنس ثلاثة اشياء:

اياك ان ترفع الجباية عن اهل البادية... ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تولي احداً من اخوتك وبني عمك، فانهم يرون انهم احق بهذا الامر منك.

وقبل ذهابه الى مصر، جاء برجال كتامة، واستوثق منهم، وأخذ عليهم العهد بمناصرة بلكين. وتذكر المصادر التاريخية:

ان المعز لدين الله عندما استدعى بلكين.. قال له:

تأهب لخلافة المغرب... فأكبر ذلك وأجاب:

يا مولاي... انت وآباؤك الائمة من ولد رسول الله (ﷺ) ما صفا لكم المغرب... فكيف يصفو لي؟ وانا صنهاجي بربري... قتلتني يا مولاي بغير سيف، ولا رمح... فما زال به حتى اجاب واشترط:

ان يولي المعز لدين الله القضاء والخراج لمن يراه، ويختاره، ويجعل الخبر لمن يثق به، ويجعله قائماً بين ايدي هؤلاء، فمن استعصى عليهم يأمره هؤلاء به حتى يعمل ما يجب به، ويكون الامر لهم... ويصير كالخادم بين اولئك.. فوافق المعز لدين الله على ما قاله... وشكره على صراحته ولما انصرف قال ابو طالب بن القائم بامر الله للمعز لدين الله:

يا مولانا... وهل وثقت بما نطق به بلكين وهل يقوم بوفاء ما ذكره...؟ فقال المعز لدين الله:

يا عماه...كم بين قول بلكين وقول جعفر... اعلم يا عم ان الامر الذي طلبه جعفر في اوله، هو آخر ما يصير اليه امر يوسف، فاذا تطاولت المدة

سينفرد بالامر . . .ولكن هذا اولاً احسن وأجود عند ذوي العقل، لانه نهاية ما يفعله.

النظام الاداري في المغرب:

وضع المعز لدين الله للمغرب نظاماً يقوم على الاعتماد على انصاره الموالين قبل كل شيء، وكان اهتمامه بذلك بالغاً، لانه كان يدرك ان رفاهية دولته، انما تقوم عل استتباب الامن بادىء ذي بدء في الولايات، ومن مظاهر الحكم في هذه الولايات، في ذلك العهد، الاستعانة بابناء الانصار الأوائل الذين قامت على سواعدهم دولته الفاطمية، فسلمهم، وأخذهم بالشدة، اذا اهملوا او اساءوا، وشجع المحسن منهم بترقيته، والادرار عليه، وبهذا استطاع ان يشعرهم بالخوف، والرجاء في آن واحد.

واعتمد المعز لدين الله على عنصر الشباب، وعينهم في المناصب التي كان يشغلها اباؤهم، وغرضه ان يحيي فيهم الاخلاص لدعوته، ودولته، ويستغل اخلاص اباؤهم في استتباب الامن، والاستقرار، وكم من مرة زودهم بنصائحه وارشاداته كقوله لهم:

« انّا اردنا ان تصل عوارف ابائنا من اسلافكم فيكم، ونحيي ذكرهم بكم، ونلم شعثكم ونعرف من حالكم . . . فكونوا حيث نريده منكم، ونقدره من الخير فيكم. فأعينونا على ما اردنا الخير بكم، بصالح اعمالكم، وحسن نياتكم، وطوياتكم. فاننا نقدر على تغيير حالكم، وسد فقركم، وان نغنيكم، ولا نقدر على صلاح ما تفسدونه من انفسكم اذا انتم لم تقبلوا على امرنا اياكم، ووعظاً لكم . . . فما السعيد كل السعيد الا من قبل عنا، وامتثل امرنا، وأطاعنا، ولا الشقي الا من خالفنا وارتكب نهينا . . وما نريد في كل ما نفعله فيكم مما تحبونه، او تكرهونه، وتعرفونه، او تنكرونه الا صلاحكم، والخير لكم في دنياكم واخراكم . . . . ان احسنا الى من نحسن اليه منكم، ورفعنا من نرفعه، وانعمنا على من ننعم عليه . . . فما نريد منه بذلك الا ان يعرف فضلنا فيشكره، ويعمل من صالح العمل ما يستدعيه، ويمتري منا المزيد

عليه، ويصل الى رضوان الله، ويرضي بنا عنه، وان عاقبنا من نعاقبه فما نعاقبه إلا تأديباً له، وليرجع عما انكرناه عليه، ونقمناه من امر الى ما يرضي الله تعالى عنه، ويرضينا منه، فيسعد بذلك في الدنيا، والآخرة، وان قتلنا منكم من نقتله ممن يجب القتل عليه، ولا يسعنا ان نبقيه، فما ذلك منا فبه الا تطهيراً له وتمحيصاً لذنوبه، وكل ما تجري به امورنا فيكم... فهو صلاح لعامتكم».

وفي هذه الارشادات، اشعار لهؤلاء العمال والموظفين، بان الخليفة يراقب اعمالهم، ويوجههم لعمل الخير، واسعاد المواطنين... وكل هذا يدخل في نطاق من الحكم القائم على الصلاح والعدل... ويتجلى كل ذلك في ردهم على اقواله:

«نحن يا امير المؤمنين عبيدك، وصنائعك، والمعترفون بفضلك... فما اصبناه فبتقويمك وتأديبك، وما اخطأنا فيه، فنحن نرجو منه رأفتك، ورحمتك».

فأجابهم:

«يعصمكم الله من الخطأ بتأديبنا، وتقويمنا، اذ لا نرى لاحد منكم زلة الا نبهناه، ولا غفلة الا ايقظناه، ولا تخلفاً الا حركناه، ولا تقصيراً الا وعظناه... فليس يهلك مع هذا الا الشقي الذي غلبت عليه شقوته... والله يفيدكم بولايتنا، وجميل رأينا فيكم».

ومما تجدر الاشارة اليه، ان نظام الوراثة لم يكن قائماً... فالمعز لدين الله لم يطبقه في مجال اختيار عمّاله بل كانت الكفاءة، والمقدرة هي المؤهل الوحيد، مضافاً الى ذلك، ان المعز لدين الله لم يترك لأي كان امر انتقاء العمال، والموظفين الكبار، بل كانت مسؤولياته وحده... وكل هذا يدل على انه لم يكن يعهد لأحد بمسؤولية ما الا بعد ان يقف على اخلاقه، وتربيته، ومدى اخلاصه للدولة، وهذا قبل اسناد المهمة اليه، وبعدها ايضاً.

ولم ينس المعز لدين الله ابناء المحاربين، والقواد، والولاة الذين اخلصوا له، ولآبائه... فكان يعطيهم الأولية بالانتقاء، مدللاً بذلك على انه لا ينسى المجاهدين الذين اخلصوا للدولة... وكل هذا يعطي درساً للابناء ايضاً بان اخلاصهم ايضاً ستقدره الدولة، كما قدرت اخلاص الأولين. ومن هنا ازداد الاخلاص، والتفاني في حبه، وتسابق العمال على خدمة الدولة، واقامة العدل، ورعاية المواطنين، واطاعة اوامر الخليفة. ومهما يكن من امر:

فان النظام الاداري الاساسي في المغرب قام على تقسيمات رئيسية... اي ولايات كان المعز لدين الله يختار لحكمها من يثق به، وكان هذا الحاكم للولاية يستقر في المدينة الرئيسية للولاية بحيث يستطيع الاشراف على المدن والنواحي الاخرى، وسائر الجهات.

وكانت بلاد المغرب في ذلك العهد مقسمة على الوجه التالي:

ولاية برقة، وكان يحكمها غلام المعز لدين الله افلح الذي ابى ان يترجل لجوهر عند ذهابه الى مصر... ويليها ولاية طرابلس.. وهذه الولاية كانت مصدر الثورات في عهد عبيد الله المهدي، والقائم بامر الله.... ويلي هاتين الولايتين، ولاية المغرب الاقصى، ومقرها مدينة تاهرت، وكان حاكمها مسؤولاً عن اقليمي فاس وسجلماسة وغيرهما. وكانت صقلية تعتبر ولاية ايضاً.

اما في تونس فكانت المنصورية هي العاصمة... ويتبعها كافة الاجزاء التي في المغرب الأوسط... وبعد انتقال المعز لدين الله من افريقيا الى مصر حدثت بعض الاضطرابات في بلاد المغرب... فأصبحت هذه البلاد «دار امارة» بعد ان كانت «دار خلافة»... وأصبح نائب الخليفة هو المصدر الوحيد للحكم، واضطلع بذلك كما ذكرنا: بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي بعد ان لقبه المعز لدين الله بيوسف بدل بلكين، وسماه ايضاً «ابو الفتوح» و «سيف الدولة» وظل يتلقى الاوامر من هذا الخليفة...

الى ان استقل البيت الصنهاجي عن الفاطميين فيما بعد.

هذا .... ويجب ان لاننسى: ان المعز لدين الله لم يترك لنائبه في المغرب السلطة المطلقة، بل جعل رئاسته الاشراف على بعض الولايات، دون ولايات اخرى... حتى انه عين «زيادة الله بن القديم» على جباية الاموال، و «عبد الجبار الخرساني» و «حسين بن خلف» على الخراج، وعلى الرغم من مركز يوسف، فانهم كانوا يتعالون عليه، ويعتبرون ارتباطهم بالمعز لدين الله مباشرة يعفيهم من اعتباره رئيساً عليهم... ولكن لا بد من القول:

بان يوسف قام باعمال في المغرب تدل على بعد نظر، ودراية، ومرونة في اساليب الحكم... فعين بعض الموالين له في الوظائف الرئيسية... فجعل على تونس «عبد الله بن محمد الكاتب» وكان مقره في العاصمة المنصورية. اما يوسف بن زيري فكان كثير التنقل، لا يستقر في مكان، وظل يتابع الزناتيين، وأنصار الامويين... واخيراً: اتخذ من مدن المغرب الأقصى مقراً له، واستقر في فاس بدليل ان رسائل المعز لدين الله كانت تصل اليه الى هذه المدينة.

ويجب ان لا يغرب عن بالنا: ان يوسف قبض بيد من حديد على شؤون المغرب، ووقف صامداً بوجه تحركات الامويين، والروم الذين استغنموا فرصة ذهاب المعز لدين الله الى مصر... فقوى اسطوله، وكثر عدد جنوده، وحارب بقوة وعزيمة كل من عصاه، حتى انه قبض على بعض اخوته الذين توجس منهم خيفةً فحبسهم، ولكنهم تمكنوا من الفرار من السجن، ولجأوا الى مصر بعهد الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله، الذي تدخل بينهم، وبين اخيهم، وأصلح الامور ثم اعادهم الى المغرب.

ومما تجدر الاشارة اليه: ان يوسف بن زيري لم يكن راضياً عن ابن القديم الذي عينه المعز لدين الله على جباية الاموال، وعندما نشب القتال بين نائبه عبد الله بن الكاتب في المنصورية وابن القديم، زحف يوسف الى

المنصورية، وقبض على ابن القديم، وأنصاره سنة ٣٦٤ هـ. وقتله مع اتباعه، وذكر: ان عددهم بلغ سبعة الاف.

في الطريق الى القاهرة:

غادر الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله مدينة المنصورية... ومنها وصل الى برقة... وكان يرافقه جمع من رجال الدولة... واخوته.. وأولاده، وابناء عمومته... وجثث عبيد الله المهدي، والقائم بامر الله، والمنصور بالله ضمن توابيت.

وعندما وصل الى الاسكندرية خرجت الناس بشيبها، وشبابها لاستقباله، وكان على رأسهم والي المدينة، وقاضي القضاة «الذهلي» والاعيان، وكبار رجال الدولة... فجلس عند المنارة للاستراحة، ثم خطب بالجموع... ومما ذكره:

انه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه، ولا لمال يحصل عليه، وانما جاء لاقامة الحق، والحج، والجهاد، وتطبيق اوامر الله، والحفاظ على سنة الرسول الكريم (ﷺ) ولكي يختم عمره بالاعمال الصالحة. وقد وعظهم، وأطال في الوعظ حتى ابكى الحاضرين.

ومن الاسكندرية تابع المسير، فوصل الى الجيزة... وهناك خرج الى استقباله القائد جوهر الصقلي، فترجل عندما رآه، وقبل الارض بين يديه، وكان في عداد مستقبليه ايضاً الوزير جعفر بن الفرات الذي رغب في الاجتماع اليه على انفراد، وأبقاه معه ثلاثة ايام في الجيزة... ومن الجيزة تابع المسير، فعبر جنوده المرافقين النيل الى مصر، ثم عبر هو على سفينة خاصة جهزت له خصيصاً... ودخل القاهرة دون ان يمر على الفسطاط، وكان اهلها قد زينوها، وأقاموا الاقواس، وتأهبوا لاستقباله...

ولما دخل القاهرة توجه الى القصر الذي اعده له جوهر... فخرَّ لله ساجداً ثم صلى ركعتين في احدى الردهات.. وصلى خلفه كل من كان معه.

وهكذا استقر المعز لدين الله في القصر الكبير مع اولاده، وابناء عمه، وحاشيته، وخدمه وعبيده... وكان جوهر قد اعد كل ما يحتاج اليه الخليفة من اموال، وحلي، وجواهر، وأثاث، ورياش، وأواني، وثيات، وسلاح.
ومن الجدير بالذكر:

ان جوهر كان يقيم في هذا القصر... فلما وصل المعز لدين الله تركه، ولم يحمل معه اي شيء من اثاثه الا ما كان عليه من الثياب... ونزل في داره التي اعدها في القاهرة... وفي اليوم الثاني خرج اشراف مصر، وقضاتها، وعلماؤها لتهنئته، والسلام عليه. فذكر التاريخ:

انه جلس في قصره، على سرير من ذهب، صنعه له جوهر في الايوان الجديد، ثم اذن للناس بالدخول عليه، وكان جوهر بين يديه يقدم اليه الناس قوماً بعد قوم معرفاً اياه بهم، وبعد ان فرغ من السلام على الناس تقدم منه القائد جوهر، وطلب الاذن بتقديم الهدية التي اعدها له بمناسبة قدومه الى مصر... وكانت مؤلفة من :

مئة وخمسين فرساً ملجمة، وبعض السروج، واللجم الموشى بالذهب، وبعضها مرصع بالجواهر، وواحد وثلاثون من الابل، وعليها الديباج، والمناطق، والفرش، وتسعة من النوق المحملة بالحرير، وثلاثين بغلة... سبعة منها مسرجة، وملجمة... ومائة وثلاثين بغلة للنقل، واربعة صناديق مشبكة شفافة يرى ما بداخلها من اواني الذهب، والفضة، ومئة سيف محلى بالذهب، والفضة. بالاضافة الى الاواني، والأوعية، وبعض التحف الثمينة.

ولما فرغ جوهر من تقديم هديته نهض ابو جعفر عبد الله الحسيني، وقدم هديته الى المعز لدين الله وكانت مؤلفة:

من احدى عشر سفطاً من متاع تنيس ودمياط، بالاضافة الى الخيل، والبغال.

وذكر:

انه في اليوم الثاني ركب المعز لدين الله الى مصلى القاهرة، فصلى في الناس، وجلس خلفه ابو جعفر مسلم العلوي.. ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر، ومعه جوهر، وعمار بن جعفر، فخطب وابلغ في خطابه حتى ابكاهم.

ولما عاد الى قصره دعا الناس الى تناول الطعام معه... وبعد ذلك خلع على جوهر خلعة مذهبة، وعمامة، وقلده سيفاً وعشرين فرساً ملجمة مسرجة، وخمسين الف دينار، ومائتي الف درهم. وفي المساء ذهب الى المقس للاشراف على الاسطول الذي عمل جوهر على تقويته، والاكثار من عدد سفنه.

الآثار الفاطمية في المغرب:

عني الفاطميون بالعمارة عناية بالغة، وقد ذكرنا ان عبيد الله المهدي اسَّس مدينة المهديَّة، وجعلها حاضرة لدولته الفاطمية، كما انشأ مدينة اخرى سمَّاها «المحمديَّة»، وعوَّل القائم بامر الله على إنشاء مدينة اخرى كان يريد ان يسميها «القائمية» نسبة اليه، ولكن الحروب، والثورات حالت دون ذلك. امَّا المنصور بالله، فقد ذكرنا ايضاً انه اسَّس مدينة المنصورية ونقل اليها الدولة والدواوين. بعد ان جعل فيها المباني، والقصور..

ومن القصور التي بناها المعز لدين الله بعد ان تسلَّم الخلافة قصره المسمَّى بقصر البحر، وقد اختار موضعه بنفسه، وقاس ابعاده، ووضع تصحيحه بنفسه، ولم يكن اطلاق اسم قصر البحر على هذا البناء، الاَّ لانه يطل على البحر... وكان المعز لدين الله قد اقامه في ارضٍ فسيحة، وأنشأ في وسطه بركة او بحيرة كبيرة متسعة السطح... وأقام قصراً اخر في وسط البحيرة... وبهذا يكون قصر البحر مؤلفاً من قصرين. وقد ذكر

ان المعز لدين الله قال قبل ذلك:

اريد ان أبتني قصراً، وأحتفر في وسطه بحيرة كبرى، ويكون وسط الماء قصراً آخر... وذكر ان المعز لدين الله اقام الجسور لايصال القصرين الى بعضهما... وهذا القصر يشبه قصور قدماء المصريين. وقد ذكر التاريخ:

ان امنحاتب الثالث احد ملوك الاسرة الثامنة عشر بنى قصراً في « طيبة » وأنشأ في وسطه بحيرة كان يتنزه فيها هو، وزوجته.

وفي العاصمة المنصورية انشأ المعز لدين الله البساتين الغنَّاء... ومن هذه البساتين البستان الذي انشأه بوادي القصَّارين على مقربة من المنصورية، وكان قبل ذلك مكاناً موحشاً ينقل منه الناس الاتربة لصنع الطوب، وعمل السماء، فاغترس المعز لدين الله ارضه، وأدار عليه حائطاً، وأجرى عليه الماء حتى اينع اخيراً باصناف الاشجار، والرياحين، والورود، والنوار، وصار من اجمل البساتين.

وكذلك حفر المعز لدين الله قناة كانت اية في الدقة، والروعة، وكانت مياهها تتدفق من الينابيع الواقعة خارج مدينة المنصورية، من مكان يعرف « بعين ايوب » وتبعد عنها اكثر من ثلاثة وسبعين الف ذراع، ويتخلل الطريق الذي تنساب فيه هذه القناة مرتفعات، ومنخفضات وصخور، ثم تنساب في الارض، حتى تصل الى قلب حاضرة الفاطميين.

وكان الخليفة القائم بامر الله قد استغلَّ مياه « عين ايوب » في ايصال المياه الى القيروان ولكن ثورة ابي يزيد حالت دون اتمام هذا المشروع... ولمَّا ولي المنصور بالله الخلافة فكَّر في انجازه لكنه عدل عن ذلك، بعد ان رأى انه يكلف خزانة الدولة اموالاً طائلة.

ولمَّا ولي المعز لدين الله امر بان تجري مياه هذه القناة إلى المنصورية... وممَّا تجدر الاشارة اليه ان الخليفة المذكور استطاع ان ينقل

الى المنصورية عمودين حجريين كانا في مدينة سوسة، وهما من بقايا القرطجانيين او الروم، وكانا من الضخامة بحيث كان النظر اليهما عبرة، وانه لم يتمكن احد من الملوك في الجاهلية، او الاسلام تحريكهما . . . ولكن المعز لدين الله تمكَّن من نقلهما بواسطة عبيده، ومماليكه .

من هنا . . . نرى ان المعز لدين الله لم يتوان، وهو بالمغرب عن النهوض بالفن، حتى ان حاضرته كانت غاية في الروعة، والجمال، كما ان قصوره كانت مضرب الامثال في الفخامة . . . وفي مصر استمرَّ في اعماله العمرانية . . . كما سنفصل :

المعز لدين الله في المشرق :

جمع المعز لدين الله في يده كافة السلطات، وجعل من دولته، دولة تقوم على العلم، والعقل، والاستنارة، واصلاح المجتمع، والنهوض به، وتوفير الامن والاستقرار للبلاد والسعادة، والرخاء للشعب .

وكان الخليفة المعز لدين الله يشرف بنفسه على كافة اجزاء الدولة، بحيث لا تفوته شاردة، او واردة، وكان يعتمد في تصريف الامور، وقضاء الاحوال على نخبة من الموظفين، والمساعدين، والمستشارين اختارهم بنفسه، وبعضهم اعطاه صفة الوزارة من دون تسمية، ومن الواضح: انه قد نجح نجاحاً باهراً في سياسته، وحكمه، سواء في المغرب او في مصر .

امّا الخلافة فكانت مقصورة على البيت الفاطمي، ويشترط فيمن يتولاها ان يحوز على النص من خليفة قبله يشترط فيه ان يكون خليفة ايضاً .

وعندما جاء المعز لدين الله تسلَّم الخلافة بقوة، وجمع بين الدولة، والدعوة . . اي انه تسلَّم السلطتين الروحية، والزمنية، وعمل لكل منهما على ضوء عقله، وتدبيره، ونشاطه، فكان يستمد نفوذه الديني، والسياسي من انتسابه لعلي بن ابي طالب، وفاطمة الزهراء . . . فبذل جهوداً جبَّارة في سبيل الحفاظ على هذا المركز بدقة، ونظام . . . وقد وجد امامه دعاة اقوياء

تمكنوا ان يضموا الى صفوفهم كل فريق موالٍ لعلي بن ابي طالب، وابناء الرسول الاعظم، وهذا النسب اوجد لهم مكانة محترمة في العالم الاسلامي، وغيرهم من العباسيين، والامويين، وأرسى لهم قاعدة كبرى من التقدير والتقديس.

ومن الجلي الواضح: ان الزعامة الاسلامية كانت تمر في صراع على الخلافة الروحية والسياسية، وقد عرف العالم الاسلامي اخيراً ان المعز لدين الله تمتع بها وحده دون سواه.

وبالفعل: اقام المعز لدين الله لنفسه هالة من التقديس بانتسابه الى علي وفاطمة، وجذب اليه قلوب الناس، متخذاً من قانون «التعليم» والعرفان مبدأ خرج به على الناس، فأشاع مبدأ التثقيف، والتعليم، وحضّ على تلقي العلم، لاعتقاده ان دعوته، ودولته يجب ان تسبق الدول الاخرى في هذا المجال.

ومهما يكن من امر، فالمعز لدين الله لم يكن حاكماً مستبداً، او عابثاً، او ماجنا... فاتباعه كانوا يتحدثون باخلاقه، وعفته، وكرمه، وسهره على راحة شعبه... وكل هذا اوجد لديهم مبدأ الطاعة، لان المعز لدين الله كان يعتبر انه من الهداة، والمصلحين، ومحط الآمال.

وقد ذكرنا في الصفحات السابقة:

ان الخليفة الفاطمي القائم بامر الله كان يعتبر عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب والده الروحي، وليس اباه الجسماني، لأن عبيد الله كان اماماً مستودعاً وهو عم القائم بامر الله، وقد اثبت المعز لدين الله ذلك، عندما قصّ على قاضي قضاته النعمان... بان سمع زوجة عبيد الله المهدي تقول لأولادها بعد وفاته:

والله اذا خرج هذا الامر من هذا القصر، فلا يعود اليه أبداً، وسيصير الى ذلك القصر يعني قصر القائم بامر الله، فلا يزال في ذرية صاحبه ما

بقيت الدنيا .

ومعنى هذا ان عبيد الله المهدي لم يكن صاحب الأمر، وانه كان كفيلاً، وقائماً على القائم بامر الله، وكل هذا يتجلّى بتصريحات المعز لدين الله باثبات نسبة الفاطمي، وبتعاليه على العباسيين والأمويين، وقوله: انه صاحب الحق في الخلافة الاسلامية .

ولمّا كانت الخلافة هي السلطة العليا للدولة، وتقوم على الدعاية، فقد حرص المعز لدين الله على اعطائها حقها من التقدير، بان افسح المجال لولي عهده بمشاركته في الاعمال الحربية والادارية والسياسية، وذلك كما فعل المهدي مع القائم بامر الله، والقائم مع المنصور بالله، والمنصور مع المعز لدين الله، والمعز مع ابنه عبد الله الذي سميَ ولياً للعهد... ثم لمّا مات عهد الى ابنه الثاني العزيز بالله .

وقد كشف المعز لدين الله عن خططه المستهدفة النهوض بالرعية... وابان سهره على راحة اتباعة ورعاياه فيقول:

« للناس شغل بدنياهم، وما يتلذذون به منها، وشغلنا اقامة اودهم، وصلاح احوالهم، والنظر فيما يعود عليهم، ويحمي حماهم، ويدفع عنهم، ويحقن دماءهم، ويحصّن حريمهم، وأموالهم، ويكف ايدي المتطاولين اليهم بذلك... نقطع ليلنا، ونهارنا عن ذلك بمعزل، ومنه في غفلة بما هم فيه متشاغلون... فالله المستعان على ما قلدنا من امورهم، وافترضه علينا من القيام بأسبابهم، ونرغب اليه في اصلاحهم، وهدايتهم الى ما فيه حظهم، ونجاتهم في دنياهم، واخراهم »

هكذا كان المعز لدين الله... يعمل لاصلاح، وصالح رعيته، وهذا يفسّر مدى ازدياد نفوذه، وما ناله من ظفر، ونصر في فتوحاته شرقاً، وغرباً، معتقداً بان الخلافة منصب عسير تحفُّ به المتاعب ولكن الله قلّده اياه، وفرضه عليه لانه من سلالة الرسول الاعظم .

وليس من شك بان المعز لدين الله كان يجمع في يديه كافة السلطات، فكان المحرك لجميع اعمال الدولة يعين الولاة على الأقاليم، ويزودهم بنصائحه، ولا يترك المجال لغيره للتصرف بشوؤن الدولة العليا، بل على العكس كان على اتصال بكل ما يجري فيها، وكان بالاضافة الى كل ذلك القائد الاعلى للجيش.. يعين كبار قواده الذين مهروا في الفنون الحربية، وعُرفوا باخلاصهم... وكثيراً ما كان يضع لقواده خطط الهجوم، والدفاع، والحرب، ويشرف بنفسه على تنفيذها، وينظر في المظالم بنفسه هذا بالنسبة لامور الدنيا، أمّا امور الدين، والدعوة فكان يقبض عليها بيد من حديد... فيعين ايضاً كبار الدعاة ويزودهم بكتب الباطن، والتعاليم الفلسفية، وكان على اتصال بهم سواء في المشرق، او في المغرب حتى أصبح له في كل بلد اتباعاً، وانصارا.

بعد كل هذا يمكن القول:

بان الخليفة المعز لدين الله عرف كيف يمثل هذا المنصب، وينتشل الدولة الفاطمية من الاخطار، ويسير بها في طريق مستقيم سليم.

١ ـ الجيش الفاطمي:

لمّا كان الجيش هو العمود الفقري للدول، فان المعز لدين الله اعتمد عليه اعتماداً كلياً، وسعى الى ايجاد جيش قوي منظم، يحمي الحمى، ويساعد على النهوض بالدولة الى جانب اسطول كبير لم يلبث ان اصبح اقوى اساطيل العالم في حينه، وقد تمكّن المعز لدين الله بواسطة هذا الجيش ان يستولي على تونس، والجزائر، ومراكش، وليبيا، ثم النفاذ الى مصر، وفلسطين وبلاد الشام.

ومهما يكن من امر... فان المعز لدين الله اعتمد هو ومن سبقه من الخلفاء والفاطميين على الكتاميين... وهم الذين انضووا تحت لواء ابو عبد الله الشيعي، ثم قرّب غيرهم ممن انس بهم الاخلاص، والاستجابة للدعوة، وللدولة معاً، فأسند اليهم المناصب، والقيادات، ومن هؤلاء الصنهاجيين

والمصامدة . . . وغيرهم .

وكانت جيوش المعز لدين الله تتكوَّن من عنصرين :

الأول ـ وهو الجيش الدائم الذي يكون على اهبة الاستعداد لتلبية مطالب الدولة في كل حين ، والى جانب هذا الجيش الدائم ، فرق من المتطوعة ، ولم يكن اعتماد المعز لدين الله على هؤلاء الاَّ بقدر يسير ، وحينما يكون بحاجة اليهم لسد النقص في الجيش الدائم . وقد ذكرت المصادر الفاطمية : بان هؤلاء المتطوعة كانوا يسارعون الى تلبية النداء حينما تعصف بالدولة العواصف ، فهم كانوا من اصحاب العقيدة ، والايمان ، والمتفانين في طاعة الائمة . وقد ذكر المعز لدين الله مسارعة هؤلاء الى الخروج للحرب . . . كقوله لهم في احدى المواقف :

« بارك الله فيكم ، وأحسن صحابتكم ، والخلافة عليكم . . . فقد صدقتم ظني فيكم ، واملي عندكم ، وانتم من معدن البركة ، وعنصر الخير بكم بدأ الله اظهار امرنا ، وبكم يتمه ، ويصلحه ، بحوله ، وقوته . . وقد اعلمت مسارعتكم الى ما ندبتم اليه ، واجابتكم لم اردتم له ، وأرجو ان تبلغوا من ذلك بحسب الأمل فيكم ويرفع الله عز وجل بذلك درجاتكم ، ويعلي ذكركم . . . . . انتم البنون ، والاخوه ، والأقربون . . ما يعد لكم عندي احد ، ولا يبلغكم من قبلي بشر ، وما ذلك الاَّ لما لي في قلوبكم . . . ما نصر الله ولياً من اوليائه قبلنا بمثل نصرتكم لنا . . على ذلك مضى اولكم ، وعليه انتم على محبتنا ، ونصرتنا ، وموالاتنا . . . فانتم حزب الله ، وأنصاره ، وجنده . . . وأحباؤه . »

وعرف عن المعز لدين الله : انه كان يثير حماسة جنوده بالمال ، وبالمناصب ، ويخوفهم من الله ومن عقابه . . . امَّا المال فكان يدر عليهم الكثير منه ، حتى لا يستطيع احد ان يقارن بين جنوده ، وجنود العباسيين ، او الامويين . . . ولم تقتصر عطاءاته لهم ، بل كان ينفق على ذويهم اثناء غيابهم . . . كما سنَّ قانوناً بالانفاق الدائم على عائلة من يموت في الحرب ، والجهاد . وفي هذه الوثيقة التي وردت في كتاب المجالس والمسايرات

للقاضي النعمان بن حيُّون ما يثبت ذلك. « وهو قول احد المشارقة للخليفة المعز لدين الله:

« اين يبلغ يا امير المؤمنين عطاء غيرك من عطائك . . .؟ ان الذي يعطيه اعداؤك جندهم هو نزر يسير، بالنسبة لعطائك لأوليائك اذا حصل لهم. ان اعداءك انما يعطون الرؤساء من اجنادهم العطاء لهم، ولأتباعهم، ومن قدموه عليه من اجنادهم، ولعبيدهم، وسائر اسبابهم، فيقطع العرفاء من ذلك كثيراً منه لأنفسهم، ويغرقون ما فيه على من قدموا عليه، وربما عاملوهم فيه، ولا يبلغ ما يصل اليهم بعض ما يصل الى اقل عبيد مولانا . . . . ومولانا يسبغ على اوليائه، وعبيده الصلات والأرزاق، والكساء، والعلوفة، والجراية على نسائهم، وأبنائهم . . يقبضون ذلك بايديهم، وان خرجوا في بعث حملهم، ووصلهم، ومن استشهد منهم، او مات ابقى ما كان يجري عليه لخلفيه ويفرق عليهم السلاح، والرواحل، والمضارب، وجميع ادوات السفر عندما يسافرون، مع اقطاعهم القطائع والمزارع واستعمالهم على الاعمال، وتعاهدهم بالهبات الجزلة، والعطايا السنيَّة، وبلغتهم عند اوبتهم من البعوث بالكساء والصلات، والمراكب، والحملانات.

وكل هذا يفسر سبب مغالاة جيوش الفاطميين في طاعة رؤسائهم، وما احرزوه من النجاح، والانتصارات في الحملات التي اشتركوا فيها. امَّا تخويفهم من الله فيتجلّى بقول المعز لدين الله:

« انَّ الله قد امتحن عباده بالجهاد في سبيله معنا، فنحن نندبهم اليه لنعلم المجاهدين منهم، والصابرين، وليرفع الله به درجاتهم، ويجزل مثوباتهم، وينقل حالاتهم. فكم منكم اليوم من ينفذ في هذا الجيش تابعاً يعود متبوعاً، ومرؤوساً يصير رئيساً . . . انَّما ترفعكم عندنا، وعند ربكم بنياتكم، وأعمالكم وبها تتوسلون الينا، والى بارئكم ».

ومن الاصلاحات التي ادخلها المعز لدين الله على نظام الجندية ما كان يوليه قواده من تقدير واحترام، فكان اذا ارسل قائداً من قواده الى مكان

ما قرنه بنفسه، وأبان لجنده انه نائبه، وان طاعتهم لقائدهم هي طاعة له. وقد سنَّ بعمله هذا دستوراً من دساتير الجندية له قيمته من الناحية العلمية. وكان يقول لجنده اذا ودعهّم:

«لا يصلح الناس الا برئيس... وقد قدمت عليكم من علمتموه، وأقمته فيكم مقام نفسي، وجعلته معكم كأذني، وعيني... ولكل امرىء منكم على نفسه بصيرة»

واعتمد المعز لدين الله، وهو بالمغرب على الجيش المؤلف من المغاربة، بينما في مصر فان جيشه كان اكثره من المغاربة، والصقالبة، والسودانيين، وغيرهم، بينما لم يكن فيهم الاَّ عدداً لا يذكر من المصريين.

ويذكر التاريخ:

ان جيش مصر في عهد المعز لدين الله كان مؤلفاً من مائتي الف... امّا المصادر الفاطمية فتؤكد بان عدده كان اربعمائة الف... وأكثرهم من المشاة، الاَّ الكتاميون الذين اشتهروا بالفروسية.

واعتمد المعز لدين الله على ديوان الجند للنهوض بالجيش، بل انه كان يجعل ديوان الخراج، او بيت المال تحت طاعة الجيش، ورهن اشارته.

وممّا تجدر الاشارة اليه:

ان الجيش الفاطمي في عهد المعز لدين الله كان يتكون من فريقين:

الامراء، وطوائف الجند، ولكل من هذين الفريقين مرتبة لا تتجاوزها الى غيرها، فالامراء كان يخلع على بعضهم باطواق من ذهب في اعناقهم، والبعض يركب في المراكب بالقضب الفضيّة التي يخرجها لهم الخليفة من خزانة التجمل.

امّا طوائف الجند، فكانوا يعتبرون اصحاب الفتوحات، ويكفي ان تكون غالبيتهم من كتامة ومن صنهاجة، ومن المصامدة، الذين ساهموا مع جوهر في فتح مصر، والشام.

ومن اشهر فرق الجيش في عهد المعز لدين الله :

السودانية : وكان المعز لدين الله يعتز بهم، حتى انه كان يشركهم في ركوبه في احتفالات عيد رأس السنة الهجرية . . . فكان يختار منهم ثلاثمائة من الشباب الاقوياء، ويعطي لكل منهم درقة، وحربة محلاة بالفضة، ويسمّى هؤلاء: ارباب السلاح الصغير . . . وكان الى جانبهم « الصقالبة » وهؤلاء من الأرقاء الذين يشترون بالمال من بلاد اسيا الصغرى، والبلقان، وكان لهم شأن كبير في عهد المعز لدين الله وبعده . . . وهناك فرقة « الاتراك » وهذه الفرقة كان يعتمد المعز لدين الله عليها اعتماداً كبيراً، وكانت هناك فرقة « الأخشيدية » ايضاً . ومن المعلوم ان لكل فرقة من هذه الفرق قائد خاص مسوؤل امام القائد العام . وعندما استقرَّ المعز لدين الله في مصر ادخل في عداد جيشه اعداداً من الاكراد والفرنجة، والحجرية الكبار، والصغار، والديلم، والاعراب من البدو الرحل .

وكانت فرق الجيش تتخذ الألوية المختلفة الالوان شعاراً لها . . . فتارة تكون خضراء وتارة بيضاء . . . وكثيراً ما كانوا يستخدمون الرايات واسطة للتخاطب بين وحدات الجيش . . . وكانت للجيش الفاطمي فرقة موسيقية مقرها في قصر الخليفة . . . وذكر انها كانت تتقدم ركب المعز لدين الله عندما دخل مصر .

امّا اسلحة الجيش الفاطمي فهي :

الرماح، والحراب، والدروع، والأطبار، والخناجر، والبلط، والغفارات على الرؤوس، والمنجنيقات، والدبابات، والكبش . . . وكانت لديهم فرقة كبرى تسمّى « النفطيّة » مهمتها استخدام النار في الحروب .

٢ ـ الاسطول :

الاسطول بالنسبة للفاطميين كان له اهمية كبرى، وقد ذكر انهم عندما كانوا في المغرب اتخذوا من المهدية قاعدة لاسطولهم، واخيراً جعلوا من

سوسة قاعدة ثانية، وهذا بالاضافة الى قاعدتهم البحرية الكبرى في جزيرة صقلية. ويجب ان لا يغرب عن بالنا: بان الاسطول الفاطمي كان سيد البحار في المتوسط، وان مدن روما الكبرى الواقعة على شواطىء البحار كانت تحت رحمة هذا الاسطول في كافة الاوقات.

اجل... لقد غصَّت المهدية في السفن في عهد المعز لدين الله، ممَّا اضطره الى التفتيش عن قاعدة ثانية تخفف عن هذا الثغر... وتأتي المصادفات حاملة نبأ اكتشافهم في سوسة على سبعة مراجل ازلية الصنع، متقنة ينفذ بعضها الى بعض، وكانت مدفونة تحت الارض... وكان هناك صهريج يجري عنه الماء اليها... وهذه المراجل اذا ما امتلأت بالماء استغنى اهل المدينة عن الماء... وكانت ذخيرة للمراكب.

فرفع ذلك الى المعز لدين الله... فسرَّ به، وأمر باصلاح المراجل، والصهريج... واصبحت سوسة بعد هذا الاكتشاف القاعدة الثانية للاسطول، والدار الصناعية الكبرى لبناء السفن، واصلاحها.

ومن الافكار المعزيَّة:

انه كان يخطط ليجعل من المنصورية قاعدة ثالثة يدل على ذلك قوله:

«لئن امتدَّ المقام هنا... لنجرين البحر بحول الله، وقوته الينا في خليج حتى تكون مراكبنا تحط، وتقلع بحضرتنا».

وبهذا نرى ان المعز لدين الله كان يهتم بتكوين اساطيل قويَّة... وعندما جاء الى مصر عزَّز دار صناعة للسفن في المقس، كما انه لم يهمل الدار الثانية في الفسطاط، والثالثة في الاسكندرية، ودمياط.

ولم يكن بناء السفن في مصر راجعاً الى خوف المعز لدين الله من غارات الروم، والقرامطة على مصر، والشام فحسب، بل كان ذلك راجعاً الى رغبته في بسط نفوذه على البلاد التي قد يتخذها الاعداء طريقاً للاغارة على مصر... كما كان راجعاً ايضاً الى ما كان يهدف اليه من اتخاذ مصر،

وبلاد الشام نقطة يعبر منها الى بغداد، اضف الى ذلك حرصه على ان يكون لاسطوله السيادة والتفوق على سائر اساطيل البحر الابيض المتوسط... ولا غروّ فقد دخلت في حوزة المعز لدين الله بعد ان تمّ له فتح مصر، وفلسطين، والشام....... البلدان الواقعة على البحر الابيض من انطاكية حتى سبتة، كما وقعت في يده موانىء المغرب الاقصى المطلة على المحيط الاطلسي ايضاً... مضافاً الى ذلك القواعد البحرية المهمة مثل: صور، وصيدا، وعكا، وبيروت، وعسقلان.

وبالنسبة للسفن الفاطمية... فقد كانت مختلفة الانواع.. واهمها:

الشلنديات: وهي المراكب المسطحة... وتختص بحمل العتاد، والجنود.

الشواني الحربية: وهي سفن كبيرة فيها الابراج... وهي ايضاً اشبه ما تكون بالبوارج الحربية المعدة للهجوم والدفاع.

والمسطحات، والطرادات، والعشاريات، والحراقات.

وقد قرأنا في كتب التاريخ موقف هذا الاسطول من صور، وسواها في حروبه مع الروم، وقرأنا كيف اتخذ القائد جوهر الصقلي من عكا، وعسقلان مستودعات للامدادات التي كانت تتدفق على جيوش الفاطميين في بلاد الشام.

وبالنظر لأهمية هذه السواحل، كان المعز لدين الله يعين عليها القوّاد، والولاة الاقوياء، وقد قدرت سفن الاسطول الفاطمي التي بنيت في دور الصناعة في مصر بأكثر من الف قطعة مختلفة الاشكال، والاحجام....... وكان للاسطول امير يدعى «قائد القوّاد» وقد سمي بذلك لان تحت امرته وبصورة دائمة عشرة قوّاد، كما كان يطلق عليه اسم «امير الجيش» او «المستوفي». وقد بلغ من عناية المعز لدين الله انه كان ينفق عليه بنفسه، ويساعده احد الوزراء، ولم تكن بحّارة الاسطول من رتبة واحدة... وذكر: بان المعز لدين الله كان يقطع رجال الاسطول اقطاعات عرفت

باسم: «ابواب الغزاة»... وكان يترك لهم الغنائم، والمال، والثياب، والمتاع، ولا يستبقي سوى السلاح، والاسرى... وعندما كان الاسطول يقوم بمهمة كان المعز لدين الله يحضر بنفسه حفلة الوداع، والاستقبال، فيبارك رجاله، ويدعو لهم بالتوفيق.

ومِمّا تجدر الاشارة اليه ان عناية المعز لدين الله لم تكن تقتصر على الاسطول الحربي بل اقام اسطولاً ثانياً للتجارة.. وكانت مهمته نقل السلع من مصر الى البلدان الاخرى، وبالعكس.

وكان للفاطميين في ذلك العهد اسطولان: احدهما في البحر الابيض المتوسط، والآخر في البحر الأحمر...... فكانت الاسكندرية، ودمياط في مصر، وعسقلان، وعكا، وصور، وصيدا من اهم موانىء الاسطول التجاري، كما كانت «عذاب» اهم موانىء البحر الأحمر... وكانت مزوَّدة باسطول حربي يقوم بمهمة حماية الاسطول التجاري، وحماية الثغور من اللصوص، وقراصنة البحار.

ان كل هذا يعطي الدليل على عناية المعز لدين الله باسطول، وبجيشه الذي كان يعده للمهمات الكبرى، والفتوحات العظمى.

٣ ـ التشريع والقضاء:

للفاطميين تشريع خاص يستند على فقه المذهب الاسماعيلي... وقد طبق هذا التشريع في المغرب بادىء ذي بدء، فأسندوا القضاء الاعلى الى رجال يفترض فيهم معرفة قواعد وتشريع المذهب الاسماعيلي المستمد من الفقه الجعفري المسنود الى الامام جعفر بن محمد الصادق... وكان على رأس هؤلاء قاضٍ كبير يسمَّى «قاضي القضاة» اتخذ لنفسه مهمة تعيين القضاة الآخرين في المناطق والألوية على قاعدة اصدار احكامهم وفق القواعد الفاطمية.

وكان النعمان بن حيُّون المغربي هو الممثل الاعلى للقضاء في عهد

الفاطميين بالمغرب فقد اتخذه عبيد الله المهدي قاضياً لدولته، ثم عيَّنه المنصور بالله قاضي قضاة دولته، ومنحه الصلاحيات والنفوذ، وكتب له عهداً بالقضاء في مدن المنصورية، والمهدية، والقيروان، وسائر مدن افريقيا الشمالية، وأولاه عطفه، ومحبته، واعترف بنزاهته، واقامته قواعد الحق، والعدل بين الناس وبين القوي، والضعيف، والظالم، والمظلوم.

وكانت مهمة قاضي القضاة في دولة الفاطميين، بتلك الفترة ان يخطب في المساجد الكبرى، وان يعين من ينوب عنه في الامصار، ويعزل من يستحق العزل، وينقل من يرى ان المصلحة في نقله الى مكان آخر، وكان يضع للقضاة الآخرين نظاماً يسيرون عليه في القضاء بين الناس، واسساً يستطيعون بموجبه الحفاظ على مكانتهم، واخذ الحق للمظلومين من الظالمين.

ويحدثنا النعمان بن حيّون، وكان يضطلع بمهمة قاضي القضاة في كافة المغرب بانه كان يسدي النصائح للقضاة، ويرسم لهم الخطوط لاصدار الاحكام، والوقوف على الحق.

امّا المعز لدين الله فكان يحرص ايضاً على ان يكون قاضي قضاته مثلاً اعلى في الخلق الكريم والفضيلة... فكان يحثه هو والقضاة الآخرين على التمسك باهداب الدين. واقامة العدل بين الرعية.... اغنيائهم وفقرائهم... وان تكون احكامهم مستمدة من كتاب الله، وسنة رسوله.

مضافاً الى كل ذلك كان قاضي القضاة يقوم بالفتيا الى جانب نظره في القضايا المذكورة في حاضرة الدولة، والاشراف على القضاة في الاقاليم.

اجل... كانت ترد لعميد سلك القضاء اسئلة كثيرة، ومسائل استعصى حلها... فكان عليه ان يجيب عليها، ويشرح غوامضها شرحاً يتفق مع اصول المذهب الاسماعيلي الجعفري، وما جاء في الكتاب والسنة ولم يكن قاضي القضاة ـ النعمان ـ مستبداً بالامور وحده، بل كان يرجع الى رأي الخليفة المعز لدين الله الذي لم يدخر وسعاً عن القيام بمهمة تصحيح

الفتاوى ، وتنقيحها ، والتصديق عليها ، وأحياناً التعليق عليها .

وكل هذا يدل على علو كعبه في العلوم الدينية ، والاصول الفقهية . . . ولا غرو فان المعز لدين الله كان عالماً حاذقاً . . . حتى اعتبر في عصره من كبار المشترعين في العالم الاسلامي .

وعندما جاء الى مصر اصطحب معه « علي بن النعمان » وكان قد ولاّه القضاء . . . امّا والده النعمان فكان قد بلغ من العمر عتياً ، وعندما جاء الى مصر . . . آثر الاستراحة ، والتفرغ الى التصنيف ، والتأليف .

امّا الحسبة فهي مهمة ذات اهمية قصوى ، وقد كان يضطلع بها شخص يسمّى « المحتسب » ومهمته تنحصر بمراقبة ارباب الحرف ، والذين يتعاطون بيع اللحوم ، والحلويات ، والمواد التي تدخل في نطاق الطعام . . . ثم المحافظة على الصحة العامة ، والاشراف على المأكولات التي تعرض للبيع للناس ، والتأكد من نظافتها ، وخلوها من الغش ، والفساد . . . كما يدخل في نطاقه الاشراف على الطرق العامة ، ومنع اقامة المباني فيها ، او استغلالها بقصد المنفعة الخاصة ، مضافاً الى ذلك المحافظة على الآداب وضبط الموازين ، والمكاييل ، ومنع الغش .

وفي العهد الفاطمي بمصر . . . كانت وظيفة المحتسب تعادل وظيفة النائب العام . . . بحيث ان صلاحياته ، وصلت الى حد مراقبة الحمّالين ، والسفن ، ومنعهم ان يحملوا على سفنهم أو دوابهم اكثر من طاقتها ، وكما انه كان يراقب الكتاتيب لمنع المعلمين من ضرب الطلاّب ضرباً مبرحاً ، وفوق هذا كان من حق المحتسب ان يوقع على العقاب الذي يراه مناسباً على سيئي الاخلاق ايضاً .

وعلى العموم ، فان المحتسب ، واعوانه كانوا يساعدون القضاة على استتباب الامن ، والنظام وبعضهم يقوم بمهمة البوليس السري لتتبع الجناة ، والقبض عليهم ، واكتشاف المؤامرات التي يحيكها اعداء الدولة .

وقد اعطى المعز لدين الله الصلاحيات اللازمة لهؤلاء المحتسبين، وكان ينتقيهم بنفسه من المخلصين له. امّا المظالم فكان المعز لدين الله يوليها اهتمامه ... وقد ذكر انّه كان يجلس للمظالم بنفسه بعد ان قدم الى مصر، او ينوب عنه من يجلس اليها كيعقوب بن كلس، والحسين بن عمّار.

وذكر القاضي النعمان:

انه رفع الى المعز لدين الله ... ان بعض الاطراف اتوا يشكون اليه عاملاً كان عليهم، ورفعت له رقعة، وكانوا قد رفعوا قبل ذلك اخرى ... فقال:

« عجباً لهؤلاء ... يرون انّا في غفلة عنهم، وعن غيرهم، وما شغلنا اذا اشتغل ملوك الدنيا بلذاتهم الاّ النظر في امور من قلدنا الله عز وجل امره، واسترعانا ايّاه، وانتم ترون ما نحن فيه في كل يوم ... وانما يلتذ بالدنيا من يرى انها حظه من الآخرة ولولا ما نعلمه لنا عند الله عز وجل، ما نظرنا بعين لما نحن فيها من مزاولتها، وأهلها، ... ثم نظر الَّي « اي الى النعمان » فقال:

قل لهؤلاء القوم ... حسبكم ان تعلموا ان خبركم انتهى، فامسكوا عن الشكوى، وكان قد بعث في عزل ذلك العامل ... فوافى بعد ذلك بايام قليلة، واستعمل غيره مكانه ».

٤ ـ مظاهر الحياة الاجتماعية:

ممّا لا ريب فيه، ان دراسة الحياة الاجتماعية في عهد الفاطميين، تستحق العناية والدراسة، وقد يرى الباحث المتعمق ان هذه الحياة قد تطورت في عهد المعز لدين الله، وخاصة بعد ان قدم الى مصر. فهذا الخليفة وضع اسس الحياة الاجتماعية، وأدخل في نطاقها المواسم، والاعياد، والاحتفالات الدينية، والقومية، وما صحبها من مظاهر النعيم، والثروة.

فليس من المبالغة بشيء، اذا ما قلنا: بان خزائن الدولة في عهد المعز

لدين الله قد امتلأت الاموال... ويرجع ذلك الى تنظيم الاقتصاد، والى تطبيق الانظمة المالية الدقيقة المتطورة سنها هذا الخليفة المصلح، لاستغلال موارد الدولة، وقد عرف انه رتّب ايضاً امور الدعوة الدينيّة وخاصة مواردها المالية من الاتباع، والمريدين، ويدخل في نطاق ذلك الزكاة، او خمس الاموال... وهذه الاموال كانت تدفع الى صندوق المعز لدين الله الخاص، ولكنه كان يضيفها الى واردات الدولة العامة ويأمر بانفاقها في الطرق، والوجوه التي يعود نفعها على الدولة الفاطمية.

وتضخمت هذه الموازنة في عهد المعز لدين الله، وفاضت بالاموال حتى اصبحت الدولة الفاطمية تعتبر من اغنى دول العالم. وقد تجلّى كل ذلك: في الاموال التي كان ينفقها المعز لدين الله على الحفلات، والاعياد والمواسم. وذكر التاريخ:

انه سنة ٣٥١ هـ. قرر المعز لدين الله ختان ابنائه... فأشرك الرعية في هذه الفرحة وحتّم عليهم تقديم ابنائهم الصغار ليختتنوا، ويأخذوا لقاء ذلك من الدولة تعويضاً معلوما... فتدفقت الاموال من مدينة المنصورية في المغرب الى الولايات الاخرى، وخوّل الخليفة الولاة دفع الهبات، والنفقات والهدايا للصغار... فكان يُعطي الطفل كسوة حسنة، ومبلغاً من المال يتراوح بين مائة وخمسين، ومائتي درهم... وذكر: انه اختتن في المنصورية وحدها نحو ربع مليون من الصبيان.

وممّا يدل على ضخامة هذه النفقات بمناسبة هذا الختان... ان المعز لدين الله ارسل الى صقلية وحدها خمسين حملاً من المال كل حمل مقداره عشرة الاف دينار، وهذا غير الكساء... وقد تّم كل هذا في برقة، وطرابلس، وتونس، والجزائر، ومراكش.

ويحدثنا النعمان في كتابه المجالس والمسايرات عن ذلك فيقول:

لمّا اراد المعز لدين الله ان يطّهر اولاده: عبد الله، ونزار (اي العزيز

بالله)، وعقيل، تقدم الى خاصته، وأوليائه، وسائر جنده، وعبيده، وجميع رجاله، وكل من بالحضرة من سائر التجار، والصنّاع وعامة الرعية بالمنصورية، والقيروان، وجميع اهل مدن افريقيا وكورها من حاضر، وباد، وأمر بالكتب الى العمّال من لدن برقة وأعمالها الى سجلماسة، وحدودها، وما بين ذلك، وما حوته مملكته، والى جزيرة صقلية ومن بها من طبقات الناس من بدوٍ، وحضر، ان يتقدموا في طهور ابنائهم يوم الثلاثاء اول يوم من شهر ربيع الأول سنة ٣٥١ هـ. الى انقضاء الشهر، وأمر: ان يحمل الى كل بلد من هذه البلدان من الحضرة اموال، وخلع تفرق على كلٍ من طهَّر من ابناء المسلمين من خاص، وعام.. فكان الذي رأيناه قد حمل الى صقلية من المال خمسين حملاً سوى الخلع، ومثل ذلك ونحوه الى كل عامل ليفرقه على اهل ولايته.

وتقدّم في طهور ولده، وجلس بنفسه لطهور سائر اهل الحضرة، وما يليها من البوادي، وأمر بضرب سرادقات بساحة قصر البحر حول الماء، وبادخال الصبيان مع من اراد الدخول معهم من ابائهم، وامهاتهم، وعبيدهم، وخدمهم، ومن ارادوا ان يطهروه من عبيدهم، واعتزم ان يصل الطهور ايام هذا الشهر كله... وكان يجلس من وقت الغداة فلا يزال جالساً، وهم يطهّرون، ويمرون بين يديه، فيكون، ويوصلون لا يخيب من ذلك منهم شريف، ولا مشروف، ولا حر، ولا عبد، ولا قريب، ولا بعيد، ولا حاضر، ولا باد. والختانون في السرادقات على الكراسي، وبين ايديهم المنابر لجلوس الصبيان والقوم يمسكونهم في حجورهم، ويذرون الذروات الممسكة للدم على اختانهم، ويقفون بالبخور، وماء الورد على رؤوسهم يرشونه على وجوههم، لما يعتريهم من الروع... وكانت هناك فرق تعزف وتلعب يلهونهم ويصحبونهم الى منازلهم بعد انتهاء عملية الاختتان.

وأكثر الناس الخوض والحديث في ذلك، وتعاظموه، وأجمعوا في ابتداء

الامر ان ذلك لا يتم ، وان الاموال لا تنهض به ، وذكروا لكثرة ما رأوه من الخلائق ان ذلك لو وصل حولاً لما انقطع الناس ، ولا اتى على آخرهم فيه . . . وكنت : « يقول النعمان » ممن تعاظم ذلك ، وتداخله الاشفاق .

وكل هذا يدل على ضخامة الاموال ، ووفرتها في خزائن الدولة ، ويدل ايضاً على كرم المعز لدين الله ، وجوده ، ورغبته في اسعاد ، وترفيه شعبه ، وقد حق له ان يفخر على معاصريه من الملوك والخلفاء ، والامراء الذين كانوا ينفقون الاموال في اللهو والمجون .

ويضيف النعمان :

كانت ايام هذا الشهر ايام اعياد ، ومسرات ، وأفراح ، وهبات في كل وجه ، وجهة من مملكة امير المؤمنين من بدوٍ وحضر ، وقد عمهم فضله ، وغمرهم كرمه ، وارتفق به اغنياؤهم ، وانتعش له فقراؤهم ، ودخلت المسرة على اهل كل بيت منهم ، وقد كان اثراً جميلاً لم يسبقه اليه احد من قبل ، ولا ظن ان احداً يتسع له مثله .

وهكذا انتشر الثناء عليه ، والدعاء له على السن العامة ، والخاصة ، المخالفين والمؤيدين لما ظهر من فضله على الفقراء ، والمساكين ، اذ كان احدهم يأتي بالثلاثة ، والاربعة ، او ربما اكثر من ولده فيأخذ لكل واحد منهم صلته ، وحقه .

وهذا ان دلَّ على شيء ، فانما يدلُّ على حب المعز لدين الله لرعيته ، وحدبه عليها ، ومتانة ماليته ، واقتصاد دولته ، والتفاف القلوب حوله . وليس هذا بالغريب على هذا الخليفة الكبير الذي خبره الشعب ، وعرفه مهتماً برعاياه ، وأنصاره . . . فكثيراً ما كان يقدم الى الكثير منهم والمستحقين الاموال الوفيرة ، ويشفق على فقرائهم ، ويساعد المرضى ، والمحتاجين ، ويدخل السرور والطمأنينة على قلوبهم ، وكثيراً ما كان يبني الدور للفقراء منهم ، ويدلل في كل المناسبات عن انتسابه للرسول الكريم ، وعن ورعه ، وتقواه ، وايمانه بوطنه ، وبأمته .

امّا ثروة بلاده، واقتصادها، فكانت في درجة عالية من الوفر... يدلنا على ذلك الاعانة العاجلة التي ارسلها من المغرب الى مصر عندما عصفت فيها المحنة... وكان جوهر الصقلي فيها... فأرسل اليها الحبوب، والغلال، والاموال، وظلَّ يمدها حتى استقامت امورها، وخفَّت محنتها.

ومن جهة اخرى... فان الانفاق الذي كان ينفقه على حملاته، وفتوحاته يعطي الدليل على الثراء، والاموال الكثيرة المتدفقة على خزانة الدولة، وعلى التنظيم المالي الذي ابتكره المعز لدين الله...... ومن الجدير بالذكر انه استطاع توجيه الحرب كما يريد دون عجز... فذهبت جيوشه تغزو بلاد المغرب، فتصل الى شواطىء الاطلسي، ثم تتابع الضربات، وتهدد الامويين في عقر دارهم، كما تقف بالمرصاد للبيزنطيين، فتهزمهم في صقلية شر هزيمة، وتستولي على بعض مدن ايطاليا الجنوبية، حتى ان اسطولها استطاع اكثر من مرة ان يصل الى سردينيا... ويجب ان لا ننسى ان الحملة التي ارسلها الى مصر بقيادة جوهر فقد كلّفت ميزانية الدولة اربعة وعشرين مليونا من الدنانير، وهو مبلغ كبير بالنسبة لذلك العهد، مضافاً الى ذلك الاموال، والامدادات التي كانت ترسل تباعاً إلى مصر.

ومن مظاهر الثراء، والرفاه الهدية التي ارسلها القائد جوهر الصقلي الى المعز لدين الله سنة ٣٥٩ هـ فقد بلغ عددها: تسع وتسعون بختية، واحدى وعشرون قبة عليها الديباج المنسوج بالذهب، ولها مناطق من ذهب مكللة بالجوهر، ومائة وعشرون ناقة عليها الأجلة من الديباج، واعنة بالفضة، وخمسمائة وستة وخمسون جملاً، وثمانية واربعون دابة منها بغلة واحدة، وسبعة وأربعون فرساً بأحلة حرير منقوش وسروج كلها ما بين ذهب، وفضة، وهكذا اللجم... وليس هذه الهدية وحدها التي قدمها جوهر الى المعز لدين الله، فهناك الهدية التي قدمها اليه عندما وصل الى مصر... وقد ذكرنا عنها.

ومن مظاهر الثراء ايضاً... ما احضره المعز لدين الله من بلاد

المغرب . . . والمعنى انه يدل على وفرة الاموال .

والحقيقة :

فان المعز الدين الله لم يكن يستخدم الاموال الاّ في سبيل النهوض بالدولة والدعوة الفاطمية فقد ذكر :

انه لمّا عزم على الانتقال الى مصر ، جعل امواله على الف بعير ، كما انه سبك الدنانير الذهبية على شكل طواحين ، وجعل على كل جمل قطعتين ، كما جعل في وسط كل قطعة ثقباً تجمع به القطعة الاخرى ، فاستعظم ذلك الجند ، والرعية ، وصاروا يقفون في الطرق لمشاهدة هذه المناظر العجيبة التي لم يألفوها من قبل .

ونحن نعتقد :

بانه لو قدر للمعز الدين الله البقاء في مصر طويلاً ، لاستطاع ان يستغل موقعها الجغرافي في التجارة ، وخصب ارضها في الزراعة احسن استغلال ، ولكانت خزائنه فاضت بالاموال ، وبالرغم من الاعوام القليلة التي قضاها في مصر ، فانه تركها في حالة جيدة .

وممّا يدل ايضاً على وفرة ثروة مصر في عهد المعز لدين الله . . . تلك الكسوة التي اعدها للكعبة الشريفة ، وهذه الكسوة فاقت الكسوة التي كان العباسيون يرسلونها الى الكعبة ، حتى اصبحت مضرب المثل ، ومثار الاعجاب ، ولم يستطع صانعو المجوهرات في تلك الايام ان يقدروا ثمنها لكبرها ، ودقة صنعتها . وقد وصفها ابن ميسر في تاريخ مصر بقوله :

« سعتها اثنا عشر شبراً ، وارضها ديباج احمر ، ودورها اثنا عشر هلالا ذهباً ، في كل هلال اترجة ذهب مشتبك ، وفي جوف كل اترجة خمسون درة كبار كبيض الحمام ، وفيها الياقوت الاحمر والأصفر ، والازرق ، وقد كتب على دورها ايات الحج بزمرد اخضر ، وحشو الكتابة در كبار لم يرَ مثله ، وحشو الشمسية المسك والمسحوق . . فرآها الناس في القصر ، وفي

خارج القصر لعلو موضعها ، وانما نصبها عدة فراشين بالنظر لثقل وزنها .

وهذه الكسوة صنعت في مصر، وارسلت سنة ٣٦٢ هـ، اي في نفس العام الذي وصل فيه المعز لدين الله الى مصر .

ومن مظاهر الثراء في عهد المعز لدين الله، تلك النهضة التي كانت ظاهرة في القصور الفاطمية الفخمة في المغرب، وانشاء البساتين، والحدائق، والميادين، والقنوات، والبحيرات . . . وهكذا في القاهرة المعزّية .

ومن الواضح ان قصور الفاطميين كانت في القاهرة آية في الابداع، فقد كان لها مداخل كثيرة تفضي الى اروقة متواضعة، والى ابهاء، وافنية هي آية في الروعة، والابداع، حتى ان قصر البحر الذي تكلمنا عنه في المغرب كان مثلاً اعلى للقصور في العصور الوسطى، فكان جزؤه الأوسط اشبه بجزيرة تقع في وسط بحيرة وقد بلغ جزؤه الخارجي الذي يحيط بالبركة من الاتساع بحيث يخيل الى الناظر انه مدينة قائمة بذاتها، ولم يكن القصر الشرقي الكبير في القاهرة بأقل روعة من قصر البحر في المنصورية .

وكان المعز لدين الله يجلس على سرير الملك بالايوان الكبير، وكان هذا المجلس مضرب المثل في الاناقة، وكان تعلق فيه ستور الديباج شتاءً، والدبيقى صيفاً، وفرش الشتاء بسط الحرير عوضاً عن الصوف وهو مطابق لستور الديباج، وفرش الصيف مطابقاً لستور الدبيقي ما بين طبري، وطبرستاني مذهب ومعدوم المثال .

ورأى المعز لدين الله سنة ٣٥٣ هـ ان يرسم مصوراً للعالم، يوضح فيه موقع بلاد الحجاز فيه، فعمل له ثوب حرير منسوج من الذهب .

وقد وصفه المقريزي بقوله :

« هو مقطع من الحرير الازرق التستري القرقوبي . . . غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر الوان الحرير، وفي المصور صورة اقاليم الارض، وجبالها، وبحارها، ومدنها، وأنهارها، ومسالكها . . . وفيه صورة مكة،

والمدينة، واسم كل مدينة، وجبل، وبلد، ونهر، وبحر، وطريق بالذهب او بالفضة.

وليس ادل على تلك الثروة الطائلة من ان احدى بنات المعز لدين الله تركت ثروة لا تقل عن مليون ونصف دينار، كما تركت ابنته الثانية اموالاً كثيرة، وحلياً فاخرة ولا شك ان الامراء الفاطميين كانوا يشاركون الخلفاء في عظمتهم، وميلهم الى الظهور، ولا يقلون في ذلك عن الخلفاء انفسهم.

فقد ذكر:

ان «تغريد» زوجة المعز لدين الله انفقت من مالها الخاص على تشييد مسجد كبير في القرافة، كما اقامت قصراً في المحلة المذكورة الى جانب المسجد، وقد احاطته ببستان جميل، وأنشأت فيه حماماً، وبئراً.

وذكر ايضاً:

ان رشيدة ابنة المعز لدين الله تركت بعد وفاتها ثروة تقدر بما قيمته الف الف وسبعمائة الف دينار وهكذا ابنته الثانية عبدة فقد تركت من التحف، والتماثيل، والجواهر ما لا يمكن تقديره بثمن.

٥ ـ الحفلات والاعياد:

كان الفاطميون يقيمون الحفلات بمناسبة الاعياد، ويطبعونها بطابعهم الخاص... فكانت اعيادهم، او حفلاتهم في كل يوم جمعة، وصلاة العيدين، وتوزيع الحملات الحربية، ويوم عاشوراء، ومولد علي بن ابي طالب، وفاطمة الزهراء، ومولد الحسن، والحسين، وعيد الغدير، وليلة اول رجب، ونصف رجب، وأول شعبان، ونصفه، وغرة رمضان.

امَّا الاعياد المصرية، كعيد جبر الخليج، وعيد النوروز... فكانوا يحتفلون بها حتى انهم شاركوا الاقباط بيوم الغطَّاس، وخميس الجسد، وعيد الميلاد، وغيره.

وكان المعز لدين الله يغتنم فرصة هذه الاعياد، فيعطل الاعمال في

مصالح الدولة، فيقيم في قصره الاسمطة، ويدعي اليها قاضي القضاة، وكبار القواد، والموظفين، وكان ينفق عليها الاموال الطائلة حتى تظهر بمظاهر النعيم.

امّا بالنسبة لعيد النوروز فقد اكدت المصادر التاريخية: ان المعز لدين الله امر بإلغائه لانه غير اسلامي، ولأن الخلاعة، والمجون كانت تمارس خلاله.

٦ ـ النهضة الثقافية والعلوم:

تقدمت الثقافة تقدماً باهراً في عهد المعز لدين الله، ونهضت في البلاد نهضة علمية كانت موضع حديث المؤرخين، وخاصة النهضة التي كانت تتصل اتصالاً مباشراً بالدعوة الاسماعيلية، وفلسفتها. وفي عهد المعز لدين الله نبغ دعاة افذاذ، وشعراء، وادباء... ومن الجدير بالذكر: ان المعز لدين الله ساهم في هذه النهضة، فكان دماغها المفكّر، والمخطّط الاكبر لها.

وعلى العموم: فان العلوم الاسلامية ازدهرت في منتصف القرن الثالث، والرابع الهجريين... وقد رفع البويهيون، والحمدانيون لواءها في المشرق، كما ساهم الامويون في الأندلس في هذه النهضة، ولكن المعز لدين الله فاقهم جميعاً، لانه كان يعتقد بان مثل هذه النهضة لا تكون صحيحة وتامة الاّ اذا قادها ابناء الرسول.

ومن الواضح:

ان المنصور بالله والد المعز لدين الله امتاز بسعة اطلاعه... ولم تشغله مهام الخلافة، واعباء الحكم، والحروب التي خاضها عن البحث، والتأليف، والنظر في العلوم، فكان كثيراً ما يحتم على ولده المعز لدين الله ان يتوفر على الدرس، ويؤلف الكتب، ويقرض الشعر، كما كان يحث العلماء على الاستزادة من العلم كقوله للقاضي النعمان:

« يا نعمان استخرج من كتاب الله ما رفضته العامة ، وأنكرته »

وهذه البيئة العلمية التي شبَّ فيها المعز لدين الله، وترعرع كان لها اثرها في تنمية مداركه، وسعة اطلاعه، وتضلعه في العلوم، حتى انه كان يحاضر العلماء، والنحاة، والفقهاء، ويناقشهم مناقشات تدل على سعة اطلاعه، ومقدرته العلمية .

وكانت مكتبة المعز لدين الله في المنصورية، ثم في القاهرة زاخرة بالكتب . . . وقد بلغ من شغفه بهذه المكتبة، انه كان يعرف مواضع ما فيها من الكتب، وما تحويه من المعلومات .

وذكر النعمان :

انه امر مرة خازنه، ان يحضر له كتاباً، فلم يحضره على الفور، فقام، وبحث عن هذا الكتاب، ثم قرأه، واستهواه الاطلاع حتى صرف معظم تلك الليلة في القراءة، وهو واقف على قدميه . . وكان يقول :

« والله ما تلذذت بشيء تلذذي بالعلوم، والحكمة »

وكان المعز لدين الله يعقد المجالس العلمية، فيحضرها كبار رجال دولته، ومشايخها، وعلماؤها، وادباؤها، فيظهر مقدرته الفائقة، ضلوعه في الفلسفة، وعلم التأويل، والحديث، والفقه . . . يدلنا على ذلك قول النعمان :

ان المعز لدين الله نظر في كل فن، وبرع في كل علم . . . فان تكلم في كل فن منها اربى على المتكلمين، وكان فيها نسيج وحده في العالمين . امَّا علم الباطن، ووجوهه فهو بحره الذي لا تخاض لجته، ولا يدرك اخره . وامَّا القول في التوحيد، وتثبيت الدين، والرد على اهل البدع والملحدين، والغلاة، فهو واحده، وعلمه، ومناره، وعمدته، وأمَّا الفقه، والحلال، والحرام، ومسائل الفتيا، والاحكام فذلك مجاله، وميدانه، وصنعته، وديوانه . وأمَّا الطب، والهندسة، وعلم النجوم، والفلسفة، فأهل النفاد في كل فن من ذلك عيال بين يديه . . . يخترع لهم في كل يوم الصنائع ويبدع

لهم فيه البدائع ، من دقائق معانيه ، وما تحار اذهانهم فيه »

وكان المعز لدين الله مشغوفاً بكتب الباطن خاصة ، حتى انه كان يجد في ذلك لذة ، وفخرا يصغرا امامها جاه الخلافة . . . فهو يقول :

« اني لأجد من اللذة ، والراحة ، والمسرة في النظر في الحكمة ما لو وجده اهل الدنيا لاطرحوها لها ، ولولا ما اوجب الله سبحانه عليّ من امور الدنيا لاهلها ، واقامة ظاهرها ، ومصالحهم فيها لرفضتها بالتلذذ بالحكمة ، والنظر فيها » .

وكان المعز لدين الله ايضاً يستحثّ همم المغاربة ، والمشارقة على السواء للتزود من العلم ، ويلوم من يتقاعد منهم عن ذلك ، وكان يحلم بان يحكم شعباً مثقفاً ، وكثيراً ما كان يصرح لجلسائه بانه ممّا يحزّ في نفسه ان يرى الناس ينهمكون في اللهو ، والبعث دون ان يحبوا البحث ، والاطلاع ، وتغذية عقولهم بالعلوم والمعارف . واكثر من ذلك كان اذا ارق ، او احسّ بالملل من مشاغل الحياة ، اكبّ على الكتب يرتشف منها العلوم ، والفنون . وكنّا ذكرنا انه كان يجيد كافة اللغات السائدة في عصره .

وكان ايضاً يعمل على تشجيع العلماء ، ويقربهم اليه ، ويدر عليهم الاموال ، كما كان يشرف على مؤلفاتهم وبحوثهم ، ويتناولها بالتعديل ، والتغيير ، والتصليح ، فيحذف ما يريد ، ويضيف اليها ما هو ضروري من الآراء ، وينقد المؤلفين نقد العالم الضليع .

ومن الجدير بالذكر ان بعض الامراء الفاطميين ، والمستجيبين من اهل الدعوة طلبوا الى النعمان وضع كتاب في اخبار الائمة الفاطميين ، وأحاديثهم ، فوضع كتاباً سمّاه « الدينار » ثم قدمه للمعز لدين الله ومع علو قدر النعمان في التأليف ، فانه امده بكثير من الاراء . . . وكتب اليه يقول :

« وقفت على الكتاب ، وتصفحته فرأيت فيه ما اعجبني فيه من صحة الرواية ، وجودة الاختصار ، ولكن فيه كلمات يعسر فهمها على كثير من

اوليائه، فاشرحها بما يقرب من افهامهم، فيستوي في معرفته والاحاطة بعلم الفاظه الشريف، والمشروف، فانه يجيء طريفاً قريب المأخذ، وسمّه كتاب «الاختصار» لصحيح الآثار، عن الائمة الاطهار... فان ذلك اشبه به من كتاب الدينار».

وكان القاضي النعمان مع قدرته يقف من المعز لدين الله موقف التلميذ من معلمه... وقد تجلّى ذلك ان كتاب «دعائم الاسلام» المشهور للنعمان قد نصَّ عليه فصوله، وفرَّع فروعه.

وهكذا بالنسبة للدعاة الآخرين: كجعفر بن منصور اليمن، ويعقوب ابن كلس... ومن اشهر العلوم التي اشتغل بها العلماء في عهده: التفسير، والحديث، والمناظرة، والفقه، والتأويل، والكلام، والعقائد، والوعظ، والفلسفة.

وصفوة القول: انه كان من افذاذ عصره في العلم، والتصنيف، والادب، حتى نسب اليه الكثير من الكتب، مثل كتاب الروضة، والرسالة المسيحية، وكتاب المناجاة، وغيرها من الكتب التي لم يبق لها اي اثر... وهذا بالاضافة الى نهضة الشعر في عصره التي حمل لواءها ابن هانيء الاندلسي، وولده تميم.

ولم يقف نشاط المعز لدين الله على نشر الثقافة العامة وحدها، بل تجاوزه الى نشر المذهب الاسماعيلي ووضع لها نظاماً مفصلاً للاستفادة منها، ولكي تجد في عقول رجال الدعوة، والمستجيبين، والمؤمنين مجالاً خصباً... فكان يجتمع الى الدعاة الكبار في اماكن خاصة، ويقرأ عليهم المحاضرات، والتعاليم في اصول، وقواعد المذهب، والحكمة، والعلم الحقيقي... وهذه الاجتماعات كانت تسمَّى «مجالس الحكمة» ثم تطورت فيما بعد، فأصبحت تدرس في المساجد، وفي قاعات قصر الخلافة.

ومن الواضح: ان الفاطميين في المغرب كانوا يعنون بنشر تعاليم الدعوة... فقد ذكر:

ان المنصور بالله كان كثيراً ما يشرح للمعز لدين الله بعض كتب الباطن الرمزية، والفلسفة المعقدة، حتى انه كثيراً ما قال له:

« كنتُ احب ان اعيش لك اكثر ممَّا عشت لأفيدك وأزيدك »

ولمّا ولي المعز لدين الله الخلافة اعتبر ان هذا الواجب يجب ان يكون جزءاً من سياسة الدولة، فسنَّ السنن، وحتَّم على اتباعه قبولها، والعمل بها.

وخصَّص المعز لدين الله وقتاً لأخذ العهود على المستجيبين، والداخلين في الدعوة، ولم يكن يرضى ان يقوم احد غيره بهذه المهمة، ولذلك وفد الناس من المشرق، والمغرب، وكثر عدد المستجيبين، وعظمت رغباتهم، واقبلوا يقطعون البحار، والقفار لنيل بركاته، وسماع وصاياه.

وكان يعنى عناية خاصة بتلقين دعاته خصائص المذهب الاسماعيلي، وأسراره او ما يسمى علوم الباطن فأخرج من خزائنه الخاصة الكتب التي ورثها عن ابائه . . . وجعلها في متناول كبار الدعاة.

ومن الجدير بالذكر ان هؤلاء الدعاة كانوا ينقسمون الى صفوف لكل منها علوم خاصة به، وبفضل هذا التنظيم. وهذه النهضة حملت الاموال الى صندوق الدعوة، واصبحت دعامة كبرى للدولة الفاطمية.

ويجب ان نشير: ان كتب الدعوة التي تكلمنا عنها، كانت زاخرة بالنصائح التي توجه الدعاة ليسيروا على هديها في تلقين عقائد المذهب، وليكونوا من الفراسة بحيث يستطيعون ان يميزوا بين المستجيبين، ويلقنوا كل واحد منهم مقدار ما يستحقه.

وهذه الكتب ايضاً رسمت الخطة للدعوة الرسمية التي يجب على الداعي سلوكها لتلقين مبادىء الدعوة، فيسير معهم في خطى متئدة، حتى لا تضيع البذور في ارض سبخة، ولا ينحرف عن السبيل، او ينعكس عليه قصده، فتصاب الدعوة بالخيبة، والخذلان. وقد اوضح المعز لدين الله ذلك بقوله:

ينبغي للداعي اختبار امر من يدعوه، وتعرف احوالهم رجلاً رجلاً،

وتميز كل امرىء منهم ومعرفة ما يصلح له ان يؤتى اليه، ويحمله عليه من امر الله، وآمر اوليائه، ومقدار ما يحمله من ذلك ومدى قوته، وطاقته، ومتى يوصل ذلك اليه، وكيف يغذوه به، وامتحان الرجال، وتعرف الاحوال ومقدار القوى، ومبلغ الطاقات، والقدرات.

وهكذا رسم للدعاة خطة تنظيم العلاقة بين الداعي والمستجيبين، والطريق الذي يجب ان يسلكوها مع مدعويهم، فأبان لهم وجوب الظهور بمظهر الوقار، والاجلال ليكون ذلك مدعاة الى تفاني المدعويين في الالتفاف حولهم، وان يكون مصدر هيبة الداعي، ووقاره.. فيكون:

حسن الصوت، خفيض الجناح، لين الجانب، حسن العشرة، جميل المخالقة، من غير تجبر ولا تكبر.. بل يكون التواضع سيماه، والوقار همته.

وهكذا كان للفاطميين في البلاد التي يدعون فيها لمذهبهم تشريع خاص في معاملتهم اهالي هذه البلاد، كما كانت لهم ثقافة وصلاة، وأذان، وعبادات مقرره، ولا غروّ فان كل اسماعيلي مهما بعدت دياره كان يحن الى الدولة الفاطمية، ويسعى الى دعمها، وتلبية ما تفرضه عليه مبادئها، ونظمها... وبهذا نستطيع ان نقول ان المعز لدين الله، وجّه الدعوة الباطنية توجيهاً صحيحاً كما وجّه الدولة توجيهاً سياسياً عظيماً، ويتجلّى كل ذلك بما نطق به الدعاة الذين جاءوا من المشرق بالاموال، وعندما كانوا يتأهبون للعودة قالوا:

«لا جعل الله آخر عهدنا بك، فما اشد علينا فراقك لولا ما نرجوه في امتثال امرك، وانا لذلك شخصنا عنك، وفارقناك...» فقال لهم:

«اذا كان اعتقادكم ولايتنا، وامتثال امرنا، وطاعتنا، والتسليم لنا، ووصلكم ذلك قولاً وفعلاً، فأنتم معنا حيث كنتم... متصلة ارواحنا بأرواحكم، ومودتنا بمودتكم..ومن كان على خلاف ذلك لم ينفعه قربه منّا، لان الاتصال لا يكون بتقارب الاجسام، وانا يكون عن تقارب الانفس،

فأنفسكم ما كنتم على ما وصفنا قريبة من انفسنا ، وان بعدت الاجسام ، وتأت المنازل ، ومطابقة اخص ، وأقرب ، وألصق من مطابقة الأهل ، والقرابة ، وانتم واجدون منّا مالا تجدونه من الآباء ، والامهات . . ان احسنتم احسنتم الى انفسكم ، شكرنا ذلك من امركم ، وعرفنا فضله لكم ، وجزيناكم به . . وان اسأتم صفحنا عمّا يجب . . . صفحه عنكم ، وكل انسان منكم ينظر لنفسه ، ويكدح لها ، ونحن ننظر ، ونعني لصلاح جميعكم . فأعينونا على ذلك بتقوى الله ، وامتثال امره ، والانتهاء بنهيه ، فانكم اذا فعلتم ذلك اصلح الله حالكم ، وأجزل اجوركم ، وأقرّ اعينكم ، واعيتنا بكم . . . وعن قريب ترون من صنع الله ، وفضله ما تحبونه ان شاء الله » .

هذه هي اهم مظاهر الدعوة الاسماعيلية ، كما كانت الدولة الفاطمية تقوم بنشرها . . . ومعنى ذلك انه كان لهم منهجين : المنهج العلني ، والمنهج السري . . . امّا المنهج العلني فكان يقوم به الوزراء ، والولاة بحيث يرضي العامة جميعها . . . وأمّا المنهج السري فقد كان المسؤول عنه الخليفة الفاطمي نفسه .

وهذه هي التعاليم التي اقرها المعز لدين الله ، وجعلها دستوراً للدعاة ، والمستجيبين :

« ان يبدأوا بصلاح أنفسهم . . . . فهم احق الناس بالورع ، والصلاح ، والتقوى ، والعفاف ، والعمل بكل صالحة ، واجتناب كل مكروه . . وهذا باب ايضاً يدخل فيه جماعة المؤمنين . . . لقول الصادق جعفر بن محمد لكافة شيعته ممن تطلق له الدعوة :

كونوا لنا دعاة صامتين . . . ثم بين ذلك ، وأخبرهم انهم اذا عملوا صالحاً ، علم الناس انهم خير ، فدخلوا في جملتهم ، وكانوا دعاتهم باعمالهم لا بألسنتهم ، وكل مؤمن يعمل الخير ، فهو داعٍ الى الائمة ، ولكن سبيله ما حدّ له ، لا ينبغي ان يتجاوزه او يقصر عنه . فرأس امر الدعاة الى اولياء الله ، وسيد اعمالهم ، وقطب امورهم ، صلاح انفسهم بالدين الصادق ،

والورع الحاجز، والدعاة بالحكمة البالغة، والموعظة الحسنة.

ثم ينبغي للداعي اختيار امر من يدعوه، وتعرف احوالهم رجلاً رجلاً، وتميز كل امرىءٍ منهم، ومعرفة ما يصلح له ان يؤتي اليه، ويحمله من امر الله، وامر اوليائه، ومقدار ما يحمله من ذلك، ومدى قوته، وطاقته، ومتى يوصل ذلك اليه، وكيف يغذوه به، وامتحان الرجال، وتعرف الاحوال، ومقدار القوى، ومبلغ الطاقات.

وعلم ذلك هو افضل ما يحتاج اليه الدعاة في باب السياسات، والرياضات، فكثير ما فسد امر الداعي من جهله بهذا الباب، وفسدت دعوته منه، وقد يعترف من يجوز عليه التضييع من الدعاة، وينفق عنده منهم وتجوز عليه الحيل، من الفساد في امره، والخلل في دعوته، ما يطول القول بذكره.

فينبغي للداعي ان يحكم امر هذا الوجه من نفسه، ويكون اسبق اهل دعوته به، وأقربهم منه، وأحقهم بفوائده، من حسنت نيته، وصفَت طويته، ودق ذهنه، وصحَّ اعتقاده، وجاد عقله، وملك سره، وقام بفرضه ما كان، ممَّا كثر او قل، شرف عند الناس من كانت هذه حاله، او انحطَّ لديهم، او صغر او كبر عندهم، الاَّ ان يحتاج الداعي الى استمالة الاشراف في حال ما يستميلهم، كما تستمال المؤلفة قلوبهم على مقدار احوالهم... فان التقريب على الدين، والتفصيل به، والترفيع لاهله... اقرب الى اغتباط الناس به، ودخولهم فيه.

وينبغي للداعي ان يتهيَّب عند اهل دعوته، وان لا يعودهم الجرأة عليه، ولا يبسطهم كل البسط لديه فيهون عندهم، ويصغر امره لديهم، فانه كلما كان اهيب عندهم، كانوا اكثر انتفاعاً به، وأحرى عنده، وليكن تهيبه ذلك، بحسن الصمت، وخفض الجناح، ولين الجانب، وحسن العشرة، وجميل المخالقة، من تجبر عليهم، ولا تكبر في امره عليهم، بل يكون التواضع سيماه، والوقار همته.

وقد جاء عن الصادق جعفر بن محمد انه قال:

اطلبوا العلم، وتزينوا معه بالوقار، والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، ولمن تعلمونه، ولا تكونوا علماء جبارين، فيذهب باطلكم بحقكم... وقال:

من طلب العلم ليدافع به العلماء، ويجاري به السفهاء، او ليصرف به وجوه الناس اليه، ويتكبر عليهم، فليتبوأ مقعده من النار.. ان الرئاسة لا تصلح الاّ لاهلها.

فينبغي للداعي ان يكون مهيباً في غير تكبر، ولا صلَف، متواضعاً لا لمهانة، ولا لضعف، فان اجتمع له امره، واستحكم، واتصل له مراده، وانتظم وعده في اهل دعوته، وعظم، فليحسن الى محسنهم ويقربهم على درجاتهم، وينزلهم على طبقات اعمالهم، ولا يهمل امرهم، فيدع عقوبتهم على ما يتضح له من ذنوبهم، ويصح له من اساءتهم. فقد كان من استحكم امره من الدعاة. يؤدب من ادب من اهل دعوته لصنوف من الادب، فيقضي بعضهم، ويهجره، ويأمر المؤمنين ان يهجروه، فلا يكلمه احد منهم، ولا يدانيه، فيبقى مهجوراً في قومه مبعداً في اهله، وخاصته، حتى تضيق الارض عليه برحبها، ويتطارح عليه في التوبة، وقبولها، ويمتحنه بما شاء ان يمتحنه في نفسه، او في ماله، او فيما رآه من احواله، بعد المدة الطويلة، والنكاية الشديدة، ومنهم من يبكته على رؤوس الملأ، ومنهم من يذله، ويوبخه في الخلاء، ومنهم من يأمر بجلده، ومنهم من يمضي العقوبة في قتله، ويمتحن بذلك اقرب الناس اليه. فيأمر الاخ بقتل اخيه، والحميم بقتل حميمه، فيقتله، ويكون ذلك محنة القاتل في نفسه، وعزاء في وليه، اذا لم يل امره غيره، وصلاحاً في ان يسلم من الحقد قلبه، فيعاقب كل امرىء منهم بقدر ذنبه، ويجعل العقوبة له بحبسه، ولم يكن يهمل شيئاً من امرهم. فاستقامت لذلك ارادته منهم.

وقد قال علي:

ان الله جلّ ذكره ادّب هذه الامة بالسيف، والسوط، ليس عند الامام فيها هوادة، ولو علم الله جلّ ثناؤه ان عباده يصلحهم التجاوز عنهم، لأمر به.. ولكن جلّ ثناؤه، حدّ حدود الذنب بهم، اذا علم ـ لا شريك له ـ ان بها صلاحهم... فجعل حد القاتل في العمد القتل، وجعل في الخطأ الدية، وحكم في الزاني المتحصّن بالرجم، وفي البكر بالجلد، وفي السارق بالقطع، وفي المحارب بالصلب، او النفي، وقطع اليد، والرجل، والقاذف بالجلد، وفي الشارب بالحد.... في حدود فصلها، واحكام افترضها، وأجراها.

وطبقات الدعاة، والولاة... ينبغي لهم التأدب بكل ما جرى ذكره في هذا الكتاب، والتخلق به واعتقاده قولاً، وعملاً، وديناً، ونية.. ولذلك اجريت ذكرهم فيه، واهم أخص بالائمة.. صلوات الله عليهم من كثير ممن قدمنا ذكرهم.

فاذا تأدب المبتدىء بها اولاً. فأولاً، واستعملها باباً باباً، صار الى درجة هؤلاء، ودخل في جملتهم.»

كلمة اخيرة في المعز لدين الله:

كان عصر المعز لدين الله حافلاً بمظاهر القوة، والعزة، والعظمة... فهذا الخليفة العالم الفيلسوف، استطاع بما اوتيه من ذكاء، وحذق، ومهارة في الامور السياسية، والادارية، والحربية ان يوحد بلاد المغرب تحت رايته، وان يحقق الانتصارات الرائعة على الامويين، وعلى حلفائهم الروم حتى ان الامويين في قرطبة كانوا يخشون على بلادهم من ان تقع في قبضته، وسارع الروم اخيراً الى عقد الصلح معه بعد ان اصبحت بلادهم الساحلية تحت رحمة اسطوله. وبعد ان اتخذ من صقلية، وكريت جسراً للعبور الى ايطاليا شمالا، والى مصر، والشام شرقاً، حتى يتمكن من الوصول الى بغداد اخيراً، والى القسطنطينية بعد ذلك... وبهذا يكون قد حقق الوحدة العربية الشاملة، او ما يسمّى بالامبراطورية الفاطمية.

ونشر المعز لدين الله مبادىء الدعوة الاسماعيلية... فأنفذ دعاته الى كل

مكان، وزوّدهم بمنشوراته، ومحاضراته، وكان لنظم الحكم الدقيقة التي سار عليها اثره البعيد في رقي بلاده، لانه كان بالفعل يمثل الحكم المستنير القوي العادل الذي يجمع في يديه كافة الصلاحيات، والسلطات .. فجاءت نظم الحكم التي سنّها، وابتدعها مثلاً اعلى في الدقة، والتنظيم.

وان مدينة القاهرة المعزيّة التي تعد الآن من امهات مدن العالم، وجامعة الازهر مدينتان بوجودهما لهذا الخليفة المصلح الكبير.

اجل... اعتبر التاريخ المعز لدين الله من كبار رجال عصره... فقد فاق اقرانه، ومنافسيه علماً وسياسة وحربا.

اننا لا نغالي اذا ما قلنا ان الفاطميين في كافة ادوار حكمهم قدموا كل ما يمكن ان يقدمه المصلحون لرعيتهم، وللنهوض بدولتهم... فقد كان برنامجهم اصلاحي شامل يقوم على توحيد كلمة الرأي العام الاسلامي بوجه عام، والعربي بوجه خاص... وعندما جاء المعز لدين الله نفّذ هذا البرنامج على اعتبار انه من اكبر المصلحين المسلمين، ومن دعاة الوحدة العربية الشاملة.

وان المتتبع لدراسة تاريخ الفاطميين يرى: انهم عندما جارت عليهم الاقدار لجأوا الى بلد عربي اسلامي، وقاموا بنشاطهم ضمن البلدان الاسلامية، وحينما اقاموا دولتهم، اقاموها في بلد اسلامي، بالرغم من ان ذلك كان متيسراً لهم في فارس أو في خراسان.

ونحن عندما نرى المعز لدين الله يوجه جهوده لتوحيد اجزاء المغرب، وبعد ان تمّ له ذلك اتجه الى المشرق اي الى مصر... وبذلك اقام الوحدة العربية الافريقية، ولم يتحالف ضد الامويين في الاندلس، بل تركهم، وشأنهم، وذلك لكي لا يجعل للروم منفذاً الى البلاد الاسلامية... وكل هذا يدل على صدق عروبة الفاطميين وحسن اسلامهم.

اجل... لقد كانت امنية المعز لدين الله ان يبعث الدولة العربية

الاسلامية الواحدة.. وقد حال دون تحقيق هذه الامنية ثورة القرامطة، وتعاون البويهيين، والعباسيين، والحمدانيين، والاتراك والروم احياناً... فاستطاعت بغداد ان تبقى تحت رحمة الفرس، والاتراك، والحمدانيين تحت رعاية الروم.

رحم الله المعز لدين الله... فان في تاريخه كل عزة وفخر... وحبذا لو ان القاهرة المعزيَّة التي اشادها، وفت له بعض ما عليها، وفكَّر القائمون عليها اقامة احتفال بمناسبة مرور الف عام على بنائها.

وحبذا لو ان المعز لدين الله جعل اقامته ستة اشهر في المغرب، وستة اشهر في المشرق... اذن لظلَّت اعلام الدولة الفاطمية ترفرف على المشرق والمغرب اجالاً طوالاً ولما استطاع المغربيون ان يعلنوا الانفصال عن المشرقيين في عهد الفاطميين المتأخر، ولكانت الامور ظلَّت على حالها دونما اي تغيير او تعديل.

ولكن لربك في ذلك شأن وهو اعلم...

اعلام الادب والشعر والفلسفة:
في عهد المعز لدين الله

١ ـ جعفر بن منصور اليمن

عرف جعفر بن منصور اليمن «ابن حوشب» بانه من كبار دعاة الفاطميين الذين كانوا مكلفين بشؤون الدعوة في اليمن، وعند خلع اخيه ابو الحسن بن منصور اليمن طاعة عبيد الله المهدي في اخريات ايامه، عارضه جعفر وابنه، ولمّا لم يستطع اقناعه او ردعه، تركه وغادر اليمن الى المغرب وذلك سنة ٣٢٢ هـ. وهناك التحق بالخليفة الفاطمي الثاني القائم بامر الله الذي منحه الرعاية التامة، وفي عهد المنصور بالله ظلّ متمتعاً بالتقدير والاحترام، وقيماً على شوؤن الدعوة... وفي عهد المعز لدين الله اصبح «باب الأبواب» او «داعي الدعاة».. وعندما غادر المعز لدين الله المغرب الى مصر رافقه، وظلّ على رأس منصبه حتى وفاته.

من مآثره انه كان يراسل اخاه، ويؤنبه على نكرانه، وخيانته. ويقول الحمّادي اليماني:

انه دخل على اخيه في آخر لقاء بينهما، وقال له:

قطعت يدك بيدك... ومن المغرب ارسل له عتاباً قاسياً، وممّا جاء فيه قوله:

فكنتم تهدمون وأبتني وشتان من يبني، وآخر يهدم

امتاز جعفر بن منصور بنشاطه الفكري في حقل التأليف، وفي مجال الفلسفة الدينية، وكان خصباً في الانتاج ولكن مؤلفاته كما ظهرت لنا على

وضعها الحالي ترتدي طابع التعقيد، والابتعاد عن الهدف، وفيها أيضاً عبارات من الغلو لا تتفق، والاراء الفاطمية، وقد وصفها احد الدعاة بانها قريبة من الاراء القرمطية المتطرفة، ومن هنا يمكن القول بان الايدي قد لعبت بها تغييراً، وتعديلاً ... فنحن لا نصدق الاَّ انها عرضت على المعز لدين الله ونعتقد: ان المعز لدين الله لا يمكن ان يسمح بها وهي على وضعها الحالي.

ذكر:

ان القاضي النعمان مرض وهو بمصر، فزاره العديد من علية القوم، ومنهم جعفر بن منصور فلمَّا ابل النعمان من مرضه سأله المعز لدين الله عمن زاره اثناء مرضه؟ فذكر الاسماء جميعها دون ان يذكر جعفر، ولكن المعز لدين الله اخذ يطري جعفر... ثم قدَّم الى النعمان رسالة، وطلب منه قراءتها.. فنالت اعجابه، وظنَّ انها من تأليف الخليفة... ولكن المعز لدين الله اجابه بانها من وضع مولاه الرئيس جعفر بن منصور. وعندما ادرك النعمان ان جعفر له هذه المكانة عند المعز لدين الله... ذهب اليه، وعبَّر له عن اصدق عواطفه وتقديره.

مات جعفر بن منصور اليمن في مصر، ولكن لم يعرف تاريخ وفاته.

لجعفر بن منصور اليمن العديد من المؤلفات. ومن اهمها:

كتاب: تأويل الزكاة.. او كتاب الفرائض وحدود الدين

كتاب: سرائر النطقاء

كتاب: اسرار النطقاء

كتاب: الشواهد والبيان

كتاب: الكشف

كتاب: الفترات، والقرانات.

٢ ـ يعقوب بن كلس:

هو: علم من اعلام الدولة الفاطمية، بل شخصية من اعظم الشخصيات التي خدمت الدولة الفاطمية، وأدّت لها اجل الخدمات، بالاضافة الى ما كان لها من اثر بارز في الحياة الفكرية بمصر.

هو: ابو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس. ولد في بغداد من اسرة يهودية، ونشأ فيها حيث درس الكتابة، والحساب، وبعد ذلك اتخذ التجارة مهنة، ومتكسباً اله، فبدأ بمعاونة والده في هذا المجال ثم رحل معه الى الشام في بعض المسائل التجارية، وبعدها جاء الى الرملة، وأقام فيها، وصار وكيلاً لبعض التجار ومنها انتقل الى مصر للقيام فيها ببعض الاعمال التجارية، وكان يحكمها في تلك الفترة «كافور» الاخشيدي وذلك سنة ٣٣٤ هـ. وهناك تمكن بفضل مرونته وجرأته من الاتصال بكافور.. فأحلَّه من نفسه محل العطف والرعاية لما انسه فيه من علو النفس، والجد، والهمة، والنشاط، والامانة. فعيَّنه في ديوانه الخاص، وأسند اليه مهمة استشارية، وفي الوقت هذا اعتنق الاسلام، فزادت خطوته عند كافور، ولزم دراسة القرآن. ورتَّب له كافور رجالاً من العلماء درسوه اصول الدين الاسلامي، فاجتهد في الدرس، والتحصيل حتى بلغ فيهما درجة عالية، وقد اثار تقرب كافور اليه حسد الوزير جعفر بن الفرات، فنصب له الحبائل، لاخراجه من البلاد. وبعد وفاة كافور القى ابن الفرات القبض عليه وسجنه، ولكنه تمكن من الفرار، وهرب الى المغرب حيث اتصل بالخليفة الفاطمي المعز لدين الله، فقرَّبه، وعطف عليه، وما زال عنده، حتى تمَّ فتح مصر... فجاء اليها مع المعز لدين الله.

يذكر بعض المؤرخين:

ان ابن كلس منذ ان كان يقوم في مصر بخدمة كافور، كان على اتصال بدعاة الفاطميين يزودهم سراً بكل شاردة، وواردة عن مصر، وأحوالها، وبعد ان استتب الامر للمعز لدين الله، ونقل عاصمة ملكه الى

القاهرة عيَّن ابن كلس على الخراج، وجميع وجوه الحسبة، والأموال، فاستمرَّ في عمله، واكتسب حب وثقة الخليفة، كما ولاَّه النظر في جميع امور قصره، وبعد وفاة المعز لدين الله ازدادت مكانته عند الخليفة الخامس العزيز بالله، وكان في تلك المدة قد تعمق في دراسة الدين الاسلامي، والفقه الفاطمي الجعفري خاصة، فأصبح من اعلام علماء الدعوة الفاطمية.

اننا لا ندري السبب الذي لاجله اعتقل في قصره سنة ٣٧٣ هـ لمدة عدة اشهر... ثم لا ندري سبب اطلاق سراحه من قبل الخليفة سنة ٣٧٤ هـ، بعد ان اصدر امراً بحمله في موكب الى القصر، ثم قرأ سجلاً بعودته الى منصبه من جديد. وقد ذكر احد المصادر:

ان سبب اعتقاله كان بسبب تهمة الصقت به بانه دسَّ السم بالطعام للقائد التركي افتكين ولكن ثبتت فيما بعد براءته

كان له في الدولة الفاطمية سلطان، ومكانة رفيعة، وكان محباً للعلم، وللعلماء مشجعاً لهم يغدق المنح والعطايا على الكتاب، والشعراء. وذكر التاريخ:

انه كان يجمع عنده العلماء، والفقهاء، ويقيم في منزله الكتَّاب لنسخ القرآن الكريم، وآخرون لنسخ كتب الحديث، والفقه، والادب، والطب، وكان كل يوم ينصب خواناً لخاصته من اهل العلم والكتاب، وخواص الاتباع، والجلساء، وقد عرف من هؤلاء:

الحسين بن عبد الرحيم الزلازلي مصنف كتاب «الاسجاع» والتميمي المقدسي الطبيب، والبديهي الذي اخذ ابن كلس عنه علم العروض.

امّا في الفقه الفاطمي فقد بلغ هو نفسه درجة اهلته لأن يؤلف الكتب، وقد رتب لنفسه مجلساً في كل ليلة جمعة يقرأ فيها مصنفاته على الناس، وكان يحضر هذا المجلس القضاة، والفقهاء، والقراء، والنحاة، وجميع ارباب الفضائل، ووجوه الدولة. كما انه رتَّب مجلساً آخر للفقهاء،

والمتكلمين، واهل الجدل . . . وكلهم كانوا يشتركون بالمناظرات بين يديه .

وذكر:

ان مؤلفاته بلغت العشرين مجلداً جميعها فقدت، ولم يبق منها الاَّ «الرسالة الوزيرية» في مختصر الفقه، وهو الكتاب الذي طلب الخليفة الفاطمي السادس الظاهر لاعزاز دين الله من الناس ان يحفظوه . وذكر:

ان القضاة كانوا يصدرون فتاويهم بموجبه . . . هذا ويجب ان لا ننسى ان ابن كلس هو صاحب فكرة تحويل الجامع الازهر الى جامعة علميَّة . . وقد عرف انه رتب للعلماء، وللمدرسين الذين يدرسون فيه الرواتب، والارزاق . ومعنى هذا كله انه رعى العلم، والعلماء، وشجَّع الادب، والادباء فاتسعت بمساعيه الثقافة، وازداد الاقبال على العلم . . كما ان الشعر لقي على يديه التشجيع . فقد كان للشعراء في انشاد الشعر بحضرته . . مغدقاً عليهم الهبات، والعطايا .

وذكر التاريخ:

ان الخليفة العزيز بالله حزن عليه عندما ظهرت علته . . . وقد عاده وقال في اثر ذلك:

« وددت لو انك تبتاع، فأبتاعك بمالي، او تفدى فأفديك بولدي »

توفي يعقوب بن كلس سنة ٣٨٠ هـ . واجتمع الناس فيما بين القصر، وداره لتشييعه الى مقره الاخير، وخرج الخليفة العزيز بالله على بغلة، والناس يمشون بين يديه، وخلفه، وكان بغير مظلة، والحزن ظاهر عليه، وأقام ثلاثة ايام لا يأكل على مائدته، ولا يحضرها من اعتاد حضورها، وأقام الناس عند قبره شهراً . . . وغدا الشعراء الى قبره فرثاه مائة شاعر اجيزوا كلهم . . . وهذا يدل على مكانته في نفس الخليفة، وفي نفس معاصريه والشعب عامة .

ومن الجدير بالذكر:

ان ابن كلس هو الذي اشار على الخليفة العزيز بالله باستخلاف جوهر الصقلي على قيادة الجيوش بعد ان كان المعز لدين الله قد نحّاه... وجرى هذا عندما اشتدّ خطر القرامطة.. كما انه هو صاحب فكرة التخفيف من نفوذ قبيلة كتامة في الجيش الفاطمي.. وكان يقول:

بضرورة ادخال عناصر مشرقية في جيش الدولة الفاطمية لايجاد التوازن، ممّا سبّب غضب المغاربة عليه، فتآمروا على قتله اكثر من مرة. ويجب ان لا يغرب عن البال بانه كان على اتصال وثيق بالاتراك وانه ادخل العديد منهم في الجيش الفاطمي بواسطة صهره التركي «رشيق العزيزي» الذي تولّى احدى القيادات في الجيش الفاطمي، وكان له دوراً فعّالاً في الحروب الفلسطينية، والشامية.

ومهما يكن من امر... فان الوزير «ابن كلس» جعل من داره قصراً ينافس قصر الخليفة بما كان يذخر فيه من رياش، وبما يضمه بين جوانبه من حاشية، وخزائن الكسوة، والاشربة، والاموال، والتحف، فقد جعل على كل من هذه الاقسام ناظراً خاصاً يديرها، ويشرف على امورها، كما انه اتخذ حرساً خاصاً له بلغ عددهم اربعة الاف من العبيد، والمماليك، وهم الذين كانوا يطلقون عليهم اسم «الوزيرية.... كما رتّب في داره الحجاّب نوباً، وأجلسهم على المراتب، وألبسهم الحرير، والديباج، وقلدهم السيوف، وجعل لهم المناطق... وكان له العبيد، والجواري، والاطباء الذين كان ينتدبهم للكشف على المرضى من هذا الحشد الهائل من النّاس، وكان الى جانب كل هذا عدداً من الكتاب، والعلماء، والادباء، والشعراء، والمتكلمين، وأرباب الصنائع يلازمون الدار، ولكل منهم مكان منفرد خاص به.

وأقام ابن كلس في داره عدة مطابخ لتقديم الطعام لهؤلاء جميعاً علاوة على المطابخ الخاصة التي كانت تقوم بخدمته، وخدمة جلسائه، وخواصه، وضيوفه.

وفي شهر رمضان كان يقيم مآدب الافطار للفقهاء، ووجوه الناس، وأهل الستر، والتعفف ولجماعات كثيرة من الفقراء.

وذكر التاريخ ايضاً عنه:

انه خلّف ثروة كبيرة من الاملاك، كما ترك املاكاً، وضياعاً، وعيناً، وورقاً، وأواني من الذهب، والفضة، والجواهر، والطيب، والعنبر، وثياباً، وفرشاً، وكتباً، وعبيداً، وخيلاً، وبغالاً، وابلاً، وغلالاً، وخزائن مليئة بالتحف الغالية... وكلها قدرت بأربعة ملايين دينار. وهنا لا بد من التساؤل؟ لمن ترك يعقوب هذه الثروة الضخمة؟... فالتاريخ لم يذكر لنا شيئاً عن اولاده، واسرته سوى قوله: انه كان له ابنتان زوجهنّ الى كل من فضل بن الفرات والى القائد التركي رشيق العزيزي، وهناك مصدر ذكر ان دار ابن كلس بعد وفاته تحولت الى ما يشبه المتحف، ونقلت المكتبة التي كانت فيها الى مكان آخر.

ومهما يكن من امر فقد ذكر:

ان ابن كلس بعد ان وطّد نفوذه، وبسط سلطانه نقل دواوين الدولة كلها الى داره، فجعل فيها مركز الحكم، ومصدر السلطات، او ما يسمّى دار الوزارة، وبهذا تكون من ممتلكاته الخاصة، مضافاً الى ذلك انه جعل فيها ديواناً خاصاً للخليفة، وأعماله، وشؤونه، وديواناً لقيادة الجيش العليا، واعمال الحرب، وديواناً للمالية، والخراج، والسجلات، والانشاء، والمستغلات... وكان على كل ديوان رئيس مسؤول يرجع اليه في الامور الطارئة، والمسائل العليا... كما جعل في داره خزائن الاموال العائدة للدولة، والكسوة وقسّمها الى اقسام عديدة، وجعل على كل سم ناظر مسؤول.

امّا هذه الدار، فكانت تقع في حارة الوزيرية الى الجنوب الغربي من القصر الصغير، وعلى مقربة من باب الفرج على الخليج.

وعلى العموم . . . فانها كانت مدينة قائمة بذاتها . . . فيها كل ما يطلبه الشعب من حاجاته، ومتطلباته عندما يحتاج الى ما يتعلق بامـوره، وحياته . . . وكنا ذكرنا انه كان يقيم في هذه الدار بجناح اعده لنفسه، وفي هذا الجناح كان يخصص اياماً يجتمع فيها مع عامة الناس . . . بحيث كان قد اباح الحرية المطلقة بالدخول لكل من يريد عرض قضاياه، او مظالمه، او الاستماع الى الدروس . وبالاضافة الى ذلك خصَّص يوماً في الاسبوع للقضاة، والفقهاء، والقراء، والنحاة، واصحاب الحديث بالتفرغ لاعطاء الدروس، والوعظ، والارشاد للراغبين، وطلبة العلم . . وهذا بالاضافة الى ما اعده من ندوات في جامع الازهر . . امَّا مجلس المناظرة بين المتكلمين، وأهل الجدل فقد كان يعقده برئاسته مرة في الشهر، وكان المتكلمين قد ارتضوا به حكماً فاصلاً بينهم .

وكنا ذكرنا ايضاً : انه عيَّن في داره عدداً من الكتاب لنسخ القرآن الكريم، وكتب الطب، والفقه، والادب، وجعل على مقربة منهم فرقة خاصة مهمتها مقابلة، وضبط كل ما يكتبه الكتَّاب، ونتيجة لذلك اصبحت لديه مكتبة عظيمة لم يكن يوجد لها مثيل في ذلك العصر .

ومن المشهور عن ابن كلس ميله الى الترف، والاناقة . . . فقد كان يكثر من الملابس الثمينة، وكان لديه خزانة خاصة للكسوة لها ناظر يشرف عليها ، وكانت تضم افخر الثياب ، وأثمنها . . . وخاصة ما كان منها مصنوعاً للحفلات ، والاعياد .

واشتهر الى جانب كل هذا بحبه للبنيان، والعمران، وشق الشوارع، والطرقات ، واقامة الملاعب، والساحات ، والحدائق حتى انه انشأ عدداً من المساكن ، والمساجد ، وكانت جميعها تحمل اسمه .

اجل . . . كان ابن كلس يمتلك طاقة كبرى من الذكاء، والعبقرية . . . فالى جانب خبرته العالمية في الشؤون المالية، والاقتصادية . . كان عالماً بالادارة، ومتضلعاً بمعرفة احوال الريف، والقرى ، والزراعة ، وامور الري ،

وانواع الغلال الصالحة . وقد ذكر بانه اجرى اصلاحات كثيرة في هذا الحقل، وانه لم يكن يسأل عن شيء من كل هذا الاّ وأجاب عليه عن يقين، ومعرفة، ودراية .

وكان اكثر من كل هذا . . . فبفضل سياسته الاقتصادية التي مارسها، وطبقها في الدار المصرية، وبفضل حسن ادارته نعمت الدولة الفاطمية بالهدوء، والازدهار الاقتصادي، والرفاه المالي، فامتلأت خزائن الدولة بالثروات حتى ان خراج الدولة وصل في عهده الى اربعة ملايين دينار . . . ولكن لا بد من القول بان البلاد المصرية سنة ٣٧٣ هـ مرَّت بفترة غلاء، وفوضى، ومجاعة، وانتشار الأوبئة نتيجة لانخفاض النيل، وفي هذا العام قبض الخليفة العزيز بالله على ابن كلس، وحجزه في داره، ومنع الناس من الدخول عليه . . . وبعد فترة وثق الخليفة من براءته، وافتقد نصائحه وتدابيره وحسن سياسته ولم يجد في تلك الايام العصيبة في انحاء الدولة من يحل محله وينقذ البلاد مما هي عليه . . . فما كان منه الاّ ان اعطاه الحرية، وأعاده مكرماً، فزاد نفوذه وخاصة بعد ان وجد العلاج الناجع للأزمة، وأقبلت عليه الدنيا من جديد، وهرع الناس يمدون اليه الايدي بالتحية .

لقد اجمعت المصادر التاريخية باجمعها :

بان ابن كلس كان مسلماً عن حقيقة وايمان، وانه كان ديناً، ومتمسكاً باهداب الدين . يطبق قواعد الاسلام، واصولها، وأحكامها . . . ولكنه كان فاطميًا شيعياً، وهذا واضح في اهتماماته ومؤلفاته . . . فالفقه الجعفري كان بنظره واعتقاده هو ما يجب الأخذ عنه، ولهذا جعل له فرعاً خاصاً في الأزهر بحيث كان فريق من المدرسين، والفقهاء الاختصاصيين يتولون تدريس هذه المادة، وتعميمها على الراغبين، وتعتبر الرسالة الوزيرية المصدر الاول، والأساس لاحكام وفروع هذه المادة .

ويجب ان لا ننسى انه في عهده وفد على مصر نخبة من العلماء من شتى انحاء الاقطار الاسلامية فانضووا تحت لوائه، ومن جهته مهّد لهم سبيل الدرس، والتحصيل، والتدريس، واجرى عليهم الرواتب والارزاق،

ومنهم :

ابو عبيد الله محمد بن جعفر التميمي المغربي المعروف بالقزّاز القيرواني النحوي . . . وكان يحمل لقب شيخ اللغة في المغرب .

ومما يقال عنه :

ان القزّار فضح المتقدمين ، وقطع السنة المتأخرين .

وحكى ابو حيّان التوحيدي :

انه سأل التميمي الشاعر المصري عن ابن كلس ؟ فقال :

ذاك رجل له دار ضيافة ، وله زوّار كالقطـ . . . يعطي على القصد ، والتأميل ، والطمع ، والطلب ، وليس عنده امتحان ، فالراحل شاكر .

ومن الشعراء الذين خصّهم برعايته أبو الجرع ، وابن الرقعمق ، والانطاكي ، والدمشقي ، والرسي ، وابن بشر ، وغيرهم .

وخلاصة القول :

فان الوزير الأجل ابن كلس . . كان كما اطلقوا عليه . . مثلاً اعلى في الاخلاص للدولة الفاطمية الفتيّة . . . كريم اليد ، جزيل العطاء ، محسناً للناس ، محباً لعمل الخير . . . واذا علمنا ان مائة شاعر رثوه يوم وفاته ادركنا منزلته . . . ولكن من هم هؤلاء الشعراء ، واين قصائدهم ؟ . . . في الواقع لم يبق لنا من تلك الآثار الاّ قصيدة ابن الرقعمق التي قالها بمدحه .

لم يدع للعزيز في سائر الارض عدوا الاّ وأخمد نارَه
ولهذا اجتباه دون سواه واصطفاه لنفسه واختاره
لم تشيد له الوزارة مجداً لا ولا قبل رفعت مقداره
بل كساها ، وقد تخرّمها الدهر وكر الخطوب بالبذل غاره

ومنها :

هكـذا كـل فـاضـل يـده تمسي وتضحـي نقّـاعـة ضرّارة
فـاستجـره فليس يـأمـن الأ مـن تفيـّا بظلـه واستجـاره

٣ ـ النعمان بن حيّون التميمي:

هو: القاضي ابو حنيفة النعمان بن عبد الله محمد بن منصور بن احمد بن حيّون المغربي التميمي. ولد في القيروان سنة ٢٩٣ هـ. وتوفي في القاهرة سنة ٣٦٣ هـ.

كل ما عرف عن والده ابو عبد الله محمد بانه كان من اتباع المذهب المالكي الذي كان سائداً في افريقيا الشمالية، والاندلس، فشبّ النعمان على هذا المبدأ، ثم تحوّل فيما بعد الى المذهب الحنفي، ولم يلبث ان اصبح اخيراً من الاثنى عشرية الشيعية. بعد ان تمّ له الاتصال بمؤسس الدولة الفاطمية عبيد الله المهدي، وجّه جهوده للمذهب الفاطمي واصبح من مؤيديه، والعاملين له..

اول عمل قام فيه في الدولة الفاطمية... المكتبة الخاصة بالخليفة حيث عهد اليه عبيد الله بامر تنسيقها، والاشراف على تنظيمها، فأفادته هذه المهمة كثيراً، ومكنته من الاطلاع على الكتب الدينية والفلسفية، وبعد وفاة عبيد الله ظلّ على راس عمله، ولكن تقديره تضاعف لدى الخليفة الثاني القائم بامر الله بحيث اصبحت له مهمة استشارية، وعندما جاء المنصور بالله عيّنه قاضياً في طرابلس الغرب، ثم نقله فيما بعد الى المنصورية... فأصبح القاضي الأول للدولة..

اعتبر القاضي النعمان المؤسس، والأب الاكبر لاسرة عظيمة خدمت العلم، والقضاء، وادّت للفكر الاسلامي اجل الخدمات، فكان لها الاثر البارز في مجرى التفكير العام، وفي مضمار الحياة العقلية ليس في قطر اسلامي معين فحسب، بل في البلدان الاسلامية، والعربية عامة. وعندما نقول: بانه كان اشهر فقيه نشأ في ذلك العصر، واكثرهم انتاجاً وأغزرهم

مادة، وأخصبهم قريحة، وانتجهم للمؤلفات، فنكون قد انصفنا الرجل، واعطيناه ما يستحقه.

جاء من المغرب مع المعز لدين الله، وكان قد سمّاه: قاضي قضاة الدولة الفاطمية، وفي مصر تفرّغ للتأليف ولكن الأجل وافاه بعهد المعز لدين الله.

ترك النعمان ولدان هما: ابو الحسين علي بن النعمان، وابو عبد الله محمد ابن النعمان. وقد مرَّ معنا ان علي تسلّم شوؤن القضاء بعد والده بامر من المعز لدين الله، بينما عهد الى اخيه محمد بمهمة نيابة القضاء وبعد وفاة علي تسلّم منصبه. وممّا يجب ان يذكر: ان علي كان له ولداً اسمه الحسين، وان لمحمد ولداً تولّى القضاء بعده بعهد العزيز بالله، والحاكم بامر الله وهو المعروف «بعبد العزيز» بن النعمان. ومن هنا فان هذه الاسرة عرفت في مصر بعائلة القضاة، فكانت في مختلف الادوار قائمة بمهماتها العلمية، ومحافظة على اخلاصها للدولة الفاطمية.

اشهر مؤلفات النعمان.

١ ـ في الفقه:

الايضاح، مختصر الايضاح، الاخبار، الينبوع، الاقتصار، الاتفاق والافتراق، المقتصر، القصيدة المنتخبة، مختصر الآثار.. يوم وليلة.. الطهارة، كيفية الصلوات، منهاج الفرائض.

٢ ـ في المناظرة:

الرسالة المصرية في الرد على الشافعي، كتاب في الرد على احمد بن شريح البغدادي، الرسالة المسماة ذات البيان في الرد على ابن قتيبة، اختلاف اصول المذاهب، دافع الموجز في الرد العتكي.

٣ ـ في التأويل:

نهج السبيل الى معرفة علم التأويل، اساس التأويل، تأويل دعائم الاسلام.

٤ ـ في الحقائق:

حدود المعرفة، كتاب التوحيد والامامة، اثبات الحقائق، كتاب في الامامة.

٥ ـ في العقائد:

القصيدة المختارة، التعاقد والانتقاد، كتاب الدعاء، كتاب الهمة في اداب اتباع الائمة، كتاب الحلي والثياب، كتاب الشروط.

٦ ـ في الأخبار والسير:

شرح الاخبار، قصيدة ذات المنن، قصيدة ذات المحن.

٧ ـ في التاريخ:

افتتاح الدعوة، مناقب بني هاشم، الرسالة الى المرشد الداعي بمصر في تربية المؤمنين، المجالس والمسايرات، معالم الهدى.

٨ ـ في علم الارواح:

تأويل الرؤيا، منامات الائمة، كتاب التقريع، والتعنيف، مفاتيح النعمة، تقويم الاحكام، الراحة، والتسلي، سيرة الائمة.

للقاضي النعمان مؤلفات عديدة ولكن اهمها بنظر دعاة الفاطميين:

كتاب اساس التأويل، وفيه تأويل قصص الانبياء التي وردت في القرآن الكريم، وبالنظر لأهمية الكتاب فقد ترجم الى اللغة الفارسية المؤيد في الدين.. هبة الله الشيرازي داعي دعاة الفاطميين بعهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله. ومن الجدير بالذكر ان هذا الكتاب حقّق وطبع باشراف: عارف تامر.

امّا كتاب دعائم الاسلام في ذكر الحلال والحرام، والقضايا والاحكام فهو من الكتب القيمة التي ضمّت فقه الدولة الفاطمية، وذكر ان الخليفة الفاطمي اشرف بنفسه على تأليفه، ونصّ العديد من الفقرات على النعمان

منه . وقد جاء بجزأين: حققه العلاّمة آصف علي اصغر فيضي وتولّت دار المعارف المصرية طبعه ، وتوزيعه .

هناك كتب اخرى منسوبة للنعمان . . . ولكنها لم تذكر في عداد مؤلفاته .

٤ ـ ابن هانيء الاندلسي :

هو محمد بن هانيء بن محمد بن سعدون الازدي الاندلسي . ولد بقرية سكون من قرى مدينة اشبيلية سنة ٣٢٠ هـ او في سنة ٣٢٦ هـ على اختلاف الروايتين . يكنّى بأبي قاسم ، وبأبي الحسن ، ويقال له ابن هانيء الاندلسي تمييزاً عن الحسن بن هانيء الحكمي الشاعر الذي اشتهر بأبي نؤاس .

قالوا :

انه من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن ابي صفرة الازدي ، وقيل بل هو من ولد اخيه روح بن حاتم . . . ويزيد بن حاتم هذا هو الذي سيَّره أبو جعفر المنصور العباسي في ستين الف فارس الى افريقيا لقتال بن حفص فوصلها سنة ١٥٤ وظفر بعمر المذكور وقتله . . فلمّا مات يزيد في شهر رمضان سنة ١٧٠ هـ استعمل هرون الرشيد اخاه روحاً على افريقيا . . وكان قبل ذلك نائباً على فلسطين .

ينسب الى الازد ، وهي قبيلة يمنيَّة تجمع فروعاً كثيرة ، ولهذا سمّى قصائده « ازديّة يمنيّة » . وكان والده هانيء من احدى قرى المهديّة بأفريقيا الشمالية ، وكان ايضاً شاعراً اديباً ، فانتقل الى الاندلس ، وأقام في اشبيلية حيث ولد له محمد ، فنشأ بها ، وحصل له حظ وافر في الادب ، وعمل الشعر ، ومهر فيه ، وكان تأدبه في دار العلم بقرطبة ، ثم استوطن والده إلبيرة . . . وكان ايضاً مع مهارته في الشعر عارفاً بعلوم أخر لا سيما علم الهيئة كما يظهر من قصيدته الغائية . وكان له حذق ثاقب في فك المعمَّى .

اول ما اتصل به ابن هانيء صاحب اشبيلية فأعزه، وأكرمه، وأقام معه زمناً، ثم فارقه بعد ان نقم اهل اشبيلية على الملك، وأساءوا القول فيه، وذلك لاقامة الشاعر عنده لانه كان يدين بالعقيدة الاسماعيلية، وبامامة الفاطميين، وعندما هموا بقتله اشار عليه الملك بالغيبة عن المدينة مدة يُنسى بها خبره، فتركها وعمره يومئذٍ سبعة وعشرين عاماً.

ومن الغرابة انه لا توجد في ديوانه قصيدة في مدح صاحب اشبيلية. مع ان الشاعر اقام عنده زمناً طويلاً..

وخرج الشاعر الى عدوة المغرب، فلقي القائد جوهر الصقلي، وامتدحه فأعطاه مائتي درهم فاستقلها، وسأل عن كريم يمدحه.. فقيل اله: عليك باحدى الجعفرين: جعفر بن فلاح او جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسية، وكان جعفر بن علي بالمسيلة، وهي من مدن الزاب والياً عليها مع اخيه يحيى، فقصدهما، ومدحهما بالقصائد الرائعة، فبالغا في اكرامه، والاحسان اليه، وسارت اشعاره فيهما في كل مكان... وظلّ عندهما في ارغد عيش، وأعز جانب إلى ان نما خبره الى الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله، فطلبه منهما، فوجّهاه الى القيروان في جملة طُرَفٍ وتحف بعثا بها اليه... وهكذا اقام عند المعز لدين الله الى ان كان من امر قتله.. ومن الجدير بالذكر: انه لقي المصاعب، والاهوال حتى وصل الى البلاط الفاطمي المعزّي.. ولهذا يشير بقوله:

ولـو علقتـه مـن اميـة احبـلٌ لجبَّ سنام من بني الشعـر تـامـكُ
ولّما التقـتْ اسيـافهـا ورمـاحهـا شراعاً وقد سـدَّت عليَّ المسـالـكُ
اجـزتُ عليهـا عـابـراً وتـركتهـا كـأنَّ المنـايـا تحت جنبي ارائـكُ
ومـا نقمـوا الاّ قـديم تشيعـي فنجـى هـزبـراً شـدُّه المتـداركُ

امتدح ابن هانيء الاندلسي الخليفة المعز لدين الله بغرر القصائد، وعيون الشعر... فبالغ في الانعام عليه، وأقام عنده، وهو منعم مكرّم الى

ان ارتحل من المغرب الى مصر.. وان الحظ الذي حصل له عنده اجل من ان يوصف، وبالجملة: لم يكن هناك ممدوح اعزَّ شاعره كما عزَّ المعز لدين الله ابن هانيء... وممَّا يجب ان يشار اليه انه لمَّا انشده في القيروان وقصيدته التي اولها:

هـل مـن اعقــة عـالـجٍ يبريــنُ ام منهما بقــــــر الحدوج العينُ

امر له بدست قيمته ستة الاف دينار... فقال: يا امير المؤمنين مالي موضع يسع الدست اذا بُسط، فأمر له بقصرٍ منيف.

ولمَّا بلغ المعز لدين الله خبر وفاته، وهو بمصر.. تأسف عليه وقال:

لا حول ولا قوة الاَّ بالله... هذا الرجل كنَّا نرجو ان نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك.

يقول التاريخ:

انه بينما كان يسير متوجهاً الى مصر، وهو في صحبة المعز لدين الله اذ وجد مقتولاً بجانب البحر.

وقال ابن خلكان:

لمَّا توجه المعز لدين الله الى الديار المصرية شيعه ابن هانيء، ورجع الى المغرب لاخذ عياله والالتحاق به... فتجهزَّ، وتبعه، ولمَّا وصل الى برقة اضافه شخص من اهلها، فأقام عنده في مجلس الانس ويقال انهم عربدوا عليه، فقتلوه... وقيل: خرج من تلك الدار وهو سكران فنام في الطريق، واصبح ميتاً، ولم يعرف سبب موته؟ وقيل: انه وجد في ساقية من سواقي برقة مخنوقاً بتكة سرواله، وكان ذلك بكرة يوم الاربعاء لسبع ليالٍ بقين من رجب سنة ٣٦٢ هـ. وعمره ست وثلاثون سنة، وقيل: اثنتان وأربعون...... هذا ومن المؤكد ان ابن خلدون، وابو الفداء، وابن الاثير... اتفقوا على ان ابن هانيء كان مع المعز لدين الله عندما توجه

الى مصر، ولمّا وصل الى برقة قتل ابن هانىء غيلة. امّا ابن الخطيب فيذكر ان ابن هانىء توجه الى مصر ليلحق بالمعز لدين الله الذي كان انذاك فيها، وعند وصوله الى برقة سكر ونام عرياناً وكان البرد شديداً فأفلج... ويخالف هذه الرواية ياقوت الحموي.. فيذكر انه وجد مخنوقاً بتكة سرواله، ولم يعرف السبب؟

من هنا نتبين ان المؤرخين لم يتفقوا على كيفية موت الشاعر... ولكنهم اتفقوا على تاريخ الوفاة واكدوا حصولها في برقة.

امّا عن ولادته ومكانها، فابن خلكان، وياقوت، واصحاب الاحاطة، والمطمح، والمقري، وشذرات الذهب ووفيات الاعيان، لم يتفقوا ايضاً على تاريخ ولادته، كما انهم اختلفوا في عمره عند الوفاة.. فمنهم من قال اثنتين واربعين، ومنهم من لم يستطع البت، والتأكيد.

اجل... من الواضح ان ابن هانىء مدح المعز لدين الله، وهنأه بالظفر الذي احرزه الفاطمي على الروم في معركة المجاز... وهذه المعركة حصلت سنة ٣٥٤ هـ.... والذي يهمنا منها ان ابن هانىء في قصيدته اخذ يصوّر نفسه وكأنه في آخر عهد الشباب... اننا نرى الدموع تترقرق على خديه اسفاً على شباب ولّى، وغصن اوشك ان يذوى، كما اننا نحسّ معه المرارة، والالم لهذا الشيب الذي اخذ في ذلك الوقت يغزو رأسه. فهو يقول:

لا مثل وجدي بريعان الشباب وقد رأيتُ املود غصني غير املودِ
والشيب يضرب في فوديَّ بارقه والدهر يقدح في شملي بتبديد
ورابني لون رأسي انه اختلفت فيه الغمائمُ من بيضٍ ومن سود

ومهما يكن من امر... فكل هذا يعطي الدليل على ان ابن هانىء حين موته كان قد تجاوز الاربعين عاماً...

امّا والده فيقول ابن الأبار:

هو من احدى قرى المهدية، وقد دخل الاندلس، فولد له ابنه ابو القاسم ويزيد ابن خلكان على التعريف بهانيء بن محمد بن سعدون الازدي فيقول:

وكان هانيء شاعراً، أديباً، فانتقل الى الاندلس حيث ولد محمد بمدينة اشبيلية، وفي هذا يؤكد ان والده كان غريباً عندما دخل الاندلس، وأقام فيها لسبب من الأسباب... ولكن ما هو هذا السبب؟ اطمعاً في مركز يشغله، او رزق يجنيه؟ وهو الاديب الشاعر... وكان الادب في ذلك العصر يمهد لصاحبه الوصول الى المراكز السامية.

نقول:

ليس غريباً ان تصبو نفس الشاعر الاديب الى الجاه، والثروة، ولكن التاريخ لا يذكر انه اتصل بأمير، او مدح وزير.. وهذا معناه انه لم يأتِ طمعاً في ثروة، او جاه بل جاء ليبلغ رسالته الدعائية الفاطمية، ويبشر بتلك الافكار التي شغلت المغرب، والمشرق على السواء... هذا ومن جهة اخرى فاننا لا نعلم شيئاً عن حياة ابن هانيء الخاصة، ونجهل فيما اذا كان قد تزوّج، او انجب اولاداً.

ومهما يكن من امر فاننا ايضاً لا نعلم الاساتذة الذين درس عليهم ابن هانيء الادب، والشعر، وعندما نستعرض العلماء الذين اشتهروا في عصرهم يبرز امامنا: ابراهيم بن عبد الله المعافري من اهل اشبيلية، وكان عالماً بالشعر مطبوعاً فيه... وهناك محمد بن يحيى بن عبد السلام الازدي من قرطبة، وكان حجة باللغة العربية فهل درس ابن هانيء عليهما، او على احدهما؟

وهناك من يقول: انه اكتفى بوالده الذي سهر عليه، وأدّبه وعلّمه...

قال الوزير محمد لسان الدين بن الخطيب:

كان ابن هانيء من فحول الشعراء، وامثال النظم، وبرهان البلاغة...

لا يدرك شأوه، ولا يشق غباره، مع المشاركة في العلوم، والنفوذ في فلك المعمَّى .

وجرى ذكرى ذكره في « تلخيص الذهب » بما نصه :

العقاب الكاسرة، والصمصامة الباترة، والشوارد التي تهادتها الآفاق، والغايات التي عجز عنها السباق .

وذكره ابن شرف في مقاماته . . قال :

واَمَّا ابن هانيء فنجدي الكلام، سردي النظام، وله غزل معدّي . . . لا عذري .

ويقول ابن خلكان :

وليس في المغاربة من هو في طبقته لا من متقدميهم، ولا من متأخريهم . . . بل هو اشعرهم على الاطلاق، وهو عندهم كالمتنبيء عند المشارقة .

ويفتخر به ابو الوليد الشقندي في مناظرته لأبي يحي بن المعلم الطنجي في مجلس صاحب سبتة، وقد اوردها المقري صاحب نفح الطيب بكمالها، فقال في وصف اهل الاندلس :

هل منكم الذي طار في مشارق الارض، ومغاربها قوله . . . وهو ابو القاسم محمد بن هانيء الألبيري :

فتُقَت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدّكم فلق الصباح المُسفر
وجنيتمُ ثمرَ الوقائع يانعاً بالنصر من ورق الحديد الاخضرَ

ثم قال الشقندي :

وقد سمعت فائيته في النجوم، ولولا طولها لانشدتها هنا، فانها من احسن ما قيل في معناها .

ويذكره الحميدي في سفره فيقول :

محمد بن هانىء شاعر اندلسي كثير الشعر، محسن جواد، الاّ ان قعقعة الألفاظ اغلب على شعره.. انشدني له ابو محمد عبد الله بن عثمان بن مروان النحوي قوله في جعفر القائد المعروف بابن الاندلسية:

المدنفـان مـن البريـة كلهـا جسمـي وطـرفٌ بـابليٌّ احـورُ
والمشرقـات النيرات ثلاثـة الشمس، والقمـر المنير وجعفـر

ومِمَّا يستحسن من قوله:

ولَمَّا التقـت الحاظنـا ووشـاتنـا واعلن سر الوشيُ مـا الوشي كـاتمُ
تـأوَّه انسـيٌّ مـن الحذر نـاشـجٌ فأسعدَ وحشيٌّ مـن السـدر نـاعـم

ويشبهه محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي البلنسي المعروف بابن الابّار بأبي تمام بقوله:

هو، وأبو عمرو = ابن درَّاج = القسطلي نظيران لحبيب، والمتنبىء.

ومدحه الفتح بن خاقان بقوله:

هو علق خطير، وروض ادب مطير.. غاص في طلب الغريب حتى اخرج دره المكنون، وبهرج بافتنانه فيه كل الفنون، وله نظم تتمنَّى الثريا ان تتوَّج به، وتقلَّد، ويود البدر ان يكتب فيه ما اخترع وولَّد،... زهت به الاندلس وتاهت، وحاسنت ببدائعه الاشمس، وزاهت... فحسد المغرب فيه المشرق، وغصَّ به من بالعراق، وأشرق، غير انه نبتت به اكنافها، لانه سلك مسلك المعري، وتجرَّد من التدين، وأبدى الغلو، فمجتَّه الانفس، وأزعجته الاندلس، فخرج على غير اختيار، وما عرَّج على هذه الديار، فله بدائع يتحيَّر فيها، ويحار، ويخال لرقتها انها اسحار، فانه اعتمد التهذيب، والتحرير، واتبع في اغراضه الفرزدق مع جرير.. وامَّا تشبيهاته فخرق فيها المعتاد، وما شاء منها اقتاد.

وقال الذهبي:

وأبوه شاعر اديب، وليس يلحقه احد في الشعر من اهل الاندلس، وهو نظير المتنبي . وقال ابن رشيق في باب اللفظ والمعنى:

وفرقة اصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى الاَّ القليل النادر كأبي القاسم بن هانيء ومن جرى مجراه . . . فانه يقول في اول مذهبته :

أصاختْ فقالت وقع اجرد شيظم   وشامت فقالت لمعُ ابيض مخذم
وما ذعرت الاَّ بجرس حليّها   ولا رمقت الاَّ بُرىً في مخذَّم

وليس تحت هذا كله الاَّ الفساد، وخلافَ المراد . . ما الذي يفيدنا ان تكون هذه المنسوب بها لبست حليها ، فتوهمته بعد الاصاخة، والرمق، وقع فرس، او لمع سيف غير انها مغزوة في دارها ، او جاهلة بما حملته من زينتها ، ولم يخف عنَّا مراده . . انها كانت تترقبه . . فما هذا كله ؟

وينقل الشيخ تقي الدين ابو بكر علي المعروف بابن حجة الحموي في باب تجاهل العارف للمبالغة في الممدوح قول ابن هانيء :

ابني العوالي السمهرية والسيوف   المشرفية والعديد الأكثر
من منكم الملك المطاعَ كأنه   تحت السوابغ تبعٌ في حمير
كلَّ الملوك من السروج سواقط   الاَّ المملّك فوق ظهر الأشقر

يقول :

انه لمّا تجاهل في هذا البيت عن معرفة الممدوح، ترجلَّ الجيش بكامله تعظيماً للمدوح ، اذ هو ملكهم . . . وهذه القصيدة سارت بها الركبان، والحداة تشدو ببلاغتها ، وهي احب من « قفا نبك» في الشهرة لفصاحتها ومطلعها : « فُتقت لكم ريحُ . . . . » . اقول :

ان هذه الاستعارات المرشحة ، يرشح منها ندى البلاغة ، وتتعثر فحول الشعراء في حلبة سباقها .

وقال ياقوت الحموي :

ابو القاسم الازدي الاندلسي... اديب شاعر مغلق اشعر المتقدمين، والمتأخرين من المغاربة وهو عندهم كالمتنبي عند اهل المشرق.

وقال يوسف بن يحيى بن الحسين بن المؤيد:

ابو القاسم.. ويلقب ايضاً ابا الحسن بن هانىء الاندلسي الازدي المشهور بمتنبىء المغرب شاعر المعز لدين الله المشهور... فاضل ينظم الكواكب، ويترك الطائرين للحاقه صرعى على المناكب ان وصف الوغى ترك ابا الطيب كالببغاء، او اطرى المحبوب ترك حبيباً في ضد يعقوب، او مدح ذا الكرم الهنيء الشيم، ترك زهيراً يكدح بعلاجه في هرم... فهو اشعر المغاربة... معانيه لكل دمية كالوشاح، بل لكل روضة كالاقاح.

اماَّ ابو العلاء المعري... فكان اذا سمح ابن هانىء يقول:

ما اشبهه الاَّ برحى تطحن قروناً لأجل القعقة التي في الفاظه، ويزعم ان لا طائل تحت الالفاظ. وقد ردَّ ابن خلكان على المعري بقوله:

لعمري ما انصفه في هذا المقال، وما حمله على هذا الاَ فرط تعصبه للمتنبي، وبالجملة فما كان الاَّ من المحسنين في النظم.

ومن المستشرقين الذين ذكروا ابن هانىء في كتبهم: ڤان كريمر، وهامر، وهوارث، وقد ترجم ڤان كريمر بعض اشعاره الى اللغة الالمانية، وقال:

قوة البيان، وكثرة التمثيلات، وجودة الالفاظ التي لا يكاد يقدر عليها من الشعراء الاَّ قليل، وهي الاوصاف التي نشرت صيته، ورفعت ذكره، وجعلته من الشعراء المحسنين ولهذا سمتَّه المغاربة «متنبي المغرب» فلا شبهة في كونه مستحقاً لهذا الاسم، وان نسخ ديوانه قليله جداً بالنظر لما فيه من الاشياء المخالفة لعقائد عامة المسلمين، وديوانه اهم الدواوين عندنا لانه ذريعة لنا الى الاطلاع على عقائد الخلفاء الفاطميين، ومقاصدهم.

ومهما يكن من امر فابن هانىء عرف بانه شاعر المعز لدين الله، وله فيه غرر القصائد التي خرجت في بعض الاحيان على المألوف من القول بالنسبة

لعامة المسلمين، على ان المطلعين على التأويل الفاطمي والفلسفة الاسماعيلية يرون باقواله كل ما يتفق وتعاليم هذه الفلسفة. ومن قوله في قصيدة انشدها عندما خرج المعز لدين الله لوداع جوهر عندما توجه الى مصر.

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمعُ وقد راعني يوم من الحشر اروعُ
غداة كأنَّ الافق سُدَّ بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلعُ
تسير الجبال الجامدات بسيره وتسجدُ من ادنى الحفيف وتركع
اذا حلَّ في ارضٍ بناها مدائناً وان سار عن ارضٍ ثوت وهي بلقع

ومنها:

فسرْ ايها الملك المطاع مؤيداً فللدين، والدنيا اليك تطلع
سيعلم من ناواك كيف مصيره ويبصرُ من قارعته كيف يقرعُ
اذا صلتَ لم يكُرم على السيف سيدٌ وان قلت لم يقدم على النطق مصقع

ومن غرر اقواله في المعز لدين الله:

وطفقت اسأل عن اغرَّ محجل فاذا الانام جبلة دهماءُ
حتى دفعتُ الى المعزّ خليفةً فعلمت ان المطلب الخلفاء
جود كأن اليم فيه نفاثة وكأنما الدنيا عليه غثاءُ
ملك اذا نطقت علاه بمدحه خرسَ الوفود وافحم الخطباء

ومنها:

للناس اجماع على تفضيله حتى استوى اللؤماء والكرماء
هذا امين الله بين عباده وبلاده ان عُددت الامناء
نزلت ملائكة السماء بنصره وأطاعه الاصباحُ والامساء

وقال في المعز لدين الله:

في الغيثِ شبه من نداك كأنما مُسحت على الانواء منك يمينُ
اماَّ الغنى فهو الذي اوليتنا فكأن جودك بالخلود رهين

لو يستطيعُ البحر لاستعدى على جدوى يديك وانه لقمين
امدده او فاصفح له عن نيله فلقد تخوَّف ان يقال ضنينُ

وقال فيه ايضاً :

وما لسماءٍ ان تعدَّ نجومها اذا عُدَّ آباء له وجدود
فأسيافه تلك العواري نصولها الى اليوم لن تعرف لهنَّ غمود
ومن خيله تلك الجوافل انها الى الآن لم تحطط لهن لبود
امام له ممَّا جهلت حقيقة وليس له ممَّا علمت نديدُ

وقال فيه ايضاً :

والوصفُ يمكن فيه الاَّ انه لا يطلق التشبيه والتمثيلُ
والناس ان قيسوا اليه فانهم عرض له في جوهرٍ محمول
ولقد سمعتك لا بسمعي هيبة لكن وجدتك جوهراً مصقولُ

هذه بعض مقاطع من قصائده الثلاثة والعشرين التي اطلقنا عليها اسم « المعزيأّت » وجعلناها في مقدمة ديوانه الكبير الماثل للطبع .

٥ ـ تميم بن المعز لدين الله :

تعتبر حياة الشاعر تميم بن المعز لدين الله الفاطمي مقفلة من جميع ابوابها، وغامضة اشد الغموض من جميع نواحيها... فالمراجع التى بين ايدينا لا تعطينا الا نذر اليسير عن حياته القصيرة، ولا تصف لنا تلك الايام التي عاشها في المغرب، وفي مصر... وقد أجمعت هذه المراجع على ان تميم هو ابن الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله الأكبر، وأخ الخليفة الخامس العزيز بالله .

هذا ما اورده الثعالبي في اليتيمة، والباخرزي في الدمية، وابن خلكان في الوفيات، وياقوت في معجم الأدباء، وابن فضل الله في المسالك،

والمقريزي في الخطط، وابن ثغري في النجوم الزاهرة، والسيوطي في حسن المحاضرة.

ولد تميم سنة ٣٣٧ هـ في مدينة المهدية بالمغرب الأوسط، وهي المدينة التي بناها «عبيد الله المهدي سنة ٣٠٨ هـ، وجعلها عاصمة لدولته الفاطمية، وقد ظلّت كذلك الى ان بنى المنصور بالله مدينة المنصورية سنة ٣٣٧ هـ. بعد نجاحه في اخماد ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي.

اذن... فولادة تميم جاءت بعد القضاء على هذه الثورة العاتية بعام واحد... اي في خلافة المنصور بالله، ومن الطريف حقاً ان اباه المعز لدين الله كني بأبي تميم، ولمّا يولد تميم بعد... ومعنى هذا ان تميم هو الابن الاكبر للمعز لدين الله، وقد اكدت المصادر انه كان للمعز لدين الله اولاد اخرين هم: عبد الله، والعزيز، وعقيل، نشأوا جميعهم في قصر الخلافة في المهدية، ثم بالمنصورية، وأخيراً جاءوا الى مصر مع والدهم.

نحن: لا نعلم كيف نشأ تميم، كما انّا لا نعلم شيئاً عن اساتذته، ومربيه؟ بالرغم من اننا على معرفة اكيدة بشغف جده المنصور بالله، والمعز لدين الله والده، بالعلوم، والاداب، والشعر... ولعلّ هذه البيئة الثقافية التي احاطت بتميم اثرّت في تكونيه، وتوجيهه منذ الصغر هذه الوجهة الادبية.

ومهما يكن من امر... فان تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب لم يذكر لنا الاّ اسماء ثلاثة شعراء عاشوا في ظل الدولة الفاطمية في المغرب... اولهم: ابن هانيء الاندلسي، واحمد المروزي نجل القاضي المروزي الذي تولّى القضاء بعهد الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي، وعلي بن محمد الأيادي... وكما هو الحال فان الايام، والاحداث لم تبق لنا من انتاجهم سوى مقاطع ذكرها النعمان بن حيوّن في كتابه افتتاح الدعوة، وبالنسبة لتميم فان شعره في المغرب ضاع ولم يبق منه الاّ القليل... فقد ورد في ديوانه ان والده المعز لدين الله اوفده من سوسة الى المنصورية لمقابلة عسلوج، وقبض بعض الاموال منه.. فكتب اليه:

دهاني بعدك الخطبُ الجليلُ فلا حسن لديَّ ولا جميل
اروح فلا ارى الاَّ ثقيلاً ومن انا عنده ايضاً ثقيلُ

قدم تميم الى مصر وهو في سنه الخامسة والعشرين من عمره، وسكن القصر الكبير في القاهرة ومن الواضح ان المعز لدين الله كان شديد الحرص على الاَّ يعهد الى تميم بأي عمل من الاعمال... ولا ندري سبب ذلك؟

فعندما هاجم القرامطة مصر سنة ٣٦٣، عهد المعز لدين الله الى الامير عبد الله بقيادة الجيوش، وظَلّ تميم بمعزل عن كل عمل سياسي، بل من المؤكد انه اهمل اهمالاً شديداً، وعندما مات ولي العهد الامير عبد الله سنة ٣٦٤ هـ. تطلع الناس الى تميم مرة ثانية، ولكن المعز لدين الله صرفها عنه مرة ثانية، وجعلها في ابنه الثالث العزيز بالله... وهنا عرف تميم بان الامر قد خرج من يده وللابد.

ويذهب ابن الأبَّار الى ان المعز لدين الله لم يولِ تميم بدعوى انه لم ينجب ولداً... ولكن الحقيقة غير ذلك فتميم انجب ولداً هو علي، وكان الناس ينادونه باسم ابي علي.

اجل... بعد هذا التدبير استسلم تميم الى حكم الاقدار التي حرمته من الملك... فلم نسمع عنه بعد ذلك ان دبَّر فتنة لزعزعة اخيه، او قام بمؤامرة على سلامة الخلافة... بل بالعكس اظهر خضوعه، واعلن وفاءه وكان اخاه العزيز بالله يهبه الهبات الكثيرة، ويغدق عليه الاموال الطائلة.

فقد ذكر:

ان الخليفة العزيز بالله وهب له البستان المعروف بالمعشوق بخطة راشده وعرف فيما بعد باسم جنة الامير تميم، كما جعل له القصور المنبفة على ضفاف بركة الحبش.

ويروي ابن الأبّار:

ان العزيز بالله تنزه مرة الى بركة الحبش... فلمّا قرب من قصور اخيه سأل عن تميم؟ فخرج اليه راجلاً حافياً حتى لقيه، فسلّم عليه بالخلافة وقال:

يا امير المؤمنين قد وجبت على عبدك الضيافة... قال... نعم... ودخل معه الى بستانه، وقد امر بجنينة من الجنائن التي كانت بين يديه، وأقسم على تميم ان يركبها، ويسايره... فلمّا توسط البستان نظر الى ثمر يلوح الذهب عليه... فتعجب منه، واستظرفه، ودنـا من شجرة فأخذ منها ليمونة واحدة، واذا مكتوب عليها:

انا الليمون قد غُذيت عروقـي   ببرد الماء في حـرز حـريـز

فجعلها في كمه وقال:

هذه ضيافتي عندك، وانصرف الى قصره، فبعث الى جعفر بن قد هب صاحب بيت المال فقال له: ما عنك من الدنانير ضرب هذه السنة؟ وكان العام في اوله... فقال:

مائة وستون الف... فأمر بحملها من ساعته الى الامير تميم مع راشد العزيزي....

وقال له:

امير المؤمنين يقرأ عليك السلام... ويقول لك استعن بهذه على مؤنتك

وهكذا... عاش تميم في مصر حياة لهو وترف، ووجد في البيئة المصرية من المنتزهات والديارات والأسباب ما وافق مزاجه، وهواه. فأكثر من الخروج الى المختار بجزيرة الروضة، والى دير القصير، ودير مرضّا، وشارك المصريين لهوهم، وطربهم، واكثر من الشرب، والعبث، والبذخ، والتأنق.

فكان يركب على عشاريّ في النيل، ويتبعه اربعة زوارق مملوءة فاكهة، وطعاماً، وشراباً، فاذا كانت الليالي مقمرة، والاّ كان معه من الشموع ما

يعيد الليل نهاراً . . . وكان اذا مرَّ على طائفة، واستحسن من غنائم صوتاً امر باعادته، وسألهم عمّا عزَّ عليهم، فيأمر لهم به، ويأمر بمن يغني لهم، وينتقل منهم الى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله، ثم ينصرف الى قصوره، وبساتينه، فلا يزال على هذا الحال حتى تنقضي ايام الاعياد .

وكان تميم كريماً يسرف في الكرم الى حد السفه، مقبلاً على الشراب، محباً للسماع، مشركاً اصحاب اللذة، واللهو، والقصف، والمجون . . . وقد اتخذ لنفسه عدداً من الاصدقاء، ومن بينهم « بني الرسّي » وهم اسرة من العلويين الحسينيين التي اقامت دولة الزيدية في اليمن . . . ولا ندري كيف جاءت هذه الاسرة، واستوطنت مصر في ذلك العهد؟ وكان جد الاسرة ابو القاسم نقيب الطالبين بمصر، وأحد الذين حضروا عهد الاخشيد، وكان شاعراً مجيداً وتوفي سنة ٣٥٢ هـ . وكان ولداه: ابو محمد القاسم، وأبو اسماعيل ابراهيم من الشعراء ايضاً، وهذا الاخير من اصدقاء تميم ولكن يتضح ان صلته بالحسين بن ابراهيم كانت امتن، فكانا يتهاديان، ويتراسلان بالشعر، ويدعو احدهما الآخر للقصف، والشراب .

امتاز شعر تميم بالرقة، والعذوبة، والتشبيهات الجميلة، وقد نلمس في روحه الشعرية الصنعة المصرية والذوق الاندلسي، الذي صبغ شعره بلونه الجذاب، وديباجته الرائعة . وموسيقاه الشجية .

ونرى في شعره ايضاً جلباباً نسجه البيان المغربي الساحر، ودبجه خيال قرطبة وأشبيلية وغيرهما من المدن الاندلسية التي نقشت فيها الطبيعة ابدع صورها، وألوانها .

ذكرت المصادر:

ان تميم مات سنة ٣٧٥ هـ . فيكون قد عمر ثمانية وثلاثين عاماً . . . ودفن في القاهرة المعزيّة في المقبرة الفاطمية المعروفة بقبة الزعفران . وكأني به كان يردد وهو على فراش الموت قوله:

الى كم تهدم الاحـــداث ركني   وتـــرميني بجورٍ واعتـــداءِ
يعـــاقبني الزمـــان بغير ذنـــبٍ   وتخذلني يـدي وذووا اصطفـائـي
حيـــاتي بين واشٍ او حســـودٍ   وســـاع بي يسر بطـــول دائـــي

ان من يتسلل الى حرم تميم، ويتجول في فسحات ديوانه فيرى: انه قد اعطى الطبيعة القسم الأكبر من اهتمامه فغناها اطيب الحانه، عندما تكون اكمام الرياح محملة بفتات المسك، وعناقيد اللؤلؤ الابيض معلقة في اعناق النسرين، وبراعم الورد الاحمر تعانق اوراق الاغصان... او عندما يكون حبيبه الى جواره، والقمر شاهد على مناجاته، وحينما تتجاوب الخمائل بانغام الاعواد، وصخب السقاة المخمورين، وقبل العشاق، والسمّار:

ذكـــرني النسريـــن لمّا اتـــى   ريـحُ حبيـب لي اطـال الصـدود
كـــأنما قبلـــت مـــن نشره   بيـض الثنـــايـا واحمرار الخدود
مـــا اجـــود النسريـــن لكنـــه   ذكـرني هـــاجـــراً لـــن يعـــود

ويغب من الليل ما يشاء، وكأنه راهب يجلس امام شاطىء النيل الهادىء ساعة الدغشة المتلألئة يقطف منها الصور والالوان، ليضعها على لوحاته الخالدة:

اما ترى حـركـات الريـح مخبرة   ان الغمام يصوب الارض بـالمطـر
فـالجو ملتحـف بسطـاً مفـوَّفـةً   كـــانهن اختلاف الوشي والحبر
كـأنَّ بـــرد نسيم الغيم حين بـــدا   برد ارتشاف حبيب زار في السحر

والنجوم امامه ترمي شعاعاتها من الازرق حفنة، ومن الاخضر حفنات عندما يكسو الضباب شاطىء النهر كالغلالة الشفَّافة، وحينما يهب النسيم العليل، ليداعب الورد النابت على جوانب الماء، هامساً في اذنه اغاني الحب، والشوق والجمال.

اذا حان من شمس النهار غـروب   تـذكّـر مشتـاق وحـنَّ غـريـب
واني لأهوى الريح من كل ما بدا   بـريّـاه مـن ريـح الشمال هبـوبُ

وما بلدُ الانسان الاَّ الذي له	به سكن يشتاقه وحبيب

ويشرب، ويحلّق بروحه، ويغني الروض، والورد، والنسيم، والندى، تاركاً في اذان العشاق الانغام المضمخة بالعبير:

خليلَّي لا عيش سوى اللهو والصبا	ولا لهو الاَّ في سماعٍ وفي خمرِ
فحثَّا كؤوس الراح صرفاً فأنني	ارى الدهر صعباً لا يدوم على امرِ
وأعطِ من العيش الشباب نصيبه	ولا تنظرن كرَّ البياض على الشعر

ويتلفت يمنه ويسره فيتذكر اماسيه بين الحدائق الوارفة الظلال... على ضفاف النيل الوادع.. يتذكر حبيبه الغائب... فيقول:

اتنسى ايها العاتب	ظلماً ليلة النهر
وكرّات مجارينا	من المختار للجسر
وقد قابلك البدر	فأخمدت سنا البدر
ولاح الفجر في وجـ	ـهك في الليل بلا فجر
وفي خديك مارقّ	عن التشبيه بالخمر
واضنتني الحاظك	حتى رحت لا ادري
اسقمٌ بين اجفانك	ام كحل من السحر
وقد عاطيتني كأ	سك ممزوجاً من الثغر
وبتنا من تدانينا	على اضيق من فتر
مبيت الصائم الغر	قان وافى ليلة الفطر
بلا بغي ولا اثمٍ	ولا فحشٍ ولا نكر

ووصف تميم الصيد، والخيل، والكلاب، والبزاة، والخمرة، والطبيعة... وأفرد باباً للهجاء، وللرثاء، وللمديح، وللغزل.

اجل.. كانت حياته وآماله، وقلبه، وعواطفه تتآمر في سبيل ارهاق حياته الجبَّارة الأبية فجاء شعره يعرض عواطفه، ومشاعره، وما يختلج في صدره.

ومهما يكن من امر... فقد عبَّر شعر تميم عن حياته الخاصة، وحياة

الطبقة المترفة، واعطى صورة صادقة عن الفن والجمال.. فهو يقول:

عـاقـب بما شئـت مـن الهجـر واغلق رضا قلبـك عـن غـدري
اليس قـد رحـت على كـل ذا اجـول في سرك والجهـر
جـدّدِ ولـو بـالسوءِ ذكـري فما احـبُّ ان تنفـكَّ عـن ذكـري

ويعرّج تميم على اماكن اللهو في ساعات مبكرة.. ليخلو بمن يحب... وكان هذا ما يخفف الآمه:

كم بـديـر القصير لي مـن بكـورٍ ورداح على الصبـا والعقـار
حيث اخلو بمن احب من القصـف قليـل الوقـار لسـت اداري
كم صبـوحٍ شـددتـه بغبـوق وظلام وصلتـه بنهـار
انَّما العيشُ ان تـروح عشيـاً قـاصفـاً عـازفـاً خليـع العـذار

وما اروع تميم وهو يصف لنا ليلة من مغامراته:

ولي صاحبٌ لا يمرضُ العقل جهلـه ولا تتأذَّى النفس منـه ولا القلـب
اذا قلت لا في قصـةٍ لم يقـل نعـم وان قلت اصبو قال: لا بد اناصبو
وان قلت هاك الكاس قال مبـادراً الا هـاتها طـاب التنـادم والشرب
غدوتُ به يـومـاً الى بيـت حـانـةٍ وللغيم دمع مـا يكـفُّ لـه سكـب

فـافضـى بنـا الادلاج بعـد شقـةٍ الى زولـةٍ شمطـاء منـزلها رحـب
فقالت لنـا اهلاً وسهلاً ومـرحبـاً وقـلَّ لكم مني البشـاشـة والرحـبُ
من انتم؟ فقلنا عصبة من بني الصبـا دعاهم اليك القصف والعزفُ واللعب
فقالت على اسم الله حطوا رحـالكم فعندي الفتاة الرؤد والأمرد الرطـب
وراح نفي اقذاؤها طول عمـرهـا فجاءت كما يذري مدامعه الصـبُّ
كـأنَّ سراجـاً في تـرائـب دنها اذا اقبلت من جانب الدن تنصبُّ
فقلنـا لها هـاتي بها وتعجلي ولا يك فيما قلت خلف ولا كـذب
فجـاءت تجرُّ الزق نحوي كـأنـه على الارض زنجيٌّ بلا هامـة يحبـو
فلمَّا مزجناهـا بـدا فـوق راسهـا حباب كما ينساب من سلكـه الحب

وطافت بها هيفاء مخطوفة الحشا معاطفها سلم والحاظها حرب
تمايلَ ردفاها وادرج خصرها ليانـاً ولطفاً مثلما تدرج الكتب
احلّت لي الصهباء تقبيل ثغرها وما كان قبل السكر في لثمه عتب

ومن روائعه وصفه لرحلة قام بها في النيل... فوصف السفن وهي صاعدة، وهابطة فوق الامواج، وشبهها بالخيول وهي في صعودها وهبوطها في الطرقات المتعرجة، وما اجمل تشبيهه الامواج بطيات اللحم التي تنمو على البطن من فرط السمنة، امّا داراته المدورة فكانها خطوط الكف، او الجبهة. ويعتبر كل هذا ابداعاً، وفتحاً جديداً.

يوم لنا بالنيل مختصر ولكل يوم مسرة قصرُ
والسفن تصعد كالخيول بنا في موجه والماء ينحدر
فكانما امواجه عكن وكأنما داراته سرر

ويقول ايضاً في وصف السفن:

بعثت بساكنات طائرات تفوت اللحظ وهي بلا جناحِ
تطيرُ اذا المجاديف استحثت بها طيران اجنحة الرياح
كأن سوادها في الماء يحكي سواد الاعين النجل الملاح

هذا ما امكن عرضه عن الشاعر تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، ولعلّ ما ذكرناه يعطي صورة واضحة عن شاعر مغمور غنّى الديار اجمل الالحان، وترك بعده ارق الاغاريد، وأشجى الترانيم، وذهب عن هذه الدنيا وهو يردد:

ولولا احتمال النفس كل مشقة
اذن لتساوى في العلا الحرّ والعبدُ
كذا السيف لا تستخبر العين عتقه
اذا لم تفارقه الخمائل والغمدُ
وليس لكل الناس يستحسن الغنى
كما ليس في كل الطلى يحسنُ العقد

المصادر العربية للكتاب :

استتار الامام

نشرته مجلة كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٦ م

سيرة جعفر الحاجب لليماني

نشرته مجلة كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٦ م

تاج العقائد

علي بن الوليد ـ نشره و. ايفانون . . وعارف تامر .

الفاطميون في مصر واعمالهم السياسية والدينية

حسن ابراهيم حسن ـ القاهرة ١٩٣٣

تاريخ الاسلام السياسي والديني . . .

حسن ابراهيم حسن ـ القاهرة ١٩٤٦

النظم السياسية

حسن ابراهيم حسن ـ القاهرة ١٩٣٩

بالاشتراك مع علي ابراهيم حسن

عبيد الله المهدي

امام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في المغرب ـ بالاشتراك مع طه احمد شرف ـ القاهرة ١٩٤٧

اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم

ابن حمّاد القاضي ـ الجزائر ١٣٤٦ هـ .

كنوز الفاطميين

زكي محمد حسن القاهرة ١٩٤٠

تاريخ الاسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد

طه احمد شرف « مخطوط »

تاريخ جوهر الصقلي

علي ابراهيم حسن القاهرة ١٩٣٣

المؤيد في الدين

هبة الله الشيرازي ـ محمد كامل حسين ١٩٤٧

المجالس المستنصرية

للداعي ثقة الامام ـ القاهرة ١٩٤٧

اتعاظ الحنفا باخبار الخلفا

المقريزي ـ بيت المقدس ١٩٠٨ م

المجالس والمسايرات

القاضي النعمان بن حيُّون ـ « مخطوط »

الهمة في اداب اتباع الأئمة

محمد كامل حسين ـ القاهرة ١٩٥٤

الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين

عارف تامر ـ بيروت ١٩٨٠

القائد جوهر الصقلي

عارف تامر ـ بيروت ١٩٨١

شرح ديوان ابن هانيء الاندلسي

عارف تامر ـ بيروت ١٩٨١

المعز لدين الله

حسن ابراهيم حسن، وطه احمد شرف ـ القاهرة ١٩٦٤

عيون الاخبار

ادريس عماد الدين « مخطوط »

نزهة الافكار
ادريس عماد الدين « مخطوط »
في ادب مصر الفاطمية
محمد كامل حسين ـ القاهرة ١٩٥٦
كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة
الحمادي اليماني ـ مصر ١٣٥٧
لمعة من اخبار المعز
مؤلف مجهول « مخطوط »
ثورة القرامطة الاشتراكية
عارف تامر ـ ١٩٨١
القرامطة
عارف تامر ـ بيروت ١٩٧٨
عبقرية الفاطميين
محمد ـ بيروت ١٩٦٠
اساس التأويل
تحقيق عارف تامر ـ بيروت ١٩٦٠
الرياض
عارف تامر ـ بيروت ١٩٦٠
الحاكم بامر الله
عارف تامر ـ بيروت ١٩٨١
دعائم الاسلام
تحقيق آصف علي أصغر فيضي ـ القاهرة ١٩٦٠
تميم بن المعز لدين الله
« دراسة ادبية » عارف تامر ـ بيروت ١٩٨١
اروى بنت اليمن
عارف تامر « سلسلة اقرأ » ـ القاهرة ١٩٦٥

المصادر الاجنبية

(1) A Short History of the Fatimid Khalifate
London 1923.

(2) A guide to Ismaïli literature
W. Ivanow London 1934.

(3) A **Chronological** List of the Imams and Daïs of the Mustalian
Ismailis–Royal (fayzee–Asaf) Asiatic– society
1934 London 1934.

(4) A Compendium of Ismaili esoterics
Islamic Culture, H. Hamazani 1937.

(5) Cadi an Numan (J.B.R.A.S.)
Asaf–fayzee–London 1934.

(6) Cairo–Jerusalem and Damascus
Margoliothe Oxford 1907.

(7) Essai sur l'histoire de l'Islamisme
Dozy – R.P.A. Paris 1879.

(8) Essai sur **l'histoire** des Ismaeleens de la Perse
Defrémery–M.C. Leyden 1881.

(9) Etudes sur la Conquêfe de l'Afrique par les Arabes
Henri–Fournel–Paris 1881.

(10) Esquisse d'une Bibliographie Carmathe-
-Massignon- Cambridge 1922.

(11) Enquêfe au pays du Levant
(Mauris–Barrés) Paris 1924.

(12) Fragments relatifs a la Doctrine des Ismailis
Paris– 1874 –Guard–S.

(13) Geschichte des Fatimiden Chalifen
Göttingen–1881– «Wustenfeld».

(14) Histoire des Musulmans d'Espagne
Dozy–R.P.A. Leyden 1861.

(15) Histoire de l'ordre des Assassins
Hammer (Paris) 1833.

(16) Literary History of Persia
Browne Edward–G– London 1909.

(17) Les Siecles obscures du Maghreb
Paris 1927.

(18) Le Dogme et la Loi de l'Islam
Paris 1920.

(19) La fin de l'Empire de Carmathes du Bahrain
Journal– Asiatique– de Goeje– M. J Leyden 1895.

(20) Literary History of the Arabs
Nicholson–Cambridge 1930.

(21) Memoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides
De Goeje M.J. Leyden 1886

(22) Memoires Historiques sur la Dynastie de Khalifs Fatimides
J.A. Paris 1836.

(23) Some unknown Ismaili authors and their works
(J,R,A,S) 1933 H. Hamazani.

(24) The preaching of Islam
Arnold Thomas W. London 1935.

(25) The Rise of the Fatimids
Calcutta 1942–W. Ivanow.

(26) The Karmathians «Encyclopaedia of religion and Ethics»
De Goeje–M.J. 1895.

(27) The Ismailian Law of Muta (Fazee–Asaf) J.B.R.A.S.
London 1929.

(28) The origins of Ismailism
Bernard–Lewis–Cambridge–1940.

(29) The Story of Cairo
Lane–poole Stanley–London 1912.

(30) The Caliphate: Its Rise Decline and Fall
Muir London 1924.

الفهرس

AL — MU^C^IZ LI — DĪN ALLĀH AL — FĀTIMI

WĀḌI^C^ USUS AL — WAḤDAH AL — ^C^ARABIYYAH AL — KUBRA

by
Dr. ^C^ĀRIF TĀMIR

Dar al-Afaq al-Jadida BEIRUT-LEBANON